

أعلام العرب

١

عَبْقَرِيّ الإِصْلَاحِ وَالتَّعْلِيمِ
الْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ عَبْدُكَ

لِلأَسْتَاذِ

عَبَّاسٍ مُحَمَّدٍ الْعَقَّادِ

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "البحالة"

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ — ٩٠٥١٤٧

تقديم

الطبعة الثانية

بسم

محمد عبد الفادر حاتم

نايب رئيس الوزراء للثقافة والإرشاد القومي

يسرني أن أقدم الى قراء العربية الطبعة الثانية من هذه السلسلة الناجحة التي تترجم لأعلام العرب الذين حملوا مشعل الحضارة ، وارتادوا آفاق العلم ، وشاركوا في تراث الانسانية بأوفر نصيب .

وقد أثمرت سياسة الوزارة التي انتهجتها لتحقيق اشتراكية الثقافة ، بتيسير أثمان السلاسل التي تصدرها حتى تساعد كل بيت على أن ينشئ مكتبة له بضمن زهيد ، واني لأرجو لسلسلة أعلام العرب مزيدا من النجاح وأن تتوالى طبعاتها فيعم نفعها العالم العربي جميعا .

ويسعدني أن تظهر هذه الطبعة في وقت تقاربت فيه قلوب العرب وأوشكت أن تتحقق الوحدة الثقافية الكبرى التي ننشدها بفضل السياسة الحكيمة التي رسمها زعيمنا وقائد نهضتنا الرئيس جمال عبد الناصر .

ولا يسعنى وأنا أقدم هذه الطبعة من سيرة محمد عبده إلا
أن أعبر عن عميق أسفى لوفاة كاتبها الكبير الأستاذ عباس
محمود العقاد الذى كان رائدا من رواد الفكر والثقافة والأدب
فى هذا الجيل ، وأن أذكر بالشكر والعرفان ما بذله من جهد
كبير وعون صادق فى تحقيق كثير من المشروعات التى قامت
بها الوزارة .

والله ولى التوفيق .

عبد الباقى مصطفى

تقديم

بقلم

شروت عكاشة

وزير الثقافة والإرشاد القومي

شغف الناس في هذا القرن بقراءة السير ، فهي تحررهم حين يقرأونها من حدود الزمن ، وتعيدهم الى الماضي ، يستمدون منه العبرة ، ويتزودون منه بالعظات ، فتتصل بذلك حلقات الانسانية ولا تنقطع .

وكتابة السير ليست عملا سهلا ولا هينا ، ولكنها من أصعب صنوف التأليف ، فهي تتطلب من كاتبها أن يجمع بين قدرة المؤرخ وموهبة الأديب ، ليصبح قادرا على تحرى الحقيقة واستقصاء الشواهد ، والتزام الحيدة والانصاف ، والبعد عن الهوى والتحيز ، الى جوار ما يسبغه على الموضوع من الوحدة الفنية ، ويصور فيه شخصية صاحب السيرة تصويرا شائقا ، نابضا بالحياة .

ولا شك أن للعرب نصيبا كبيرا في الحضارة الانسانية ، والتاريخ العربى زاخر بالأمجاد ، حافل بالأعلام فى كل فرع من

تفروع المعرفة ، وفي كل ميدان من ميادين الحياة ، وما أحتاجنا في هذا الطور من أطوار نهضتنا العربية المتوثبة الى دراسة هؤلاء الأعلام ، والترجمة لكل منهم في كتاب يؤلفه كاتب من المتخصصين ، يعرض فيه سيرته ويحللها ، ويصف عصره ووقائع حياته ويبرز شخصيته ، ويبين آثاره وفضله على التقدم الانساني .

ومن هنا نبنت فكرة هذه السلسلة الثالثة التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي بعد المكتبة الثقافية وروائع المسرح العالمي .

وقد توخت الوزارة في هذه السلسلة الشهرية ما توخته في المكتبة الثقافية من تحقيق اشتراكية الثقافة ، وتشجيع كل بيت على تكوين مكتبة له بثمن زهيد ، وحددت ثمن النسخة منها بخمسة قروش وحسب .

وانى اذ أقدم هذا الجهد المتواضع الى جمهور القراء في الوطن العربي الكبير ، أرجو أن يوفقنا الله جميعا ، الى تحقيق آماني الأمة العربية ، تحت قيادة رائد القومية العربية ، الرئيس : جمال عبد الناصر .

شريف مكي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

نبدأ هذا الكتاب بفصل عن عصر اليقظة ، يليه فصل عن حياة القرية المصرية في ذلك العصر ، يليه فصل عن الجامع الأزهر . فيما اتصلت به حياة القرية من رسالته الفكرية والاجتماعية ، لأننا نقضى من كل تاريخ من هذه التواريخ الثلاثة الى تاريخ صاحب السيرة : أعظم من ألجبتة القرية ونهض برسالة الأزهر في عصره ، عبقرى الاصلاح والهداية محمد عبده ، قدس الله روحه وأعاننا على التعريف بفضلته والتعريف بواجبنا من بعده ..

تمهيد نفتتح به هذه السيرة العطرة ، لنبسطها على ما تتحراه من سير العظماء جميعا ، صورة نفسية تعيننا منها حوادث الزمن ومواقع الأمكنة وأرقام السنين بمقدار ما تمثله لنا من ملامح الصورة ومعالم الحياة التى تصورها ، وكل ما فى هذه الصفحات من أحاديث التاريخ والرواية عن محمد عبده فى نشأته وأسرته وصحبته وعوارض أوقاته من مولده الى وفاته ، فالذى تتحراه منه أن يكون عضوا من أعضاء قوة حية ، قبل أن تتحراه جزءا من فترات التاريخ أو جزءا من الخريطة

الجغرافية ، ويملى لنا فى مقصدنا أن صاحب هذه السيرة - خاصة - ينبوع قوة روحانية تطوى عوارض الزمن وصغائر الدنيا فيما تفيض به من حياة انسانية ، يخلص لنا منها بعد تمحيص الجوهر عن نفايات الأوشاب والأخلاق ، أشرف ما تتحلى به نفس الانسان ، فى العالم الخالد الذى يذهب بالزبد ويبقى ما ينفع الناس .

وسنبغ مقصدنا من هذه الصفحات اذا جلونا بها صورة يلتفت اليها طلاب القدوة الحسنة من أبناء هذا الجيل فيجدون أمام أعينهم - محمد عبده - اماما هو أولى أئمة العصر أن يأتهم به المقتدى فيما اضطلع به من أمانة العقيدة ، وأمانة الفكر ، وأمانة الخير ، وأمانة الحق ، وأمانة الاخلاص للخلق والخالق ، فى كل ما يتولاه الانسان - الجدير باسم الانسان - من نية وعمل ، ومن سر وعلانية .

عباس محمود العقاد

العصر^٧

قيل ان أحلك ساعات الظلام هي ساعة الهزيع الأخير من الليل قبل مطلع الفجر الصادق بلحظات .

ويصدق ذلك على أوقات الظلام في عصور التاريخ ، فان أظلم أوقاته لهو الوقت الذى يسبق فجر اليقظة بقليل من السنوات ، ثم تأتى اليقظة في حينها فاذا هي بصيص النور الأول ، قبل تباشير الصباح .

وعلى هذه الوتيرة كان القرن الثامن عشر في الشرق العربى أحلك ساعات ليله الطويل : ليل الجهالة والجمود ، ولم تكن بين العصور نسبة متصاعدة في ترتيب الزمن كتصاعد الأرقام في حساب القرون ، فلم يكن القرن الثانى عشر - مثلاً - أعرق في النكسة و « الرجعية » من القرون التى تليه الى أواخر القرن السابع عشر الذى بدأت به نهضة العالم العربى في العصر الحديث . بل كان القرن الثامن عشر أسوأ - ولا ريب - من أسوأ القرون التى تقدمته في أيام الجهالة والجمود ، لأنه القرن الذى انبعثت فيه المسألة الشرقية من بقايا الحروب الصليبية ، فكان نذير الخطر الأكبر ، اذ كان الخطر قد تفاقم وتراكم ، وتجمع وتوسع ، حتى لا مزيد .

وكانت المسألة الشرقية قد تمخضت عن دور آخر وراء دور الحروب الصليبية وهو دور التفاهم بين دول الاستعمار على

تركة الرجل المريض . فبعد أن كان الغرض من المسألة الشرقية انتزاع الأقطار المسيحية من أملاك الدولة العثمانية أصبح هذا الغرض - كما قلنا في كتاب ضرب الاسكندرية « هو تقسيم أقطارها جميعا من مسيحية واسلامية وتبادل الاغضاء عن كل نصيب متفق عليه يقع في قبضة الطامعين فيه من المتنازعين على التركية وصاحبها بقيد الحياة .

الا أن المسألة الشرقية صنعت من المعجزات في ايقاظ الشرق ما لم تصنعه الحروب الصليبية .

لأن الشرق العربى انتصر على الغرب فى تلك الحروب ورد عادية الدول الأوروبية عن ذماره ففنع بما انتهى اليه وبقي على حاله التى هو فيها ، وهبط من بعدها دركة تحت دركة ، حتى أصبحت أممه بين موروث بقيد الحياة ، وبين ميراث كأسلا ب الغنيمة مقسم فى من يقدرؤن على السلب والاقتسام .

لكن المسألة الشرقية جاءت فى أوانها هذا فصنعت من المعجزات ما لم تصنعه تلك الحروب ، وكان سر هذه المعجزة أنها فتحت أعين الشرق على مواطن عجزه وتقصه ، وعلمته قهرا بما كان يأبى أن يتعلمه باختيساره ، فأدرك حاجته الى التغيير العاجل ، وأدرك ما هو ألزم له من ذلك وهو حاجته الى علم يجهله ، واعتقاده أن أمم الغرب قد اقتصرت بذلك العلم عليه ، وأنه لا غنى له عن ذلك العلم ليستعيد القوة التى انتصر بها على أعدائه ، قبل أن ينتصروا عليه ويأخذوا عليه كل طريق غير طريق الفناء أو التغيير ، ومن لم يطلب التغيير بعلم يتعلمه من

المنتصرين عليه فقد آمن بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا،
ما بأنفسهم ، وآمن بأن قومه غيروا دينهم فتخاذلوا وانخذلوا ،
فلا نجاة لهم بغير الرجوع الى الدين الصحيح ، مبرءا من لوثة
البدعة والخرافة ، سليما من شبهة الدجل والغفلة .

فاذا كانت قارة الاستعمار قد حصرت خطتها حيال الشرق،
في سياسة واحدة تريدها وتتعمدها ، فهناك كما قلنا في كتابنا،
عن الكواكبي « سياسة أخرى لم تردها ولم تتعمدها تلقاها
الشرق منها فهب لمقاومتها ، وتيقظ لمطامعها ، ونزل معها في
ميدانها الذي استنفزته له ياختيارها وبغير اختيارها ... وقصر
القول على الشرق العربي كما كان في أواسط القرن التاسع عشر.
.... ففي تلك الفترة كانت مصر قد ظفرت بحصنة كبيرة من
الحكومة الذاتية ، وكانت لبنان قد خرجت بعد الفتن والأزمات
بنصيبها المقرر من الامتيازات الداخلية ، وكادت جزيرة العرب
أن تنعزل بالدعوة الوهابية وتوشك أن تمتد منها الى العراق ،
وكانت العراق في صراعها مع حكم المماليك تتقدم في خطى
سراع الى الخلاص من ذلك الحكم المضطرب بين الكساد
والوباء ولعلنا ندرك حقيقة الحال ونعلم أن وعود الاصلاح
كانت ضرورة لازمة ولم تكن انعاما ولا احسانا من ولاية الأمور
اذا نظرنا الى بقاع العالم العربي فلم نجد فيه بقعة واحدة
رضيت بما هي فيه ولم ينهض أملها للمطالبة بنوع من الاصلاح،
على نحو من الأنحاء ، فتحرك السودان وتحركت الصحراء
وتحركات قبائل المغرب في ثورتها بل في ثوراتها التي تكررت ولا

تزال تتكرر الى اليوم وصدق على العالم العربي بين أطرافه المترامية قول القائلين في الغرب : انه مارد خرج من القمقم ولن يعود اليه ، وكان في الحق ماردا هائلا يتململ في الأسر ليخرج من قمقمه المظلم المحصور ، ولكنه لم يكن ماردا معصوب العينين كما صورته أولئك الراصدون للقمقم أو كما أرادوا أن يتصوروه . اذ كان للمارد زمame في أيدي الهداة من القادة الملهمين ومن رواد الثقافة الأولين ، وكان لهذه الهداية بين المسلمين وغير المسلمين طابع الشرق الخالد منذ الأزل : طابع العقيدة والايمان وربما قال الجامدون قبل المجددين ان الأوروبيين عملوا بأدب الاسلام فأعدوا العدة ونظروا الى حكمة الله في خلقه فتقدموا وتأخر المسلمون ... » .



ونحن الآن نغتبط بالمصير الذي انتهت اليه المسألة الشرقية بعد منتصف القرن العشرين ، ولكن واجب العظة الصادقة يتقاضانا أن نذكر في كل حين أن الشرق لم يكن سريع الخطى في انتقاله من دور الجمود الى دور الخلاص ، لأنه قضى نحو قرن كامل يجاذب بعضه بعضا عن الطريق القويم بين من يحسبون أن هذا الخلاص كله في اتباع الجديد على علاته ومن يحسبون أن هذا الخلاص مطلب بعيد المنال علينا اذا نحن لم نبذ الجديد بقضه وقضيضه ، وكأننا خرج المارد من القمقم الى فضاء الأرض والسمااء ولكنه خرج اليه مكبلا بالأغلال والأعباء التي تثقل الرءوس قبل أن تثقل الأقدام ، ولبثت كل

أمة من أمم الشرق الأدنى تنتظر القارعة التي تخصها بالعظة بين جاراتها وأخواتها التي تشبهها في المصائب وتشبهها في المصير ، فلم تتعظ أمة من هذه الأمم بمصائب غيرها على النحو الرشيد الذي يعفيها من تكرار الجهود وابتداء المسير من جديد ، وكأنما كانت أثقال الماضي أكبر وأخطر من دواعي اليقظة والحركة في الحاضر والمستقبل ، فبقيت هذه الأمم المتيقظة تجرر وراءها تلك الأثقال شوطا بعيدا بعد استقامتها على منهج الإصلاح المحتوم .

وفي مصر كانت حملة نابليون هي الصدمة الكبرى التي خصتها بدروسها العاجلة ، وكانت دروسا محتومة لا تمهل المتعلم أن يتردد بين الجمود والحركة .

وربما كانت الغلبة العسكرية أضعف تلك الدروس أثرا ، لأن هزيمة المماليك لم تقع من الأمة موقع الدهشة ولم يصعب على الذين كلفوا أنفسهم تدبر عواقبها وأسبابها أن يردوها الى غضب الله وأن يعتبروا بعبرتها عقابا للقوم على الظلم والطمع وسوء السيرة وغلبة الترف والنعموة في الكثيرين منهم على صفات البأس والنخوة كما قال شاعر الجبرتي :

انما هذه البلاد لأقوا

م حموها بالصارم المسلول

وأرى دولة المماليك مالت

لضروب اللذات (كل ميل)^(١)

(١) في نسخ الجبرتي روايات لهذا الشطر صححناها بالظن هذا التصحيح .

واغتنوا عن تجريد سيف ورمح
بقوام لدن وطرف كحيل

ولكنهم علموا أن ظلم الممالك قد يسوق اليهم من يغلبهم
ويقهرهم ، ولكنه لا يضع في يد الغالب القاهر سلاحه الذى
يصول به على عدوه فيقهره ويستذله وان لم يكن أحمد منه
سيرة وأقل منه فسادا كما شهدوا بعد ذلك من سيرة
« الفرنساوية » فى هذه الديار ، ثم نظروا فعلموا أن نابليون
لم يزحف على الممالك بجيش واحد بل بجيشين : جيش يحمل
السلاح وجيش آخر من جماعة العلوم والفنون يحمل الكتب
والأوراق وهو الجيش الذى حشده الفرنساوية فى المدينة .
« وأفردوا للمدبرين منهم والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم
الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين
والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية حيث الدرب
الجديد وما به من البيوت ، وفيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها
خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد
المراجعة ، وكان فى تلك المكتبة زيادة عن الكتب العلمية
والتاريخية أطالس فيها صور من سلف وصور الأماكن التاريخية
وخرط البلاد والمدن والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ
القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم
ومعجزاتهم وحوادث أممهم ، وعند توت الفلكى وتلامذته فى
مكانه المختص بعلم الآلات الفلكية ، وأفردوا لجماعة منهم بيت
ابراهيم كنتخدا السفارى وهم المصورون لكل شئ ، ومنهم

أريجو الذى أبدع تصوير المشايخ المعينين بالمجلس ، وفريق منهم يحنطون الحيوانات والأسماك ، وأفردوا أماكن للمهندسين وسكن الحكيم (روى) بيت ذى الفقار كتحدا ونظم دار الأدوية به ومعه عدة من الأطباء والجراحين ، وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف شركس لعمل التحليلات الكيموية والظواهر الطبيعية ، وأفردوا أيضا مكانا للنجارين وصناع الآلات والأخشاب (١) ...

وربما كان من بواعث احياء الثقة بعد موتها ، ومن بواعث الاقبال على هذه العلوم الغربية بعد النفور منها والاعراض عنها ، أن أذكىاء البلد فهموا أنها « بضاعتنا ردت إلينا » وأن الفرنسيين إنما أخذوا من علومنا فى المشرق ما أهملناه وضعيناه فبلغوا به من القوة حديثا مثل ما بلغناه قديما ، ولا يزالون يبحثون عن المزيد ليلغوا فوق ما بلغوه ، ويمكن لأذكىاء البلد من هذا الاعتقاد أنهم نظروا الى الجلة المختارة من علماء القوم فأروهم يجدون فى البحث ولا يترفعون عن التمرغ بالأتربة والخرائب ليكشفوا بين ودائعها عن أسرار الكيمياء والفلك وأخبار الرى والزراعة ، ولم يتورعوا عند سفرهم عن حمل ودائع المساجد وخزائن الكتب بما اشتملت عليه من المخطوطات المطوية والنسخ النادرة ، تنفيذًا للمادة الحادية عشرة من شروط الصلح الأخير التى تنص على : « أن أرباب العلوم والصنائع

(١) الجبرئى وتقويم النيل وغيرهما ...

يأخذون معهم جميع الأوراق والكتب مما لا يخصهم فقط ، بل كل ما يروونه نافعا لهم » .



وقد فارقت الحملة الفرنسية مصر ولم تفارقها فكرة التقدم العصري الذي سبق اليه القوم بعلوم ابتكروها أو بعلوم اقتبسوها منا ، وآآن لنا أن نردها اليها .

ولكنها كانت فكرة تحوم بين بعض الرءوس ولا يظهر لها أثر في الحياة العامة ، لاختلاف وجهات النظر بين طلاب الجديد على علاقاته وأعداء الجديد بحذافيره ، ولأن التجديد في الحياة العامة مطلب تتولاه الهيئات المنظمة والحكومات المطاعة ولا يستقل به الأفراد في جهود مبشرة وآراء متضاربة ، فلما قامت في مصر أول حكومة ذاتية بعد حملة نابليون لم تلبث أن أحست وطأة الضرورات العملية والحاح المطالب الموقوتة ، ولم تكن هذه الضرورات مما يحتل التسويق بين الآراء المتشعبة والوجهات المتعارضة ، ووجب على ولاية الأمر أن يوطنوا أنفسهم على مصير كمصير المماليك أو يتتدروا الزمن الى الانتفاع العاجل بتجديد التعليم والتصنيع ، فأخذوا في بناء المدارس وارسال البعث وانشاء المصانع وتنظيم الدواوين وضبط موارد الثروة ، وعملت المطبعة عملها في نقل المؤلفات النافعة واحياء الذخائر السلفية ، وتداولت أيدي المثقفين القلائل كتب الأجانب في علوم التاريخ والفلك والجغرافية

والطبيعة والكيمياء وشئون الحكم والاجتماع ، كما تداولت كتب الأدب والثقافة من آثار السلف المهجورة ، واتجهت الهمم الى جمع هذه الآثار من مظانها في المساجد والزوايا وخزائن القصور ، فلم يمض جيل واحد بعد الحملة الفرنسية حتى ظهر « الرجل المثقف » في البيئة المصرية ولم تخل منه بيئة من بيئات التقليد والرجعة الى القديم وهى على عادتها في الأزمنة المختلفة أعدى أعداء التحول والتجديد .

وشرط الرجل المثقف في كل عصر أنه « ابن عصره » وأن طابع عصره يلزمه في تفكيره وعمله كما يلزمه في نظرته الى العالم من حوله ، فلا يعيش في الزمن الحاضر بعقل الزمن الماضي ، ولا يترجم الواقع والحقيقة بلغة الوهم والخرافة ، وقد وجد هذا الرجل المثقف في كل بيئة من بيئات التقليد والتجديد ، فثبت طابع العصر على أبناء القرن التاسع عشر قبل انتصافه ، ولا نعى بشوت طابع العصر في تلك الفترة أنها أخذت كل ما يعطيه العصر من علومه وفنونه وأفكاره وخواطره ، ولا أن المثقفين في الأمة غلبوا على أفكارها وخواطرها أو غلبوا على كل ما بقى في رءوسهم وصدورهم من ميراث ماضيهم ، ولكننا نعى أنهم استطاعوا أن يفتحوا أعينهم على النور بعد الظلمة ، فأبصروا غاية ما تمتد اليه تلك الأعين من منظور معروض بين أيديهم تحت أضواء النهار ، ولم يزل فيهم بعد ذلك حديد النظر وكييله ، بل لم يزل فيهم من هو طويل النظر ينظر الى البعيد

ولا ينظر الى القريب بين يديه ، أو ينظر الى القريب اللاصق به ولا يعدوه الى ما وراءه .

كان القرن الثامن عشر أحلك ساعات الليل قبل مطلع الفجر ، فلما طلع الفجر وأشرق من بعده النهار تيسرت الرؤية لمن يستطيعها كما تستطيع عيناه ، وهذا هو الفارق بين المثقف ابن عصره في منتصف القرن التاسع عشر وبين الجأمد على قدميه قبل ذلك بخمسين أو ستين سنة . فارق بين من ينظر بعينه وبين من يتخبط في الظلمة أو يقاد .

من هؤلاء الناظرين بأعينهم الى النور بعد منتصف القرن التاسع عشر ، بل في الطليعة من أولئك الناظرين البصراء الى حقائق زمانهم ، نابغتنا الريفى الأزهرى الذى علم علم اليقين ، بل آمن إيمان الدين المتين ، أن « التقدم العصرى » رهين بعلوم لنا أهملناها وهجرناها ، وعلوم للمعتدين علينا سبقونا إليها ولم نلحقهم فى غير القليل منها ، وهى حقيقة من « بديهيات » أيماننا هذه بعد منتصف القرن العشرين ، ولكن نابغتنا الريفى الأزهرى - محمد عبده - كان يقررهما بعد منتصف القرن التاسع عشر فيجد أمامه من يخاطبهم بمثل ذلك المقال الذى كتبه فى صحيفة الأهرام الأسبوعية وتحرى فيه أن يكتبه بأسلوبه المخضرم بين القديم والحديث فقال :

« ليت شعرى اذا كان هذا حالنا بالنسبة الى علوم قد أرضعت ثدى الاسلام وغذيت بلبانه وتربت فى حجره وتقلدت فى ايوانه منذ زمن يزيد على ألف سنة ... فما حالنا بالنسبة

الى علوم جديدة مفيدة هى من لوازم حياتنا فى هذه الأزمان
.... لا بد لنا من اكتسابها وبذل المجهود فى طلبها ؟.... كنا
نؤمل أن المبنج يفيق بشم روح النوشادر ... فى زمان جرى
فيه سيل العلوم حتى عم أنحاء الكرة على العموم ... وظهر
فيه التوازن بينها وبين أحوالنا المهجنة ، كثروتهم وفاقتنا ،
وعزتهم وذلتنا ، وقوتهم وضعفنا ، وقدرتهم وعجزنا ، وصولتهم
وانهزامنا ، وغير ذلك من المزايا والرزايا التى لا تعد ... لكن
صمت الآذان وعميت الأبصار ، ختم الله على قلوبهم وعلى
سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » (١) .



وقد كان الشاب محمد عبده يدعو هذه الدعوة وهو فى
الطليعة من أبناء جيله ، ولكنه سجل بها طابع العصر كله من
منتصف القرن الثامن عشر الى منتصف القرن التاسع عشر ،
ومن هزيع الليل الأخير ، الى مطلع النهار .

(١) أحد فصول كثيرة كتبها سنة ١٢٩٢ هـ .

الفترية

إذا أحاطت ألفاف الظلام ببقعة من الأرض خفيت معالمها ولم يتبين منها موضع من موضع ، وخيل الى الناظر اليها على البعد أنها خلاء بلقع أو أنها مسكن مهجور لا يأوى اليه ديتار ، ولا ينبعث منه بصيص نور .

ويقترّب السالك اليه فلا تنمحي أمام عينيه آية الظلام ، ولكنه يرى معها شيئاً غير الظلمات التي أطبق بعضها على بعض : شيئاً من النور هنا وهناك ، بين سراج ضئيل على باب دار ، أو فتيلة خافتة عند زاوية جدار ، أو نار تشب للهداية ، أو موقد يضرم للطعام : شيئاً آخر من بصيص النور غير ألفاف الظلام .

على حالة مثل هذه الحالة كانت صورة القرية المصرية في العصر المخضرم بين أواسط القرن الثامن عشر وأواسط القرن التاسع عشر :

صورتها من خلال التاريخ العام ظلام وموات ، وصورتها من قريب تنجلي عن شيء غير الظلام والموات ، بصيص من النور ورمق من الحياة .

ينظر القارئ في صفحات التاريخ العام منذ قرون ترجع الى ما قبل الميلاد ، فلا يفرغ من قصة دولة طاغية الا ليبدأ

بعدها فى قصة دولة باغية ولا ينتهى من حكم دخيل الا لينتقل الى حكم أصيل يضطرب بين الضعف والشقاق وبين العسف والجمود ، وينطمس فى آثناء ذلك كل ما تخلله من بريق هنا ووميض هناك ، فلا تنطبق الصفحات آخر الأمر الا على ألفاف من الظلمات كتلك الألفاف التى تحيط بالسالك فى غياهب الليل فلا يبصر وراءها غير ظلام مطبق على ظلام .

وينتقل قارئ التاريخ العام من تاريخ القرية على حدة فىرى شيئاً آخر الى جانب الطغيان والمذلة : شيئاً من العزة هنا ومن السخط هناك ، وشيئاً من الشعور بغير التسليم وراء كل تسليم ، ولكنه متفرق متقطع يراه الناظر اذا تبينه وفتش عنه ، ولا يكاد ينكشف له من النظرة الأولى فى نطاق أوسع من نطاق الأحاد منفردين متفرقين .

ومن الحق ألا يعجب قارئ التاريخ العام من هذه الصورة المختلفة للقرية المصرية فى تلك الفترة ، فانه كان أخرى أن يعجب لتلك القرية أن تبقى فيها بقية من التربة المخصبة بعد جوائح القحط والجذب والاعتصاب والالتهاب وعوارض الجفاف من سوء الزرع وسوء الرى أو سوء توزيع الماء ان فاضت به مجارى ، فاذا كان هذا كله لم يستنفذ ذخيرة الخصب فى هذه الأرض العتيقة فلا عجب أن تبقى للنفس البشرية ذخيرة من قوة الحياة بعد أن أصابها من غوائل الزمن ما أصاب أرضها من خراب وجذب واعتصاب .

وواقع التاريخ العام ، عند التأمل فيه ، أنه لم يخل قط من

دلائل القوة الكامنة وراء ظواهر التسليم والجمود ، وان طال بها الكمون والجمود أحيانا الى أجيال وراء أجيال .

فالتاريخ العام لم يخل من ثورة المقاومة بعد مظالم بناء الأهرام ، ولم يخل منها في ابان دولة الرومان ، وربما كانت المسيحية المصرية شعلة من شعل هذه الثورة بما شرعته لأهلها من عقيدة تنكر عقيدة الدولة الحاكمة ، وبما ساقته اليه العازفين عن الطاعة العمياء من عزلة الدير ووحدة الرهبانية ... ومن أبى تلك الطاعة العمياء من غير أهل الخير والتقوى فلعله لم يحمل سلاح العصيان ولم يذهب مع العصب والمناسر الا استباحة لعصيان الحاكم الظالم ، قبل استباحته للحرام من الأنفس والأموال .

وينبغي أن نذكر أن الحاكم الظالم لم يكن في وسعه أن يستأصل جذور الحياة في القرية لو أراد ، وانه لم يكن له مأرب في استئصالها ولم تكن له خبرة بوسائل استئصالها لو كان له من بعد النظر ما يخيفه من عواقبها في الزمن البعيد . فأما مأربه منها في حاضر وقته فكل همه منه محصول الزرع الذي يحمل اليه وهو قابع في قصور المدينة ، ومن حمله اليه من أعوانه فهو في تسخيريه للحارثين والكادحين لا يستغنى عن مسألة فريق منهم ومدارة آخرين ، بل عن بذل الرشوة لمن يعرفون في القرية من لا يعرفهم من العاملين والتمردين .

وكان ملتزم الزرع والضريبة لأصحاب السلطان في دولة المماليك أحوج ما يكون الى تلك المدارة ، سواء في القرى

«التي يملكها أبناؤها أو في القرى التي تزرع على «الروك» كما كانوا يسمون الزرع المشاع بعد أيام الأيوبيين .

فالمالكون لأرضهم على قلتهم كانوا أرسخ في بلادهم قدما ، وأعصى مقادا على الملتزم ، من أن يسوقهم جميعا بعضا الاكراه والتسخير ، وقد يرضى فريقا منهم بالتزامات صغيرة الى جانب التزامه الكبير .

والزارعون في أرض «الروك» غرباء عن الملتزم في كل قرية غير قرينته التي ولد فيها ان كان من أهل القرى ، أو هم غرباء عن مدينته ان كان من أهل العواصم البعيدين عن الريف . فحسبيله اليهم أن يرضى من يعرفهم وأن يحسب لهؤلاء حسابهم ، لأنهم ان كانوا أضعف بأسا من أن يقدروا عليه فهو أقصر يدا وأعجز وسيلة من أن يقدر عليهم أجمعين ، وأن يستفيد شيئا من قدرته عليهم كارهين مضربين .

وقد كانت لموارد القطر كله حصيلة يحسبونها بالقراريط بأربعة وعشرين قيراطا موزعة بين الأمراء والجند ومرافق الدواوين وأعمال القناطر والجسور والخيضان ، وكانت من هذه القراريط حصة محجوزة لأولئك الرؤساء المقدمين بين أبناء الريف ، يسمونهم في سجلات الدولة بالعلماء أو مشايخ العربان ، ويسمون «بأبناء العرب» كل من لم يكن من أبناء الترك والجراكسة وأعاجم الجند من كل قبيل ، فلم يكن

« مشايخ العربان » كلهم بدوا يعيشون في مضارب الخيام ، بل كان أكثرهم من الفلاحين والقرويين .



ان منفذ الحرية ، أو منفذ المقاومة ، أو منفذ الشكاية الذي بقى لأبناء القرى في أواخر عهد المماليك ، قد يتمثل لنا في حادث من حوادث كثيرة رواها المؤرخون لتلك الفترة ، ولكن هذا الحادث قد جمع من مراجع السلطة وأساليب المقاومة واشترك فيه الأمراء والعلماء وجمهرة الشعب على مثال يستحق أن نقرده بالذكر في هذا المقام .

روى الجبرتي في الجزء الثاني أن الفلاحين في قرية من قرى مركز بلبس شكوا في شهر ذي الحجة سنة ١٢٠٩ هجرية ، (١٧٩٥ ميلادية) الى الشيخ عبد الله الشرقاوى كبير علماء الأزهر ظلماً لحق بهم من أتباع محمد بك الألفى أمير المماليك المشهور ، فأبلغ الشيخ شكواهم الى كل من مراد بك وابراهيم بك ليخاطبا الألفى بك في هذه الشكوى ويطلبوا اليه أن يكف أتباعه عما يوجبها ، وانقضى زمن على هذا البلاغ بغير جدوى ، فجمع الشيخ الشرقاوى علماء الأزهر وتشاوروا في الأمر ملياً فاتهموا الى انذار الأمراء جهرة بالمقاومة وانفقوا على اغلاق أبواب الجامع ودعوة التجار وأصحاب الأعمال الى اغلاق الدكاكين وحوانيت التجارة واعلان ما نسميه اليوم بالاضراب العام ، ثم ركب الشيخ الشرقاوى والعلماء في اليوم التالى

وتبعثهم جماهير الشعب الى منزل شيخ السادات لاشراكه
واشراك أتباعه معهم في مقاومة الأمراء حتى يستجيبوا الى
مطالبهم ، وكان لابراهيم بك قصر بجوار بيت شيخ السادات
فرأى هذه الجموع التي لا يكف عنها المدد مما حوله ، وهالته
كثرتها فأرسل من يسأل عن سبب اجتماعها ، ثم علم بالسبب فلم
يجسر على الذهاب بنفسه الى مكان الاجتماع وأتاب عنه
الدفتردار أيوب بك لاستماع اقوال العلماء والسعى في تحقيق
ما طلبوه ، فعلم منهم أنهم يريدون كف المظالم وصيانة الأموال
والأرواح ورفع المكوس والضرائب الا ما يرتضيه الرعية ،
فخاطبهم أيوب بك في تخفيف بعض هذه المطالب والاكتفاء
بتعجيل بعضها مما يستطيع انجازه لوقته ، وقال : ان رفع
المكوس والضرائب دفعة واحدة متعذر ، وانه قد يرفع شيئا
فشيئا والا « ضاقت علينا المعاش والأرزاق » ، فصارحه العلماء
قائلين : ان الأمراء ينفقون الأموال فيما لا حاجة به ولا خير
فيه ، وما الحاجة الى اتفاق المال في البذخ والترف والاستكثار
من الجوارى والمماليك ؟ ان الأمير يعطى ولا يأخذ ما في أيدي
الناس ، وان الاتفاق على اللذات وضروب الزينة الخاوية اسراف
وفضول .

ولم يستمع العلماء جوابا شافيا في ذلك المجلس فباتوا
ليلتهم في حرم المسجد على أن يخرجوا في الصباح الى الميادين
والساحات العامة معلنين الأمراء بخلع الطاعة والاستجابة الى
أحكام الشريعة ، فبادر ابراهيم بك الى طلب المعذرة منهم

وأحال التبعة في رفض مطالبهم الى اصرار المخالفين له من أمراء المماليك ، وعلى رأسهم صاحبه مراد بك ، وأبلغهم أنه يؤيدهم ويحارب في صفوفهم اذا أصر المخالفون على الرفض والمراوغة ، وكاشف مراد بك في الأمر مستحثا له على عمل شيء عاجل. تهدئة المدينة قبل انفجار الشعب كله بالعصيان .

وكان الوالى الأكبر يرقب الحالة لينظر ما يصنعه أمراء المماليك لتدارك الخطر قبل استفحاله ، فلما كان اليوم الثالث. ولم يصنعوا شيئا قصد الى قصر ابراهيم بك وجمع هناك كبار الجند وأصحاب الكلمة النافذة في عساكر المماليك وأرسلوا الى العلماء والرؤساء يدعونهم للمشاورة ويعدونهم بإبرام الأمر على ما يحبون ، فحضر من رؤسائهم كل من الشيخ الشرقاوى، والشيخ الأمير وشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ البكرى ، وهم نواب الأمة المختارون لهذه الملهمات . وانقض الاجتماع بعد طول الأخذ والرد بقبول ما طلبه العلماء وكتابة موثق بذلك على الأمراء أن يتبعوه ولا يخالفوه ، ووقعوا جميعا على الحجة الشرعية « التى تسجل هذا الموثق وخلاصتها : أن يدين الأمراء بقضاء المحاكم في قضايا الحقوق ، وأن تفرض الضرائب بموافقة الرعية على حسب الأحكام الشرعية ، وأن يمتنع عدوان الحاكم بغير جريمة من المحكومين . وسميت هذه الوثيقة بالحجة الشرعية على عادة قضاة الشريعة في تسمية هذه العقود. ، ولو أنها كتبت في بعض البلاد الأوربية لجاءنا خبرها مع كتب القوم في علوم السياسة الحديثة بعنوان من تلك

«العناوين الكثيرة عن حقوق الشعب أو الدستور الأكبر أو
«الماجنا كارتا» وما إليها من مصطلحاتهم التاريخية ، ولكن
العلماء الذين دعوا أمراء العصر الى توقيع ذلك العهد لم
يحبسوا أنهم جاءوا الى الناس بعهد جديد غير التذكير بعهد
كتاب الله وسنة رسول الله التي نسيها أولئك الأمراء ، وكتب
الموثق « حجة » عليهم بشهادة الرعية وشهادة « الأمة » التي
تأمر بالمعروف من عباده العلماء .



وقد بقيت للقرية هذه البقية الصالحة من القدرة على المطالبة
بالحق والشكوى من الظلم الى ما بعد عهد المماليك بزمان
طويل ، ولم تكن في كثير من الأوقات كافية لرفع المظالم وكف
يد الظالم ، ولكنها كانت في أحلك الأوقات كافية لتحريك القوة
الكامنة في قلب انسان مؤمن بالعدل والخير متحفز للجهر بما
يؤمن به حيث يجدى الجهر بالايمان أو يجد له متسعا من
القلوب والآذان .

وقد أرخ امامنا صاحب هذه السيرة لهذه الظاهرة
الاجتماعية في تلك الفترة بعينها ، فقال رحمه الله في مقاله عن
محمد على رأس الأسرة الخديوية أن الأمراء « اضطروا أن
يخففوا من ظلمهم وأن يتخذوا لهم من الأهلين أنصارا يؤازرونهم
عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم . فلما أحس الأهلون
بحاجة الأمراء اليهم زادوا في الذالة عليهم واضطروهم الى

قبول مطالبهم . فعظمت قوة الارادة الشعبية عند أولئك الذين كانوا عبيدا بمقتضى الحكومة وانتهى بهم الأمر أن قيدوا الأمراء والملوك معا ... نعم كانت الحكومة في مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات الشرقية ، وكانت البلاد موزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسما منها ويتصرف فيه كما يهوى ، وكان كل منهم يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده الى ما في يد الآخر أو يدفع به صولته ، فالخصام كان دأبهم والحرب كانت اهم عملهم ، لذلك كان كل منهم يستكثر من الممالك ما استطاع ليعد منهم جنده ، وكانت تعوزه مؤتتهم اذا كثروا فاضطروا الى اتخاذ أعوان من أهالى البلاد ، فوجدوا من العرب أحزابا كما وجدوا منهم خصوما ، ثم رجعوا الى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه ، فاتخذوا بيوتا منها أنصارا لهم عند الحاجة ، وعرف هؤلاء حاجة الأمراء اليهم فارتفعوا في أعينهم وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك . لهذا كنت ترى في البيوت المصرية بيوتا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم ... وذلك كان يقضى على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه في التدبير واستجلاب النصير ، واعداد ما يستطيع من قوة لحفظ ما في يده والتمكن من اخضاع غيره ، وكان أنصاره من الأهالى يجارونه في ذلك خوفا من تعدى أعوان خصمه عليهم ... وهذا يحدث بطبعه في النفوس شتما وفي العزائم قوة ، ويكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مهما احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها في استعداد لأن

يتكون منها جسم حى واحد يحفظ كونه ويعرف العالم مكاتته .

ثم انتقل الى عصر محمد على فقال ما فحواه انه خاف على سلطانه من أبناء البلاد « فوجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأسا يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلى ، وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الأهلى وزالت ملكة الشجاعة منهم ، وأجهز على ما بقى فى البلاد من حياة فى أنفوس بعض أفرادها فلم يبق فى البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه . وأخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبهه فيه ورثه عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد الا آلات له يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أى وجه ... فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ليصير البلاد جسيها اقطاعا واحدا له ولأولاده ، على أثر اقطاعات كثيرة كانت لأمرء عدة » .

ثم قال : « أين البيوت المصرية التى أقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التى كانت لها القدم السابقة فى ادارة حكومة أو سياستها أو سياسة جندها مع كثرة ما كان فى مصر من البيوت الرفيعة العماد ، الثابتة الأوتاد ؟ ... انه أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوروبا ليتعلموا

فيها فهل أطلق لهم الحرية أن ييثوا في البلاد ما استفادوا ؟ كلا .
ولكنه اتخذهم آلات تصنع له ما يريد ... وظهر بعض الأطباء
الممتازين وهم قليل ، وظهر بعض المهندسين الماهرين وهم ليسوا
بكثير . والسبب في ذلك أن محمد علي ومن معه لم يكن فيهم
طبيب ولا مهندس ... فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن
أحد من الأعوان مسلطا على المهندس عند رسم ما يلزم له من
الأعمال ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج ، فظهر أثر
استقلال الارادة في الصناعة عند أولئك النفر القليل من
النابعين ، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين .



ومن المحقق أن الخطة التي نسبها الأستاذ الامام الى محمد
علي انما كانت احدى خططه المرسومة في سياسته العامة التي
أراد بها أن يحصر الأمر كله بين يديه وأن يجرد البلد من كل
قوة تحدث نفسها بمقاومته أو الانتفاض على حكمه أو منازعته
في شأن من شئون الدولة سواء بدرت هذه المنازعة من جانب
أبناء الترك كما كانوا يسمون المماليك عامة أو من جانب أبناء
العرب كما كانوا يسمون الفلاحين عامة بغير تفرقة بين أبناء البادية
وأبناء الريف ، وكان همه الأكبر أن يتخلص من أولئك السادة
الذين رشحوه للولاية وتقدموا مرة بعد مرة لمحاسبة الأمراء
من قبله ، لأنه علم أنهم قادرون على ترشيح غيره كما رشحوه
وعلى محاسبته كما حاسبوا غيره ، وخشى من جانب الريف أن

يدين أبناءه لصاحب جاء أو صاحب « عزوة » من أهله ، وبخاصة بعد التحالف بين بعض أبناء الريف وبعض خصومه الذين هجروا العاصمة فرارا من القتل والغيلة ، ولم ينس محمد على أن قبائل الأطراف ربما استقلت بالحكم زمنا وامتنعت عن أداء الخراج لولاية الأمر في القاهرة كلما اتهمتهم بالمروق من سلطان الدولة أو بالجور على حقوق الرعية ، فلم يكفه أن يجرد أصحاب الجاه من قدرتهم على العصيان والانشقاق ، بل خرض على تجريدهم جميعا من كل جاه لا يستمدونه منه ، ولا يرجعون به اليه .

الا أن الحاكم المستبد قد يستطيع أن يستأصل الغروس النامية ولكنه لا يستطيع — مهما بلغ من طغيانه وحرصه — أن يستأصل الجذور الكامنة في أعماق أرضها ، ولا البذور المدفونة في انتظار نبع يسرى إليها أو سحابة تهطل عليها ، وتتركها لما قسم لها من الحياة في تربتها .

ويظهر من سياسة الولاية بعد محمد على أن سياسة التجريد والاستئصال لم تجرد الريف من تلك العناصر التي يحسب الوالى حسابها ويشفق من عواقب إهمالها كما يشفق من عواقب استئصالها . فإن الوالى محمد سعيد لم يلبث أن شعر بسوء المغبة من هذا الإهمال ، وأدرك ضرورة الاستعانة في حكم الريف ، فكتب الى الأقاليم قبل انقضاء جيل محمد على مراسيمه التي يقول في أحدها بعد تمهيد وجيز : « وقد سنح لنا أن

أجعل الحكام من يوثق باعتمادهم في الأمور الدينية والمدنية من عمد أبناء العرب بنواحي المديريات مع أبناء الترك على سبيل التجربة وإبراز ما انطوا عليه من الثمرات المقصودة بالذات أو ضدها ، وهناك يكون الاقدام على تقديمهم أو بتعيين تأخرهم عن برهان واضح . فابتدأنا بتنصيب اثنين من عمد نواحي مديرية المنيا وبنى مزار نظار أقسام وجعلناهما موقعا للتجربة وأمرنا مدير الجهة المذكورة بتنصيب جانب من العمد حكام أخطاط . والآن تعلقنا ارادتنا أن يكون حصول ذلك بسائر الأقاليم فأصدرنا أوامرنا الى المديرين عموما وهذا اليكم لتتخبوا من عمد أبناء العرب المجريين الأطوار المتصنفين بحسن الاستقامة والسياسة من يليق بالتقدم لمناصب الحكومة وترتبوا نظار أقسام مديريتكم على الثلث منهم ، بأن يكون اثنين — هكذا — نظار أقسام من أبناء الترك وواحد من أبناء العرب ، كما أن حكام الأخطاط يكون منهم ثلاثة من أبناء الترك وواحد من أبناء العرب ، وقبل أن ترتبوهم أعرضوا علينا بيان أسماهم وأسماء بلادهم وأقسامهم وأحظاظهم ... » .

١ . وازداد شعور الولاة بضرورة المعاونة بينهم وبين أبناء القرى على حكمها وولاية شئونها ، فشاعت الدعوة الى الحكم النيابي في عهد اسماعيل ، وكان من أغراض اسماعيل في مجاراته لهذه الدعوة أن يستخلص بعض السلطة من الرقابة الأجنبية باسم الأمة ليتصرف به ما استطاع على أيدي أعوانه وأوليائه من الوجهاء وعمد الأقاليم ، ولكنه — ولا ريب — كان يعمد

الى هذه الحيلة لأنه يدرك أن مشاركة هؤلاء الريفيين في حصة من الحكم وسيلة لا غنى عنها لتوطيد سلطان الحاكم وضمان البقاء لصاحب الولاية الكبرى في العاصمة ، ولم تكن ثورة عرابي في عصر خليفته توفيق الا أثرا من آثار التهاون في اتباع هذه السياسة ، أو أثرا من آثار العدول غنها لتغليب عنصر « أبناء الترك » على عنصر « أبناء العرب » في وظائف الجيش والحكومة .



على أن ودائع الخير في القرية لم تكن في عصر من العصور محصورة في أبناء « البيوتات » التي تتميز بالجاه والمال وسعة الثراء من الأرض والعتاد ، فان هذه البيوتات نفسها لم تكن لتستقر في مكانها لو لم يكن قرارها على أساس آخر مكين هو أساس الأسرة أو أساس « البيت » على الاجمال ، وليس بالنادر أن يكون البيت الصغير دعامة للبيوتات العالية تعزها وتعزز بها وتتصل جميعا بوشيجة جامعة من النسب والمصاهرة ، وربما تعرضت البيوتات العالية لسطوة الحاكم المستبد اذا وقعت منه موقف المناجزة أو وقف منها موقف الحذر والريبة ، لأنه أقوى من كل بيت منها على حدة وأقدر على أن يأخذها متفرقة واحدة بعد واحدة قبل أن تأخذ دفعة واحدة وهي متفقة عليه . أما البيوت الصغيرة التي تتوارى عن بصر الحاكم الكبير وتغلب الظلم بالكثرة فهي الذخيرة الخالدة التي لا تقضى مواردنا ولا

يتأتى للطغيان أن يجردها من مروءة العرف التى تتوشج مع
الشعور بحقوق القرابة والمصاهرة وحياء النسب من النسب
ودالة الصغير على الكبير وكرامة الكبير على الصغير ، وليس
من شأن القروى الذى ينتمى الى قرابة واسعة موفرة العدد
من هذه القربات المعروفة فى بلاد الريف أن يستكين الى حاكمه
لصغير فى القرية الى غير نهاية ، وليس من شأنه أن يعجز عن
النجاة بنفسه من جوار الى جوار بين عشيرته وذوى قرباه ،
كلما ضاقت به الحال وبلغ به الجور والنكايه غاية الاحتمال .

والأسرة على أوضاعها العريقة هى عصمة القروى من جور
حكامه وعوارض زمانه سواء منها ما يتوطد بالجاء والعصبية
القوية وما يتوطد بالعدد الكثير والنسب المتشعب والصهر
المتجدد والعرف الموروث ، متلاحقا متمكنا على مدى الأسلاف
والأعقاب .

وقد صادفتنا هذه الحقيقة فى ترجمتنا لسعد زغلول كما
تصادقنا الآن فى ترجمتنا لأستاذه وزميله محمد عبده ، فقلنا فى
فصولها الأولى ان « الأسرة عظيمة الشأن فى آداب المصريين من
أقدم عصور التاريخ ولم يتجرد المصرى من عواطف الأرحام بين
أبوة وأمومة وبنوة وقرابة وآصرة دائية أو قاصية ، وذلك هو
قوام العرف الاجتماعى فى أخلاقه وعلاقاته ، وهو أيضا قوام
المحافظة المصرية التى تحب الألفة وتعرض عن البدع والخوارق .
والوصايا باتخاذ الأسرة معروفة فى الأدب المصرى منذ آلاف
السنين ، ففى وصايا فتاح حوتب التى كتبت قبل أكثر من ستة

وأربعين قرنا يقول الوزير لتلميذه : اذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب قرينتك الحب الجميل وأطعمها وأكسها وطيب أوصالها وأدخل السرور على قلبها طول حياتها ... ولم تنس الوصية بتوقيير الأسرة وصلة الأرحام بعد ذلك كلما كتبت الوصايا في العهد القديم ، ففي نسخة من وصية عانى محفوظة في مخطوطات الأسرة الثانية والعشرين يقول الحكيم : اتخذ لك زوجة في شبابك لتنجب لك ولدا تربيته وأنت في صباك وتعيش حتى تراه في عداد الرجال . وما أسعد الرجل الذي له عشيرة كبيرة . ان الناس يوقرونه من أجل بنيه .

« وفي هذه الوصايا يقول الحكيم : ضاعف لأمك خبرها واحملها كما حملتك . لقد أثقلتها وما نبذتك وظلت تحملك حول عنقها بعد ميلادك وظل ثديها ثلاث سنوات في فمك ولم تأتف من تنظيفك ولم تقل قط : ماذا أصنع بهذا ؟ وأرسلتك الى المدرسة تتعلم الكتابة ووقفت لك بالحبز والشراب كل يوم تنتظرك . واذكر اذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربتك وتعهدتك بكل ما عندها من وسيلة عسى ألا تصيبك بضرر ولا ترفع يديها الى الله بالدعاء عليك ولا يستمع الله منها الى شكاية » .

« فهذه الرحمة البيتية قديمة لم تتغير في الزمن الحديث ، ومن عظم الرأفة بالبنين أن يمتد زمن الرضاع لهم الى ثلاث سنوات كما يفهم من هذه الوصية ، وأن الرأفة في تلك الأجيال السحيقة لغريبة ولو كانت رأفة الآباء بالبنين فالمصري

اجتماعى من ناحية الأسرة وعراقة المعيشة الحضرية ، أو اجتماعى من ناحية انتظام العبادات والعلاقات منذ أجيال مديدة على نظام الأسر والبيوت ، وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع أو يربطه بالأمة والحياة القومية .



ان العصور المتطاولة قد استنزفت من ثروة القرية — أنفسها وأموالها — غاية ما استطاعت أن تسلبه أو تفنيه مما لا يحصره الاحصاء ، وقد نحصره بتقدير الحساب فيكفي أن نعلم أن تعداد أبناء مصر هبط الى ما دون الملايين الثلاثة فى أخريات عهد المماليك بعد أن أربى على الثلاثين فى بعض عصور الفراعنة على تقدير بعض المؤرخين !

وربما هبط سكان القرى الى نحو الثلاثين على الأكثر من هذه الملايين الثلاثة التى بقيت فى القرن السابع عشر بعد الهجرة الى المدن والفرار على غير قرار .

وجاء عصر الاقطاع بعد الدولة الأيوبية فصفى هذا العدد تصنيفته الأخيرة حين قسم أبناء القرى الى فريق ملازم للقرية سماهم بالقراريين ، وفريق متردد بين القرى لا ينتسب الى مكان معلوم منها سماهم بالفراريين . ومن ذلك الحين أصبحت صفة « القرارى » عنوانا على العمل المتقن والصناعة المحكمة وقيل عن كل صانع يحسن عمله ويبالى أن يحمد عليه أنه قرارى فى هذه الصناعة ، حتى بلغ من سوء استخدام هذه الكلمة فى غير

موضعها أن وصف بها « اللص القرارى » والمحتال القرارى ، بعد أن كانت وصفا للزارع الخبير بشئون السقى والبذر والحراث والحصاد ، لاستقراره فى القرية وعلمه بطبيعة الأرض والجو وتقلبات الأهوية وعوارض الآفات ، خلافا للزارع القرارى الذى لا يعرف من كل قرية غير موسمه فيها وأجرتها من محصولها .

هؤلاء الفلاحون « القراريون » حملوا أوزار المظالم من قديمها ولكنهم احتفظوا كذلك بذخيرة العرف وشريعة الحياء من أصولها ، وحسبهم من هذه الذخيرة أن يأنف أحدهم أن يخزى هذا القريب أو ذاك النسيب بالعار الموروث ، وكل عار فى القرى موروث الى الأعقاب وأبناء الأعقاب ... أو حسبهم أن يقف بهم الاحتمال عند الحد الذى لا يحمد بعده احتمال ، ثم ينقلب بعد ذلك من الصبر الى الثأر أو يتحول من هذا الجوار الى ذلك الجوار . فان عم البلاء كل جوار حوله فى حقبة من الزمن فهو البلاء الذى يعم عاره ولا تلتصق وصمته بهذا الجبين دون ذلك الجبين ، بين آلاف ومئين .

وفى هذا القرار من القرية نشأ فى القرن التاسع عشر رفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك ، وعبد الله فكرى ، وحسن الطويل ، وأحمد عرابى ، ومحمد عبده ... وكلهم بعثت به القرية الى الجامع الأزهر ، وبعث به الجامع الأزهر الى ميدان الكفاح والإصلاح .

الأزهر

في منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٨) أسندت ولاية مصر الى الوزير العالم أحمد باشا كور ، وكان من المشتغلين بعلوم الهيئة والرياضة ، فرغب في مذاكرة علماء الأزهر الذين يدرسون تلك العلوم في حلقاتهم بالمسجد الجامع ، وخطب مقدم العلماء الشيخ عبد الله الشبراوى في ذلك ومعه عالمان من كبار علماء العصر هما الشيخ سالم النفراوى والشيخ سليمان المنصورى ، فسكتوا ثم صارحوه بأنهم يجهلون تلك العلوم ولا يشتغلون بتدريسها وانصرفوا بعد أول لقاء بينهم وبين الوالى وهم يحسبون أنها مسألة فرغ الحديث منها ، ولكن الوالى عاد الى الحديث مع الشيخ الشبراوى في جلسة من جلساته معه بعد صلاة الجمعة بمسجد القلعة ، وكانت الخطبة في ذلك المسجد من عمل الشيخ الشبراوى ، يؤم المصلين ومنهم الوالى ويتناول الغداء على مائدته بعد الصلاة ، ويجرى الحديث بينهما أحيانا على شؤون الأزهر وشؤون الدين على العموم ، ثم ينصرف الى مواعده من الأسبوع الذى يليه .

قال الوالى ذات مرة ما فحواه : كنت أحسب مصر كما نسمع في بلادنا منبع العلوم والفضائل ، فلما جئتها أخلفت ظنى وذكرت المثل القائل : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » ! .

قال الشيخ الشبراوى : بل هى كما سمعتم معدن العلوم والمعارف .

قال الوالى : وكيف ؟ وأنتم أعظم علمائها ولم أجد عندكم شيئا من العلوم التى سألت عنها ، وغاية تحصيلكم المنطق والتوحيد ونبذتم علوم المقاصد من هيئة ورياضة .

قال الشيخ : نحن لسنا أعظم علمائنا وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث .

فعاد الباشا يقول : وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت وتحرير القبلة ومواعيد الأهلة وعدد السنين .

فأجابه الشيخ موافقا ، ولكنه قال : ان معرفة ذلك من فروض الكفاية ، اذا قام به البعض سقط عن الآخرين . وهذه العلوم تحتاج الى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقعة الطبع وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك ، أخلاط من القرى والآفاق .

فسأل الوالى : وأين البعض القائم بهذه الفريضة ؟ فقال الشيخ : انهم موجودون فى بيوتهم يسعى اليهم ، ودله على الشيخ حسن الجبرتى والد الشيخ عبد الرحمن المؤرخ المشهور ، مطنبا فى تزكية علمه وفضله .

فسألهم الوالى أن يدعووه الى لقاءه ، فقال الشيخ : انه أعظم قدرا من أن يستدعيه مثلى ، ولكنكم تكتبون اليه مع بعض خواصكم فيحضر اليكم ، فكتب اليه الوالى واحتفى بلقائه عند حضوره ووجده على ما وصف من الدراية بتلك العلوم التى يدرسها الباشا ، فأكثر من الاجتماع به بعد ذلك للمذاكرة فيها .

ونحن نعرف هذه القصة من رواية الجبرتى فى تاريخه ، كما نعرف من قصص التاريخ الأخرى شيئا كثيرا عن حقيقة العلوم الفلكية التى تلقى بعضها عن أبيه ، فاذا هى على صحتها واشتمالها على أدق المعارف الفلكية التى حصلها علماء الحضارة الاسلامية تجمع بين العلم الرياضى الصحيح وأخلاط من التنجيم وقراءة الطوالع وأرصاد السعود والنحوس ، ومن ذاك قول الشيخ عبد الرحمن فى مقدمة كتابه عن الحملة الفرنسية : « ان وقائع الأيام وخطوبها وحوادث الحادثات وكروبها داخله فى حيز الابداع والاختراع بما أودعه الله من الخصائص فى الآثار العلوية عند اقتران بعضها ببعض ، وارتباط المناسبات الخفية بينها وبين ما على وجه الأرض . وذلك بحسب جرى العادة الالهية له مسببات وحوادث يستدل عليها بتلك القرانات والمناظرات ، وقد أودع الله فى بعض خالصى النفوس البشرية والأرواح المجردة عن العلائق الجسمية والشهوات النفسية معرفة بعض تلك الحوادث ، اما بالهام أو باكتساب ونظر فى علم الأحكام . فالبالنجم هم يهتدون ، وبالنظر فى ملكوت

السموات والأرض يستدلون فيعرفون ، من غير أن ينسب
لتلك الآثار تأثيرات ، وإنما هي أسباب عادية وعلامات ، وإن من
أعظم الدلائل على ما رميت به مصر ، وحل به لأهلها تنوع
البؤس والأصر ، بحلول كفره الفرنسي ، ووقوع هذا العذاب
البئيس ، حصول الكسوف الكلى في شهر ذى الحجة بطالع
مشرق الجوزاء المنسوب إليه اقليم مصر ... » .

ولكن هذا الخلط بين علم الهيئة والتنجيم لم يكن وقفا على
الفلكيين بالمشرق أو البلاد العربية ، بل كان النظر في الكواكب
لاستطلاع السعود والنحوس دراسة مقررة في الجامعات
الأوربية وكان أكبر الفلكيين في عصره - جوهان كيلر -
المتوفى قبل منتصف القرن السابع عشر يدرس الفلك والرياضة
بجامعة جراز ويصدر بأمر الجامعة تقويمها السنوى مشتملا على
أرصاد العالم كله ، منبثا بطوالع البروج التى تشرف على مواليد
الأمراء والملوك وتقبض على أعنة الحوادث من سلم وحرب
وخصب وقحط ورواج وكساد ، وكان العالم الكبير يؤمن
بأسرار تلك الطوالع والأرصاد ، ويعزو مخالفة النبوءات أحيانا
الى خطأ الحساب أو الى شوائب النفوس التى تتولى الرصد
وتتلقى منه النبوءة ، كما قال المؤرخ العربى فيما تقدم . وقد
كان اسحق نيوتن يضبط حركات الأفلاك بقانون الجاذبية وهو
يدون مئات الصفحات فى مباحث الطوالع والأرصاد وطلاسم
السحر والزائجة السوداء .



ونغضى مع الجبرتي في حديثه عن نذير النجوم ببلاء
الفرنسيين ، فنقول ان هذا المؤرخ الأمين قد شهد حلول البلاء
في القاهرة ووصف أعمال المقاومة في خارجها وداخلها بين كفاح
المحاربين ودعاء المسلمين فقال انه « لم تكن الا ساعة وانهزم
مراد بك ومن معه ولم يقع قتال صحيح وانما هي مناوشة من
طلائع العسكرين بحيث لم يقتل الا القليل جدا من الفريقين ،
واحترق مركب مراد بك بما فيها من الجبخانه والآلات الحربية ،
واحترق بها رئيس الطبجية خليل الجردلى وكان قد قاتل في
البحر قتالا عجيبا هو ومن انضم اليه من الغليونجية وبقية
العسكر والمشاة الذين في المراكب مع مراكب الفرنسيين ،
وأقدم اقدام الأسد . فقدّر الله أن علقّت نار بالقلع فنزل البعض
منها الى البارود الذى فى المركب فاحترقت ومات هو ومن
بالمركب من المحاربين ، فلما عاين ذلك مراد بك ولى منهزما
وترك الأتقال والمدافع وتبعته عساكره ، والمشاة نزلت فى المراكب
وانفصل الفريقان بدون طائل . »

قال : « وقد كانت العلماء عند توجه مراد بك للقتال تجتمع
فى الأزهر كل يوم لقراءة البخارى وغيره من الدعوات ، وكذلك
مشايخ فقراء الأحمدية والسعدية والرفاعية وغيرهم من طوائف
الفقراء وأرباب الأشاير كل يوم يذهبون للأزهر فيجلسون
للأذكار وتجتمع أطفال الكتائب للدعاء وتلاوة اسمه تعالى
لطيف ، وكل هذا حصل بسببه النفع العظيم . فهو — وان لم
يدفع دخول الفرنسيين مصر لكونه أمرا مقضيا محتما لا يرد

بالدعاء لكن وقع اللطف بسبب هذه الدعوات - واجتماع
القلوب بمجالس الذكر والاستغفار وآثار اللطف التي حصلت
مشاهدة ، ولا تنكر والله الحمد » .

ثم قال : « ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون
لا يدرون ما يفعل بهم ويتوقعون حلول الفرنسيين ووقوع
المكروه ورجع الكثيرون من الفارين وهم بأسوأ حال من العرى
والفزع ، فتبين أن الفرنج لم يعدوا الى البر الشرقى وأن الحريق
كان في المراكب المتقدم ذكرها ، فاجتمع في الأزهر بعض العلماء
والمشايخ وتشاوروا فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة الى
الفرنج وينظروا ما يكون من جوابهم ، ففعلوا ذلك وأرسلوها
صحة شخص مغربي يعرف لغتهم وآخر صحبتته . فغابا وعادا
وأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها عليه
ترجمانه ، ومضسوها الاستفهام عن قصدهم ، فقال على لسان
الترجمان : وأين عظماءكم ومشايخكم ؟ لم تأخروا عن الحضور
الينا لترتب لهم ما يكون فيه الراحة ؟ وطمئنتهم وبش في وجوههم
.... ثم قال لهم : لازم المشايخ والشرابية يأتون الينا لترتب
منهم ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور .
ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس ، وركب الشيخ مصطفى
الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون الى الجيزة ، فتلقاهم
وضحك لهم وقال : أنتم المشايخ الكبار ؟ فأعلموه أن المشايخ
الكبار خافوا وهربوا . فقال : لأي شيء يخافون ؟ اكتبوا لهم
بالحضور ونعمل لكم ديوانا لأجل الراحة .. » .

ولا بد أن نذكر ونحن بصدد الأزهر والحملة الفرنسية أن دعوات الأذكار كانت في حينها « قوة عملية » من جانب واحد على الأقل ، وهو جانب اليقين بنفاذها في عقيدة الرعاة والرعية ، لا يشكون في أثرها اذا خلصت النية وصدقت الشكوى ولا يأمن الحاكم الظالم أن تستجاب من المظلوم في شدة البلاء واقطاع الرجاء في غير الله . وقد مضى على حملة نابليون نحو مائة وسبعين سنة ونشبت الحرب بين مصر والحبشة وتوالت الهزيمة بعد الهزيمة فاعتصم الحديو اسماعيل يومئذ بتلك القوة — قوة التلاوة في البخارى والتماس الدعوات من العلماء — فلم يخامره الشك في أثرها ولكنه قال للعلماء بعد اتصال الهزيمة : اما انكم لا تقرأون البخارى واما انكم لستم بعلماء ... فردها اليه عالم جرىء وذكره بالحديث النبوى اذ يقول عليه السلام : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لكم ... » .

وقد ركب الفرنسيون رءوسهم بمصر واقتحموا الجامع الأزهر ودنسوا محاريبه وربطوا فيه الخيل والدواب فلم ينقض غير قليل حتى خرجوا من مصر مدحورين بعد أن خيل اليهم وإلى الناس أنهم لن يرحلوا عنها مكرهين ، ولم ينس أبناء البلد أن يربطوا بين جلائهم السريع وبين عدوانهم على ذلك الحرم المقدس ودعوات علمائه عليهم بالخذلان والنكال .



هذه نبذة موجزة من تاريخ الأزهر خلال فترة من فترات ذلك العهد الذى كان كما تقدم أحلك ساعات الظلام قبل مطلع النهار ، ويكفى تاريخ كل فترة من حياة هذا المعهد الخالد للتعريف بوظيفته التى استقر عليها وبيان مكائده التى تبوأها من الأمة فى أيام خضوعها لسلطان الدخلاء الواغلين عليها . فقد تقرر بحكم العرف والتقليد وحكم العقيدة والسمعة انه صوت الأمة الذى يسمعه الحاكم الدخيل من المحكومين ، وانه ملاذ القوة الروحية فى نفوس أبناء الأمة وفى نفوس الحاكمين الذين يدينون بعقيدتها ، ومن لم يكن من أهل تلك العقيدة فقد يحسب لها حسابها الذى ينسأه اخوانها فى الدين مع الجهالة المطبقة أو مع هوى السبابة ، وقد حسب له الفرنسيون هذا الحساب ونسيه أناس من أمراء المسلمين ، ولكنه لم يضع قط كل الضياع فى وقت من الأوقات .

ومن فهم الواقع على جليته أن نذكر أن أهل البلد قد حددوا وظيفة الأزهر ووظائف علمائه تحديدا يعز أحيانا على الدستور المكتوب ، فكان منهم من يتولى الصدارة فى شئون السياسة ومخاطبة الحكام لأنه أقدر على هذا العمل وأصلح له من زملائه ، وإن كان فيهم من هو أوسع علما وأشهر بالتقوى ، وكان منهم من يثق الناس بتقواه ويطمثون الى نزاهته فى أمور الدين والرئاسة ، وهكذا كان منهم من يفاوض الوالى التركى وليس هو بأعظم علماء البلد ، وكان منهم من يفاوض القائد الفرنسى وليس هو بمكان الرئاسة العلمية ، ولكنهم كانوا

مرشحين لوظيفة السفارة بين الأمة والحكومة بما لهم من خبرة في سياسة الناس وأساليب الاقناع وعلاج المشكلات ، ولغيرهم سمعته في هداية القلوب والبصائر والتماس الوسيلة عند الله اذا خابت الوسائل عند العباد .

ولم تنقطع الصلة زمنا طويلا بين هذه الرئاسة القوية الروحية وبين القرية المصرية من قرى الريف أو قرى الصعيد ، وقد يغنيا عرض أسماء الشيوخ والرؤساء الذين اختارهم نابليون وألف منهم الديوان الكبير للعلم بمبلغ هذه الصلة بين الأزهر والقرية ، فقد تألف هذا الديوان من عشرة ندر منهم من لم ينسب الى قرية يعرف بنسبته اليها كما يعرف باسمه ولقبه ، وهم عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدي والشيخ موسى الرسى والشيخ مصطفى الدمهورى والشيخ أحمد الويشى والشيخ يوسف الشبراخيتى والشيخ محمد الدواخلى ، وقبل ذلك كان الشيخ « الشبراوى » يقول للوالى العثمانى ان الغالب على أبناء الأزهر انهم أبناء القرية والريف .

وقد تقدم فى الكلام على القرية خبر الثورة التى أثارتها شكاية أهل بلبيس لابن اقليمهم الشيخ الشرقاوى الكبير ، فلا يفوتنا أن نذكر أن شكاية الأقاليم كانت تصل الى قادة الأزهر من كل طائفة معتدى عليها ولو وقع العدوان عليها فى رحلة الطريق ، وحدث أن سليمان بك أغا نهب سفينة لبعض

أبناء الصعيد تحمل التمر والميرة وشيئا من الأزواد والأطعمة ، وزعم الأغا أنه استخلص بما نهبه ديونا له على أولاد وافي من أهل الصعيد ، فغضب المجاورون من الصعايدة وأبلغوا مشايخ الأزهر أن السفينة انما كانت تحمل رزقا مرسلا اليهم من عشائريهم في قراهم ، فركب الشيخ الدردير والشيخ العروسي والشيخ المصيلحي الى الأمير ابراهيم بك وواجهوا سليمان أغا في حضرته بكلام شديد ، ولم يرجعوا الا على وعد برد ما استلبه كله ، مع البقية التي فضلت عنده مما استولى عليه .



ومن الواضح أن الجامع الأزهر انما استقرت له هذه المكانة في العالم كله لأنه المدرسة الجامعة في الرقعة الوسطى من العالم الاسلامي الفسيح من المشرق الى المغرب ، بين مدارس بغداد في المشرق ومدارس قرطبة في المغرب ، وقد أفلت هذه المدارس حينما مع أفول الدولة العباسية وأفول الدولة الأموية وسائر الدول الأندلسية ، وورثت الجامعة الأزهرية شهرتها جميعا كما ورثت في القاهرة شهرة مصر القديمة بالعلوم والمعارف التي حسبت من السحر المباح زمنا عند كثير من حكماء الاسلام ، وتلك هي العلوم والمعارف التي كان « ذو النون » المصري يبحث عنها في تقوش البرابي وتحت ركام الكنوز المدفونة في الرغام ، وانما كان الوزير العثماني « أحمد باشا » يقول عن مصر انها اشتهرت في العالم كله بأنها « معدن العلوم والمعارف » ،

وهو يعنى تلك الشهرة العريقة التى ذاعت عنها قديما ثم اتصلت بها بعد الاسلام شهرة الجامع العتيق ثم شهرة الأزهر بعد انفراده بامامة العلم فى بلاد الاسلام .

والمأثور عن الفاطميين أنهم كانوا يشتغلون بالنجوم والكيمياء والعلوم الكونية التى نسميها اليوم بالعلوم الطبيعية أو العلوم الحديثة ، وكان الامام جعفر الصادق — وهو امام رفيع القدر بين علماء الاسلام من جميع المذاهب — حجة فى علوم الدين والدنيا ، يعلم أبا حنيفة الفقه ويعلم جابر بن حيان الكيمياء ، وكان علماء الفاطميين ودعاتهم يقتدون به فى الجمع بين هذه العلوم ويستعينون بالمنطق والفلسفة على نشر دعوتهم بين أهلها من طلاب الدنيا والدين ، وليس فى أوراق المحفوظات الباقية سجل ثابت لتدوين أسماء العلماء وأسماء الكتب التى درسوها بالأزهر من هذه العلوم ، ولكن اجازات العلماء بعد انشاء الأزهر بأكثر من ثمانية قرون كانت تحتوى أسماء العلوم التى أجاز لهم أن يلقنوها الطلاب فى حلقاتهم ، ومنها سند العالم الكبير الشيخ أحمد عبد المنعم الدمهورى المتوفى قبل نهاية القرن الثانى عشر للهجرة (١١٩٢ هـ) وفيها بيان الدروس التى حضرها وأجادها وألف فيها وهى عدا علوم الفقه واللغة دروس « الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات ، وأسباب الأمراض وعلاماتها ، وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة وعلم الأرثماطيقى وعلم المزاويل وعلم الأعمال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن

وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم ... » .

وهذه العلوم المتفرقة تجمع في ذلك العصر صفوة المعارف الانسانية التى تدرس فى معاهد الثقافة العليا ، وكانت — على ما يظهر — تباح لمن يستعد لها من الطلاب المتقدمين الذين يختارهم أساتذتهم ويأمنون فيهم القدرة على النقل عنهم ، ولعل هذا ما عناء الشيخ الشبراوى بقوله عن هذه العلوم انها « فروض كفاية » يتخصص لها من يطلبها ولا تفرض على الذين يحضرون دروس العلماء الآخرين ولا يقبلون عليها ، ولعل الأساتذة الذين يبلغون فيها مبلغ التعليم والافادة يعتزلون الحلقات العامة بطلابهم ومريديهم كما فعل الشيخ الجبرتى الكبير ، وهو على الأرجح قد تلقى مبادئها عن شيوخ من قبله تعلموها وعلموها على طريقته فى أخريات أيامه ، وعلى هذه الطريقة بعينها تعلم الشيخ الدمهورى كما سيرد فى الصفحات التالية .

واذا بدا من هذه الطريقة أن « العلوم الكونية » كانت من الدراسات « المخصوصة » أو الدراسات التى لا تباح على عواهنها ، فمن جزاف القول أن ينسب ذلك كله الى الجمود وضيق الأفق وقلة الاكتراث بالحجر على العقول أو الحجر — كما تقول فى عصرنا الحديث — على حرية التفكير .

فقد يقع الذنب فى ذلك على شئ غير الجمود والحجر على الحرية الفكرية .

نعم .. قد يقع ذنب « التقييد » الذى أحيطت به دراسة العلوم الكونية على طريقة تدريسها أو طريقة اعداد الطلاب للتقدم فيها ، وما من علم من تلك العلوم سلم من الخلط بينه وبين علم زائف يشبهه ويحمل عنوانه وليس هو بذلك العلم الأصيل فى حقيقته ونفعه .

فعلم الفلك قد اختلط بعلم التنجيم وانتقل من ثقافته وأمنائه الى المحتالين الملقين لأكاذيب الطوابع وعلاقات الألفة والزواج والمشاركة فى أعمال الكسب والارتزاق .

وعلم الكيمياء قد اختلط بتحضير الذهب وسحر المعادن وصناعة السوم بغير رقابة عليها وعلى الجرائم الخفية التى تستخدم فيها .

وعلم المنطق قد اختلط بالنفسطة والجدل ، وظهر من طريقة تعليمه فى الأمم القديمة من عهد الاغريق الى عهد البيزنطيين أنه مفسدة للعقول ومدرجة للعبث بالعقائد وقواعد التفكير الصادق والبحث المفيد .

وليس من الاغراب فى الظن البعيد أن نعتقد أن أصحاب الرأى وذوى البصر بالتربية فى العصر الحديث كانوا يحيطون تلك العلوم بمثل ما أحيطت به من القيود بالأمس لو أنها بقيت الى اليوم بأضرارها وشوائبها ودامت على حالها من اختلاط الصحيح بالزائف واختلاط المتعلمين بين طلابها على استعداد وعلى غير استعداد ، وبين المشتغلين بها للعلم والفائدة والمشتغلين بها للاحتيال والشعوذة ، فليس الجمود وحده علة تقييدها

بالأمس وليست حرية الفكر وحدها هي التي رفعت عنها قيودها اليوم ، ولكنها حكمة بصيرة دعت اليها أسبابها في حينها وأوجبتها أمانة الفكر وسلامة المجتمع على المسؤولين عنها من أهل العلم والسياسة .

الا أن الحكمة البصيرة اذا حاف عليها الجمود ، واصطلحت عليها الأثرة مع الجمود ، ذهبت أسبابها وبقيت قيودها وتحولت من الرقابة البصيرة الى الحجر الأعمى والعداء اللجوج ، وكان فعل الأثرة هنا أشد من فعل الجمود في كراهة المزايا العلمية التي يمتاز بها العارفون ويحرمها أصحاب الظهور بالمعروفة وهم يكرهونها مخلصين لجهلهم بحقيقتها ، ان لم يكرهوها مغرضين لخوفهم من مزاحمتها ، وقد أوشك الحذر من تلك العلوم أن ينقلب في أوائل القرن السابع عشر من الحكمة البصيرة الى الجمود المعيب والغرض المريب ، وضعف الغيورون عليها عن حمايتها واحتمال تبعاتها ومضاعبها ، ولكنهم استفادوا من قوارع الهزيمة بعد الحملة الفرنسية شيئا واحدا على الأقل وهو الشعور بالأسف عليها والجرأة على بث هذا الأسف في كتبهم المتداولة ، ومنها كتبهم التي ألفوها في صميم علوم الدين والشريعة ، فلم ينس الشيخ حسن العطار وهو يبسط القول في أصول الفقه في حاشيته على شرح الجلال المحلى على جمع الجوامع أن يصرح بأسفه لاهمال علوم الحكمة واللغة ، فيقول في كلامه على القياس من الجزء الثاني : « من تأمل ما سطرناه وما ذكر من التصدي لتراجم الأئمة الأعلام على أنهم كانوا مع

رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية والأحكام الدينية لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم واحاطة تامة بكلياتها وجزئياتها حتى في كتب المخالفين في العقائد والفروع ، يدل على ذلك النقل عنهم في كتبهم والتصدي لدفع شبههم ، وأعجب من ذلك تجاوزهم الى النظر في كتب غير اهل الاسلام ، فاني وقفت على مؤلف للقرافي رد فيه على اليهود شبها أوردوها على الملة الاسلامية لم يأت في الرد عليهم الا بنصوص من التوراة وبقية الكتب السماوية حتى يظن الناظر في كتابه أنه كان يحفظها على ظهر قلب ، ثم هم مع ذلك ما أدخلوا في تثقيف ألسنتهم وترقيق طباعهم من رقائق الأشعار ولطائف المحاضرات ، ومن نظر ما دار بين المصنف رحمه الله وبين عصره الأديب الصلاح الصفدي من المراسلات البليغة والأشعار الرقيقة علم أنه رحمه الله ممن تخضع له رقاب البلغاء وتجري في مضماره سوابق الأدباء ، وكذا ما دار بين سلطان المحدثين الحافظ بن حجر العسقلاني ومن عاصره من فحول الأدباء من لطائف الأشعار والنكات الأدبية ، وكذا العلامة الدماميني ، بل وبين الحافظ السيوطي والسخاوي من المناقضات وما ألفه من المقامات ، وفيما انتهى اليه الحال في زمن وقعنا فيه علم أن نسبتنا اليهم كنسبة عامة زمانهم ، فان قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئا من عند أنفسنا ، وليتنا وصلنا الى هذه المرتبة بل اقتصرنا على النظر في كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم فكررنا طول العمر ولا تطمح نفوسنا الى النظر في غيرها ، حتى

كأن العلم انحصر في هذه الكتب ، فلزم من ذلك أنه اذا ورد علينا سؤال من غوامض علم الكلام تخلصنا منه بأن هذا كلام الفلاسفة ولا ننظر فيه ، أو مسألة أصولية قلنا لم نرها في جمع الجوامع فلا أصل لها ، أو فكتة أدبية قلنا هذا من علوم أهل البطالة ، وهكذا . فصار العذر أقبح من الذنب . واذا اجتمع جماعة منا في مجلس فالمخاطبات مخاطبات العامة والحديث حديثهم ، فاذا جرى في المجلس نكتة أدبية ربما لا تنفطن لها ، وان تفتننا لها بالغنا في انكارها والاعماض عن قائلها ان كان مساويا وايدائه بشناعة القول ان كان أدنى ، ونسبناه الى عدم الحشمة وقلة الأدب ، وأما اذا وقعت مسألة غامضة من أى علم كان ، عند ذلك تقوم القيامة وتكثر القالة ويتكدر المجلس وتمتلىء القلوب بالشحناء وتغمض العيون على القذى ، فالرموق بنظر العامة الموسوم بما يسمى العلم اما أن يتستر بالسكوت حتى يقال ان الشيخ مستغرق أو يهذر بما تمجحه الأسماع وتنفر منه الطباع .

وقالوا سكرنا بحب الاله

وما أسكر القوم الا القصع

فحالنا الآن كما قال ابن الجوزي في مجلس وعظ ببغداد :

ما في الديار أخو وجد تطارحه

حديث نجد ولا خل تجاريه

وهذه نفثة مصدر فنسأل الله السلامة واللفظ .



ثم عاد الشيخ الى بث هذا الأسف بعد ذكر العلوم العصرية
والالمام بمؤلفاتها المترجمة عن اللغات الأوربية فقال في عرض
الكلام على الخلاء والملاء وضغط الهواء : « انا لو وضعنا خشبة
مستوية أو أنبوبة مسدودة الرأس في قارورة بحيث يكون
بعض الأنبوبة داخل القارورة وبعضها خارج عنها وسددنا رأس
القارورة بحيث لا يدخلها هواء ولا يخرج ، وذلك بأن نسد
الخلل بين عنق القارورة والأنبوبة سدا محكما لا يمكن نفوذ
الهواء فيها ، فاذا أدخلنا الأنبوبة فيها أكثر مما كانت بحيث
لا يخرج شيء من الهواء عنها انكسرت القارورة الى خارج ، واذا
أخرجناها عنها بحيث لا يدخل فيها شيء من الهواء انكسرت الى
داخل ، ولولا أنها مملوءة بالهواء وما فيها من الأنبوبة بحيث
لا تحتمل شيئا آخر لم يكن كذلك . فدل ذلك على امتناع
الخلاء . وقد قال شارح حكمة العين : ان هذه اقناعيات
لا برهانيات ، وأقول ان مسألة الخلاء ومسألة اثبات الميل في
الأجسام من مسائل العلم الطبيعي وبتحقيقها ينكشف للفطن
أسرار غريبة وعليها ينبني كثير من مسائل علم جر الأثقال وعلم
الحيل واستحداث الآلات العجيبة ، ووقع في زماننا أن جلبت
كتب من بلاد الإفرنج وترجمت باللغة التركية والعربية وفيها
أعمال كثيرة وأفعال دقيقة اطلعنا على بعضها ، وقد تتحول تلك
الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة
الى الفعل ، وتكلموا في الصناعات الحربية والآلات النارية
ومهدوا فيها قواعد وأصولا حتى صار ذلك علما مستقلا مدونا

في الكتب وفرَّعوه الى فروع كثيرة ، ومن سمت به همته الى
الاطلاع على غرائب المؤلفات وعجائب المصنفات انكشفت له
حقائق كثيرة من دقائق العلوم وتنزهت فكرته - ان كانت
سليمة - في رياض الفهم :

فكن رجلا رجله في الثرى

وهامة همته في الثريا

فالنفس الانسانية بالاطلاع على حقائق المعارف تتكامل ،
والفاضل الكامل بأنواع العلوم يتفوق ويتفضل ، لا بتحسين
هيئة اللباس والمزاحمة على التصدر في مجالس الناس . قال
الحكيم الفارابي :

أخى خل حيز ذى باطل	وكن والحقائق في حيز
فما الدار دار مقام لنا	وما المرء في الأرض بالمعجز
ينافس هذا لذاك على	أقل من الكلم الموجز
محيط السماوات أولى بنا	فماذا التنافس في المركز

فلا تجعل سعيك لغير تحصيل الكمالات العرفانية مصروفا
ولا تتخذ غير نفائس الكتب أليفا ومألوفا .

ولا تك من قوم يديمون سعيهم

لتحصيل أنواع المآكل والشرب

فهذى اذا عدت طباع بهائم

وشتان ما بين البهيم وذى اللب

وهذه نفثة مصدور ، والله عاقبة الأمور ، لعمرى لقد تساوى

الفطن والأبلة الأفن ، واستنسر البغات وسد طريق النظر على
الناظر البحات ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » .
والشيخ حسن العطار - نافث هذه الشكوى - قد كان
مثلا للعالم المثقف بثقافة عصره قبل نحو القرن ونصف القرن .
ولد بالقاهرة سنة ١١٩٠ وتوفي بها سنة ١٢٥٠ هجرية (١٧٧٦
- ١٨٣٥ م) وشهد حملة نابليون وعاشر علماءها واستفاد من
زيارة معاملها ، وعاش زمنا في دمشق وزمنا في أشقودرة بالبلاد
الألبانية ، واجتهد لنفسه في تحصيل المعارف الحديثة فدرس
الطبيعة والفلك والهندسة والمنطق وطرفا من علم الميكانيكا
الذى كان يسمى بعلم الحيل ، وألف الرسائل في العمل
بالاسطرلاب ، والربعين المقنطر والمجيب والبسائط ، وأدمن
الاطلاع على كتب الأدب فنظم الشعر وأجاد كتابة الرسائل ،
وأسند اليه تحرير الوقائع المصرية عند انشائها لاشتهاره
بجودة الأسلوب والتمكن من صناعة القلم مع حسن الاطلاع
على المعارف الحديثة وحسن الفهم للعلاقة بين قواعدها النظرية
وتتائجها العملية في المخترعات وعجائب الفنون ، ثم تولى
مشيخة الجامع الأزهر بعد أن قارب الخامسة والخمسين فبقى
فيها الى سنة وفاته .



ولقد تولى هذا العالم الفاضل مشيخة الجامع الأزهر وهو
- كما نرى - لا تعوزه الغيرة على العلم الحديث ولا الرغبة

فى تعميمه واجتذاب العقول الناشئة اليه ، ولكنه كان ، رحمه الله ، رجلا من رجال الفطنة والكياسة ولم يكن على غرار ذوى البأس الصارم والعزيمة الغلبة من أولئك المصلحين النواذر الذين يناط بهم افتتاح العهود وهدم العوائق الراسخة فى سبيل الإصلاح ، ولا سيما الإصلاح الذى يعارضه أعداؤه باسم الدين ويعتصمون منه بالحصون المنيعه من العادات المتأصلة والمصالح المتأشبهه وصغائر الغرور والادعاء ووجاهة المظاهر والألقاب ، ونحسبه - لو كان من أولئك المصلحين النواذر - لما تسنى له فى مدى السنوات القلائل التى تولى فيها مشيخة الجامع أن يقوم بعمل ذى بال لتجديد نظام التعليم واتمام العدة اللازمة لابتداء ذلك النظام ، فان العزيمة الغلبة لا تكفى وحدها للغلبة على معارضة الشيوخ واعراض الطلاب وتبديل مصالح هؤلاء وهؤلاء فى النظام القديم بمصالح مثلها أو أكبر منها تعوض عنها العلماء المعارضين والطلاب المعارضين . وقد تكفى عزيمة الشيخ للابتداء فى العمل ، ان لم تكف للتقدم البعيد فى طريقه ، لو أنه وجد من ولاة الأمر معونة صادقة تفعل بالسلطان ما لا يفعله البرهان ، ولكن ولاة الأمر فى عهده كانوا يؤثرون سكوت العلماء عنهم على اثارهم بالشكوى والالتهام من أجل عمل يغضبهم ولا يرضى أحدا غيرهم ، وليس هو - بعد - من الأعمال الذى تلجئهم الضرورة العاجلة اليه .

على أننا قد نبالغ فى تهوين أثر القدوة الحية اذا خطر لنا أن نقف المصدور ذهبت فى الهواء ، فانها نقطة عالم كبير يسبغها

منه العاقل والغافل ويقرأها في كتبه مئات الطلاب من مريديه ومريدى غيره من العلماء الموافقين والمعارضين ، وتأتى في أوانها الذى مهدت له الحوادث وتهيات له النفوس المتطلعة والآمال المتوثبة ، فهى من طلائع الجو الذى يتفتح له الأفق وان لم يستلئ به لأول وهلة ، وعلى هذه السنة من سنن التجديد تبتدىء طلائع الأجواء فى جميع الآفاق .

ثم تعمل الضرورة الواقعة عملها غير مدفوعة بحيل المحتالين وتعلات الكسالى المتعنتين . فقد نفت الشيخ نفثته فى مفتتح القرن التاسع عشر والمدارس الحديثة تتوالى عاما اثر عام ، بين مدرسة للهندسة ومدرسة للطب ، ومدرسة للألسن ومدرسة للعلوم الطبيعية ، ويتوالى معها بناء المعامل لصناعات السلم والحرب ، ويختار لها الطلاب والمحترفون من أبناء الأزهر الناشئين ، كما تختار منهم البعث الى البلاد الأوربية فيقضون فيها الأعوام المعدودة ويعودون الى مناصب الرئاسة أو مناصب الأستاذية ، ويصعدون من تلك المناصب الى أرفع مراتب الدولة وتتهيا لهم وسائل التنفيذ التى لم تكن مهياة لشيخهم فى منصبه ، فلم يمض جيل واحد حتى كان فى القاهرة من تلاميذ العلوم الحديثة حزب كبير يفهم ما ينبغى عمله للمضى بالنهضة العلمية فى سبيلها ويعلمك من رأى والمشورة المسموعة ما يعينه على خصومها ...

ويتفق أن يكون أكبر دعاة هذه النهضة تلميذا للشيخ العطار اختاره للسفر الى الغرب ونصح له قبل سفره « أن ينبه

على ما يقع في هذه السفرة ، وعلى ما يراه وما يصادفه من
الأمر الغريبة والأشياء العجيبة ، وأن يقيد ليكون نافعا في
كشف القناع عن محيا تلك البقاع .

ذلك التلميذ الناجح هو نابغة جيله (رفاة بدوى رافع
الطهاوى) رحمه الله ، وهو القائل في فضل العلوم الحديثة ،
بعد أن نبه بغاية ما يستطاع من الصراحة في ذلك الزمن الى
اهمال محمد على الكبير لتعميم تلك العلوم في الجامع الأزهر :
« ... ولو أنه أعلا منار الوطن ورقاه لم يستطع الى الآن أن
يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور ، ولم
يجذب طلابه الى تكميل عقولهم بالعلوم الحكيمة التي كبر نفعها
في الوطن ليس ينكر ، نعم ان لهم اليد البيضاء في اتقان الأحكام
الشرعية العملية والاعتقادية وما يجب من العلوم الآلية كعلوم
العربية الاثنى عشر ، وكالمنطق والوضع وآداب البحث
والمقولات وعلم الأصول المعتبر ، ولمثل هذا فليعمل العاملون
وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، غير أن هذا وحده لا يفي
للوطن بقضاء الوطر ، والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف
عند أهل النظر ، ومدار سلوك جادة الرشاد والاصابة ، منوط
بعد ولى الأمر بهذه العصا ، التي ينبغي أن تضيف الى ما يجب
عليها من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيعة ،
معرفة سائر المعارف البشرية المدنية ، التي لها مدخل في تقدم
الوطنية ، من كل ما يحمى على تعلمه وتعليمه علماء الأمة
المحمدية . فانه بانضمامه الى علوم الشريعة والأحكام يكون .

والمفهوم ، لمحمد بن ساعد الأنصارى ، وهى كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علما : أولها علم الحرف وآخرها علم الطلاسم ، ورسالة للإسرائيلى ، ورسالة للسيد الطحان ، كلاهما فى علم الطالع ، ورسالة للخازن فى علم المواليذ ، أعنى الممالك الطبيعية . وهى الحيوانات والنباتات والمعادن . وأخذت عن شيخنا الشيخ حسام الدين الهندى شرح الهداية فى علم الحكمة ومتن الجعمنى فى علم الهيئة بمراجعة قاضى زادة ومطالعة السيد عليه ، وأخذت عن سيدى أحمد الشرفى شيخ المغاربة بالجامع الأزهر كتاب اللمعة فى تقويم الكواكب السبعة ...

« ولما ذكر ما تلقاه من هذه العلوم أعقبه بما طالعه بنفسه بدون الأخذ عن شيخ . فقال : طالعت كتاب احياء الفؤاد بمعرفة خواص الاعداد فى علم الأثرماتيقى فى نحو كراسين ، وكتاب عين الحياة فى علم استنباط المياه ، فى نحو كراسين ، والرسالة فى الكلام اليسير فى علاج البواسير فى نحو كراسين ، ورسالة التصريح بخلاصة القول الصريح فى علم التشريح فى نحو كراسين ، ومنها كتاب اتحاف البرية بمعرفة الأمور الضرورية فى علم الطب فى نحو خمسة كراسيس ، ومنها رسالة القول الأقرب فى علاج لسع العقرب فى نحو كراس ، ومنها منهج السلوك فى نصيحة الملوك فى نحو عشرة كراسيس ، ومنها كتاب بلوغ الأرب فى أسماء سلاطين العجم والعرب ، معنونا باسم السلطان مصطفى خان ابن السلطان أحمد خان المولود فى رابع عشر شهر صفر سنة تسع وعشرين ومائة وألف يوم الأربعاء

أول النهار في الساعة الأولى بعد الشمس ، الجالس على سرير الملك في سابع عشر شهر صفر الخير سنة احدى وسبعين ومائة وألف ، يوم الأحد قبل الشمس . انتهى كلامه ، ملخصا بتصرف .

« وانظر الى هذا الامام الذي كان شيخ مشايخ الجامع الأزهر ، وكان له في العلوم الطبية والرياضية وعلم الهيئة الحظ الأوفر ، مما تلقاه عن أشياخه الأعلام فضلا عن كون أشياخه كانوا أزهريه ، ولم يفتهم الوقوف على حقائق هذه العلوم النافعة في الوطنية ، وفضل العلامة الجبرتي المتوفى في أثناء هذا القرن في هذه العلوم وفي فن التاريخ أمر معلوم ، وكذلك العلامة الشيخ عثمان الورداني الفلكي ، وكان للمرحوم العلامة الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر أيضا مشاركة في كثير من هذه العلوم ، حتى في العلوم الجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش جلية على كتاب تقويم البلدان لاسماعيل أبي الفداء سلطان حماة المشهور أيضا بالملك المؤيد ، وللشيخ المذكور هوامش أيضا وجدت بها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائما على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية ، مع غاية الديانة والصيانة ، وله بعض تأليف في الطب وغيره زيادة عن تأليفه المشهورة ... فلو تشبث من الآن فصاعدا نجباء أهل العلم الأزهرين بالعلوم العصرية التي جددتها الحديو الأكرم بمصر بانفاقه عليها أوفر أموال مملكته لفازوا بدرجة الكمال

وانتظموا في سلك الأقدمين من فحول الرجال . وربما يتعللون
بالاحتياج الى مساعدة الحكومة ، والحال أن الحكومة انما
تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد . فعمل
كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر ، وترجع المسألة دوريه ،
والجواب عنها أن الحكومة قد ساعدت بتسهيل الوسائط
والوسائل ليغتتم فرصة ذلك كل طالب وسائل ، وكل من سار
على الدرب وصل ، وانما تكون المكافأة على تمام العمل .. فهذا
ما يتعلق بطبقة العلماء ، وقد ذكرنا ما يتعلق بالعلم في الفصل
الأول من الباب الأول من هذا الكتاب مبسوطا بما فيه الكفاية .



وهذا الفصل من كتاب « مناهج الألباب » يعتبر وثيقة
« رسمية » من أهم الوثائق في تاريخ التعليم بالجامع الأزهر ،
لأنه يشتمل على ثبت صحيح بأسماء المؤلفات الكثيرة التي كانت
تؤلف في علوم الطب والرياضة والطبيعة وغيرها من العلوم التي
تسمى بالعلوم الكونية تميزا لها من العلوم الالهية أو الشرعية ،
ويشتمل كذلك على أسماء مؤلفيها والعلماء الذين يدرسونها
وطريقتهم في تحصيلها ، اما بالقراءة على أصحابها أو بالمطالعة
في مراجعها ، ومن هذا الثبت الصحيح يتبين لنا أنها كانت تحيط
بصفوة المعارف البشرية كما عرفها الناس الى نهاية العصور
الوسطى في بداية القرن السابع عشر ، وأنها كانت دراسات
« موسوعية » جامعية من طراز مناهجها في أنحاء العالم كله على
عهدها .

ويدل هذا الفصل على موقف الحكومة يومئذ من مسألة التعليم بالجامع الأزهر ، فانها كانت على موقف الحذر من تقرير علوم تدرس فيه بغير طلب من أهله ، هيبة لعلمائه وخوفا من تهمة المساس بالدين والاجتراء على سنن السلف ومجاراة البدع المستحدثة : بدع الفرنجة أو بدع الفلاسفة كما قال الشيخ العطار بألسنتهم حين تتلى عليهم مسألة من مسائل المعرفة لم ترد في كتاب من كتب المتأخرين . وكأنما كان النابغة الأزهرى - رفاة - يلوح لشيوخ العلماء بالخطة التى يسلكونها اذا ترقبوا من الحكومة أن تغير مسلكها « فان الحكومة انما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد . فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر ، وترجع المسألة دورية ... » ان لم يبدأ علماء الأزهر من قبلهم بمسلك جديد .

وقد دل رفاة بما كتبه عن مسألة التعليم الأزهرى على صراحة الرائد المجدد وحصافته في وقت واحد ، فكان صريحا في تنبيهه الى اهمال محمد على الكبير لتلك المسألة ، وكان صريحا في تنبيهه العلماء الى موضع تقصيرهم أو موضع مشاركتهم في تبعة ذلك الاهمال ، وكان حصيفا في عنايته بسرد أسماء العلوم والمؤلفات التى سبق اليها العلماء الأسبقون ، فانه - ولا شك - قد فطن للوجهة التى اتجه اليها تيار الفكر الحديث في البلاد وكشفت عن الموطن الحساس الذى لمستته هذه المسألة من جانب العاطفة القومية ، فمنذ الحملة الفرنسية وقعت الصدمة في ذلك الجانب من العاطفة القومية موقعين

متناقضين متلازمين : موقع اليقين بغلبة القوم وفيه من دواعي
الوجوم والانكسار ما فيه : وموقف العزاء بسبق الشرق الى
تلك العلوم والايمان بأنها عند القوم عارية مستعارة نستردها
لنقول لأنفسنا وللعالم انها بضاعتنا ردت إلينا ، وفي ذلك من
تجديد الثقة ما فيه .

ورفاعة في دعوته نجباء الأزهر الى العلم العصري باسم
السلف انما تسلم هذه العاطفة من حيث تركها رواد الفكر
الحديث ، ولعله تعمد أن يسوق الكلام فيها بذلك الأسلوب
التقليدي المسجوع ليدخل في روع قرائه أن الكاتب العصري
لا يعجز عن مثل ذلك الأسلوب ، أو أنه لا ينقضه ولا يخلعه عن
قلمه ، لأن المعرفة العصرية لا تنقطع بكاتبها عن ماضيه .

ولم يتمكن رفاعة من تقرير النظام الذي كان يؤثره لتعليم
طلاب الأزهر ، لأنه أبعد الى السودان في أخريات أيامه لتنظيم
التعليم فيه ، وتوفي سنة ١٨٧١ والأزهريون لا يتحفزون لتلك
الخطوة التي كان ينتظر منهم أن يخطوها تشجيعا للحكومة على
استخدام سلطانها في تقرير نظامه اعتمادا على دعوة أهله ، ولكن
شيخ الجامع لعهدده - الشيخ مصطفى العروسي - خطا في داخل
الأزهر خطوة حسنة بالرقابة على علمائه وطلابه وانتقاء الصالحين
منهم للتعليم والتعلم ومتابعة الدرس في العلوم التي تتطلبها
العمل الجديد في دواوين القضاء ومدارس الحكومة العصرية ،
وأهمها علوم الحديث والتفسير والأصول والتوحيد والفقه
والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق ، ثم جاء

خليفته الشيخ محمد المهدي العباسي فأسس نظام الامتحان لشهادة العالمية على نظامها الحديث بعد استئذان الحكومة لاعتبار هذه الشهادة في ولاية الوظائف العامة غير التدريس بالجامعة الأزهرية ، وجعل هذه الشهادة على درجات : أولى وثانية وثالثة ، على حسب اجابة الطالب وطبقة الكتب التي يجرى الامتحان في مادتها .



على هذه الحالة كان الجامع الأزهر حين وصل الشاب محمد عبده الى القاهرة لينتظم في سلك طلابه :

المفروض فيه بحكم الشهرة الموروثة أنه جامعة عالمية تزود طلابها بكل ما وسعته العقول البشرية من معارف الماضي والحاضر وعلوم الدين والدنيا .

والحقيقة الواقعة أن دروسه يومئذ كانت مقصورة على قشور من علوم الفقه واللغة يتلقاها الطالب عن أستاذه ويعول في تحصيلها على حفظ الذاكرة وقلما يطالبه أحد من أساتذته أو يطالب هو نفسه بوعيتها والتصرف في لفظها ومعناها .

وكان التعلم والتعليم كلاهما فوضى مهملة لا رقابة عليها لأحد ، فلما دعا الأمر الى اختيار طائفة من خريجي الأزهر لوظائف القضاء والتعليم رسمت لهم شروط الامتحان ودرجات الاجازة على مثال الشهادات المدرسية التي كانت ترشح الحاصلين عليها من خريجي المدارس العصرية لوظائف الدولة .

وقد كان الراغبون في تغيير هذه الحالة غير قليلين ، ولكنهم
كانوا لا يملكون سلطة التغيير ، أو يملكونها ويؤثرون أن يتمهلوا!
حتى يجيء طلب التغيير من أهله ، تجنباً لاثارة الشبهات بابتداع
البدع واتباع دعاة الزندقة - أو الفرنجة - في أمر المعهد
الأكبر من معاهد الدين .

محنة نصر

ولد أستاذنا الامام بحصة شبشير من قرى اقليم الغربية ، ولكنه نشأ بقرية « محلة نصر » من قرى مركز شبراخت باقليم البحيرة ، حيث نشأ والده ونشأت أسرته من قبله .

وقرية « محلة نصر » هذه احدى القرى الصغيرة فى اقليم الريف ، ولكنها تـ على صغرهما - كانت من تلك القرى التى يصح أن يقال فيها انها موصولة التاريخ بتاريخ القطر كله ، ذات كيان اجتماعى مكين ، تتمثل فيه أحداث العهود ويحس أهله فيه طوارئ الزمن من عهد الى عهد ، بل من ولاية الى ولاية ، لأنهم يعيشون فى ظل كيان غير منقطع عن مجرى الحوادث الكبرى فى الاقليم ، وفيما حول الاقليم من ميادين الحياة فى أنحاء البلاد .

ولا يخطرنا لنا أن هذا شأن عام مشترك بين جميع القرى فى هذه الأنحاء ، فان من هذه القرى ما يبلغ من عزله أن يتغير الوالى فى القطر كله ولا يدركون تغيره بعمل ظاهر فى القرية ، بل منها ما يعم الوباء وينتشر بين أقاليم شتى ولا يصل اليها ، لقيام العلاقة بينها وبين ما حولها على المعاملات البعيدة ، وقد تكون منها معاملات « حولية » تعود مع المواسم والمحاصيل ، ولا تخرج من نطاقها المحدود بقية أيام الحول .

أما هذه القرية الصغيرة في اقليم البحيرة - محلة نصر - فكانت من تلك القرى الممتازة بدوام اتصالها بالحياة الاجتماعية والحياة السياسية في سائر أنحاء البلاد ، وتاريخها في خلال القرن الذي ولد فيه الأستاذ الامام شاهد على هذه الصلة الدائمة بينها وبين كل حادث خطير من الحوادث القهرية التي سجلت لنا أدوار التاريخ في الوطن المصري بحذافيره .

مارست العيش في ظل نظام الاقطاع ، وسميت باسم محلة « نصر » لأنها كانت اقطاعا لرجل بهذا الاسم لم يبق من تاريخه ما يعرف غير هذه النسبة .

ولما نشأت أنظمة « التفاتيش » الزراعية التي خلفت عهد الاقطاع كان أكبر هذه التفاتيش من أملاك الخديو اسماعيل على مقربة منها ، او على علاقة بأهلها ، والى جوار هذا التفاتيش بمركز السنطة هاجر أبو الأستاذ وعمه ، وكان معهم - كما قال الأستاذ في تاريخه - قدر من المال يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون فيها بأيديهم ومعونة شركائهم ، فاشتهر والده بين أهلها « بالفتوة والبراعة في الصيد بالسلاح فأحبه لذلك مصطفى افندى المنشاوى ومحمد أخوه ، وكانا موظفين في دائرة اسماعيل باشا الخديو : أولهما في وظيفة مفتش زراعة والثاني في وظيفة ناظر ، وطابت له صحبتها فعدوه كأنه واحد من أهلها ، ودام ذلك مدة سنين » .

وقد كان أهل محلة نصر يشعرون بتقلب الأحوال بين وال ووال من أبناء الأسرة الخديوية ، فاعتقل بعض أهلها في زمن

عباس الأول ثم أفرج عنهم في عهد خلفه محمد سعيد ، ومنهم والده وبعض رؤساء أسرة المنشاوى ، لاتهمهم بحمل السلاح وإيواء بعض المظلومين للخدمة العسكرية ، فى أشد أيام النعمة عليها .

ولم تنج المحلة الصغيرة من وباء الطاعون الذى فتك بكثير من سكان القطر فى منتصف القرن التاسع عشر ، فمات به جده « حسن خير الله » عن ولدين هما أبوه وعمه .

وكان للقرية مقامها الدينى ، أو كان هذا المقام هو نواتها الذى التفت به سائر مساكنها ، وذلك أن أجداد محمد عبده كانوا يسكنون الخيام مدة من الزمن ، ثم اتفق أن اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه ، وكان معتقدا ينسبون إليه الكرامات ، فاتخذ له خلوة يتعبد فيها بالمحل الذى قامت عليه . بعد ذلك محلة نصر ، ثم توفى فنهض جدهم - وكان من بيت الشيخ - ببناء قبة جعلوا لهم مساكن من حولها ، وانضمت إليها بيوت كثيرة تألفت القرية من مجموعها بعد فترة وجيزة .

ولم تخل القرية من « قوتها الحيوية » التى أسلفنا فى الكلام على القرية المصرية أنها كانت عدة الريفيين فى مقاومة سلطان الطغاة الكبار ومقاومة أعوانهم من الطغاة الصغار أصحاب الاقطاع أو أصحاب الالتزام . اذ كان هؤلاء الطغاة أعجز من أن يسوقوا الزارعين جميعا بعصا الاكراه ، ولم يكن لهم بد

في قرى الريف ونسج من يسميه تارة بسبر البلد أو سبر العائلة ، قبل أن تسرى على الألسنة كلمة التقاليد العائلية أو كلمة العرف الاجتماعي ، وكان هذا « السبر » ولا يزال أقوى سلطانا بين أهل البلد من سلطان الحكم والشرعة في كثير من الأحوال ...

ومن الأخبار القليلة التي رويت لنا عن محلة نصر نعلم أنها — على صغرها — قرية ذات أسر مسماة وبيوت منسوبة ، وأن أسرة التركمانى من أسرها الثلاث المعدودة كان لها بيت كبير فيها بغير باب تعيش فيه أكثر من « عائلة » واحدة من عائلات الأسرة الكبيرة . وترك الدار الكبيرة بغير باب في الريف علامة في وقت واحد على الكرم المقصود والجوار المرهوب ، فلا تقام السدود في وجه الضيف الغريب ولا يجترىء المعتدى على اقتحام الدار على كره من أهلها ، وتلك هي آية الكرم والمنعة في كل عرف وكل بيئة ، فليس للبيت مكانة وراء مكانة الموئل الذي لا يغلق ولا يستباح .

ويروى الأستاذ الامام من ذكريات طفولته أنه كان قبل أن يدرك معنى الكرم والمنعة يرى أن الكبراء من زوار القرية ينزلون في بيته ضيوفا على أبيه ولا يذهبون الى بيت العمدة وهو أغنى من أبيه وأقرب الى مقام الرئاسة في الحكومة ، وكان أبوه يأكل مع الضيوف ولا يأكل مع أهله في الدار ، فاذا خلا البيت من الضيوف تناول طعامه وحده على حكم هذه العادة ، فكان الطفل الصغير يضيف هذا الانفراد الى سمت الوقار الذي

يرعاه لأبيه ، ويجسبه أكبر رجل في الدنيا ، لأنه لا يعرف من الدنيا غير محلة نصر وما جاورها من شبيهاها في الاقليم المحدود .

وكل أبناء القرية تروى لنا عن هذه الأسرة أنها كانت تنشأ على الفروسية وتحمل السلاح وتتعرض للشبهة والمطاردة ، بل للسجن والمصادرة من جراء هذه الخصلة المتأصلة فيها ، ومن أبناء الأسرة في جيلين قرييين نعلم أنها لم تكن قط تستكين الى المقام في موطنها على كره ومهانة ... فلا يزال البارزون من أبنائها بين مقام مرضى في ديارهم أو ايثار للهجرة والاعتراب ، ان لم يقعدهم عنها السجن والاعتقال .

ولا ينبئنا صاحب الترجمة بأصل هذه النسبة - نسبة التركمانى - التى اشتهر بها بيته وسمع « المزاحين » من أهل البلدة يلقبونه بها وهو لا يفقه معناها ، ولكنه سأل عنها كما نسأل عنها اليوم فقال له والده : « ان نسبنا ينتهى الى جذ تركمانى جاء من بلاده فى جماعة من أهله وسكنوا فى الخيام مدة من الزمن » ..

ويلفت النظر فى هذه الرواية أن اللقب كان مما سمعه الطفل الصغير من « المزاحين » فى القرية ولم يسمعه من أبيه ولا أحد من ذوى قرابته ، فليس هو باللقب الذى يتحدث به الأسرة وتدعيه لنفسها مفاخرة به كما كان يفعل بعض المنتسبين الى غير هذا البلد فى عهود الطغيان الأجنبى ، بل لعله كان مما يقال على سبيل المغايظة والاستشارة للأطفال الصغار ، فاذا جاء اللقب

يغير دعوى فقد يكون له مرجع من التاريخ نهتدى اليه من
مراجعة أخبار التركمان في هذه البلاد ، منذ كانت لهم أخبار
متردة بهذا الاسم في التاريخ الحديث .

فاذا قدرنا أن بيت التركمانى عرف بهذا الاسم قبل وفود
عبد اللطيف البغدادى الى محلة نصر بنحو خمسين سنة ، فقد
مضى عليه في مصر نحو ثمانية قرون ، وهى مدة كافية لاعراقه
في هذا الوطن بالنسبة الى الوافدين اليه من أبناء الأمم التى
اختارته لسكنائها بعد زوال الدولة الرومانية ، على تفاوت في
الأزمنة من فتح العرب الى أيام المماليك .

ويرد ذكر التركمان كثيرا في أخبار القرون الأولى من تلك
الفترة ، فيقول المقرئى وقد ذكر أنه أدرك عهد الظاهر برقوق :
« ان جيوش الدولة التركية كانت بديار مصر على قسمين :
منهم من هو بحضرة السلطان ومنهم من هو في أقطار المملكة
وبلادها وسكان بادية كالعرب والتركمان ، وجندھا مختلط من
أتراك وچركس وروم وأكراد وتركماني ، وغالبهم من المماليك
المبتاعين ، وهم طبقات : أكابرهم من له امرة مائة فارس وتقدمة
ألف فارس » .

ومن هذا السياق العابر نعلم أن التركمان كانوا بين فرق
لجيش ، وانهم لم يكونوا من المماليك المبتاعين لأنهم كانوا
سكان خيام ولم تجر العادة بشراء الأسرة بخيامها من أهل
البادية ، ويوافق هذا الخبر ما رواه صاحب الترجمة عن أبيه

من سكنى أجدادهم في الخيام قبل انتقالهم الى البيوت حول
مقام الشيخ « عبد الملك » الذى سبقت الاشارة اليه ، ولا بد
أن يكون هذا قد حدث قبل عهد الظاهر برقوق .

ونحن اذن بين فرضين : أحدهما أن هذا اللقب المتواتر قد
تلقب به الأسرة عدة قرون بغير معنى ولغير سبب ، والفرض
الآخر أن الاتفاق بين التسمية وبين المذكور من سكنها الخيام
ومن نشأتها على الفروسية وحمل السلاح لم يكن بعض
عوارض المصادفة أو الاختلاق ، بل كان بقية منقولة بين التذكار
والنسيان ، يجوز لنا أن نفهم منها أن جداً قديماً للأسرة وفد الى
مصر قبل نحو ثمانية قرون واختار المقام في اقليم البحيرة
لموافقته في ذلك العهد على الخصوص لسكنى البادية ، ويرجح
أن مقدم هذا الجد الى مصر كان على أيام صلاح الدين لأنه كان
يستكثر من جنود الأكراد وجيرانهم التركمان ، وكان شديد
العناية باقليم البحيرة وكل ما جاور ميناء الاسكندرية الى
الغرب أو طريق الصحراء الغربية من حيث وفد الفاطميون
أسلافه في حكم مصر ، ولم يزل على حذر من جانب هذا الطريق
بعد اسقاط الدولة الفاطمية بعدة سنين ، فلا جرم يختص باقطاعه
أقرب الناس اليه وينشر فيه جنده التركمان والأكراد ليقيموا
فيه مقام الأهل ويحرسوه حراسة العسكر مع مقامهم فيه .

أما نسب صاحب الترجمة لأمه فجملة ما نعلمه عنه أنها
كانت تنسب الى بنى عدى بالصعيد وهم منتسبون الى القبيلة

القرشية قبيلة عمر بن الخطاب كما هو معلوم ، ولكن الأستاذ الامام يقول : « ان ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن اقامة الدليل عليها » .

وقد كانت مع أهلها من البيت الذي عرف في قرية حصّة شبشير باسم بيت عثمان الكبير ، وتزوج منها والده. أثناء هجرته الى اقليم الغربية ، واسمها « جنية » بنت عثمان ، ويصفها ولدها الأمين فيقول : « انها كانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء ، وتعد ذلك مجدا وطاعة لله وحمدا » .. ويقول : ان منزلتها بين نساء القرية لم تكن تقل عن منزلة أييه بين رجالها .

والذي نراه أن انتساب هذه الأم الى بنى عدى باقليم أسيوط ، وانتساب بنى عدى الى القبيلة القرشية المعروفة ، أمر لا داعية للشك فيه ، لأن هجرة القبائل القرشية الى اقليمى المنيا وأسيوط خبر من أخبار الفتح العربى المتواترة ، ولزوم هذا الاسم للقبيلة المعروفة به عند منفلوط لا يتسلسل مع الزمن اختلافا بغير سند أصيل ، وقد ينتسب رجل أو امرأة الى احدى القبائل دعيا فيها بغير سند ، ولكن انتساب قرية كاملة الى القبيلة أمر نحسب أن تكذيبه أصعب من تصديقه ، ولا موجب لتكذيبه على أية حال بغير دليل .

وانما تحتاج الرواية الى دليل راجح اذا ارتفعت النسبة الى رجل معلوم ، اذ لا يلزم من صحة النسب الى قبيلة عمر ابن الخطاب أن يكون العدوى المنسوب من ذريته ، ولا يثبت

ذلك الا بسلسلة النسب المحدود ومتابعة أخبار الأبناء والأجداد
ما بين الموطن الأول في الحجاز وموطن فروعه في هذه الديار .



على أن الأخبار المتقدمة جميعا لا تتناقض في اختلافها ولا
تتباعد كثيرا في جوهرها . فكلها تنتهي الى نتيجة واحدة
لا غرابة فيها ، وهي ان هذا المصلح الغيور قد أنبتته قرية
موصولة بالتاريخ ترشحه لرسالته التاريخية ، ونمته أسرة أبية
تورثه ما قد ورث عنها من عزة وعزيمة .

محمد بن عبده بن حسن خير الله

نشأ الطفل « محمد عبده » في بيت من بيوت القرية المتوسطة ، لا يحسب من أفقرها لأن الفقير في القرية الصغيرة لا يقتنى الخيل ولا يفرغ لرياضة الفروسية وما إليها ، ولا يملك من موارد الكسب ما يعينه على فتح بيته للضيافة وإيواء الضيوف من علية الزائرين في نظر أبناء القرية .

ولا يحسب من أغناها ، لأن القرية كان فيها من هو أغنى من أرباب ذلك البيت ولم تكن من السعة بحيث يتسع زمامها كما يقول أبناء الريف لبيوت كثيرة من أصحاب الثراء ، وعدة سكانها في أيام نشأة الطفل الصغير لم تزيد على ألف نسمة عند نهاية القرن التاسع عشر ، كما جاء في احصاء سنة ١٨٩٧ ميلادية .

والمعلوم من شأن هذا البيت في تلك الفترة أن أبناءه كانوا يزرعون أرضهم بأيديهم ويستأجرون معها أرضا من ملك غيرهم . يتعاونون على زرعها مع جيرانهم ، ويكفل لهم ما عرف عنهم من الجد والاستقامة وصلابة العود أن يزيدوا موردتهم بين عام وآخر في حدود طاقتهم ، فقد بلغ ما ملكوه من الأرض عند نشوب الثورة العراقية نحو أربعين فدانا في خبر رواه الدكتور

عثمان أمين عن صحيفة انجليزية ، ولم نطلع على مرجع آخر يحدده بهذا المقدار ، ولكنه لا يجاوز حده المعقول اذا نظرنا الى الأسرة التي كان يعولها والد الطفل الصغير على حالة بعيدة من حالة الفاقة والاضطرار .

ونحن نعرف أفرادا من تلك الأسرة قليلين ممن وردت أسماؤهم في تراجم الأستاذ الامام أثناء حياته وبعد مماته .

فمنهم جده حسن خير الله ، وعمه بهنس حسن خير الله ، وابن عمه ابراهيم ، وأخواه من أبيه على ومحروس ، وأختاه شقيقتاه : زمزم ومريم ، وأخوه من أمه مجاهد ، لأن أباه تزوج من أمه وهي أيم تقيم مع أبيها عثمان الكبير بقرية حصه شبشير على مقربة من طنطا ، وهؤلاء غير أفراد أسرته من أخوال أبيه أو أخواله في غير المحلة ، وكلهم من رجال الأسرة عملوا في الزراعة ولم يعرف لهم عمل من أعمال كسب المعيشة في غيرها .

ويتقاضانا البحث عن كل ما له دلالة خاصة من شأن هذه الأسرة أن نلتفت الى « سبرها » أو عاداتها في التسمية . فانها تختار الأسماء لمعانيها ومناسباتها ، فاذا اختارت اسماً من غير أسماء الأنبياء وأعلام الصحابة لم يكن هذا الاختيار جزافاً لغير معنى مقصود . فمن أسمائهم محمد و ابراهيم وعلى وحسن وعثمان وحمودة ، ومنها بهنس ودرويش ومجاهد ومحروس . ومعنى بهنس أنه يمشى مشية الأسد أو مشية الفارس المتبهنس ، وهو اسم ينم على عراقة في حب الفروسية بين أجيال هذه الأسرة ، ودرويش لم تكن من الأسماء التي تطلق على المولودين

حيثما اتفق ، لأن صاحبه كان من أهل التصوف وكانت له رحلات الى شيوخ الطريق في المغرب كرحلات السياح المتسكين ، وقد سماه به والد اسمه « خضر » وهو اسم الامام الذي نعلم من القرآن الكريم أنه كان يجوب الآفاق ويعلم موسى عليه السلام معرفة أهل الباطن وأسرار الشريعة الخفية .. واسم محروس غير عجيب أن يكون مقصودا بمعناه من حراسة الله في بيت مرزأ مضطهد ، قد ابتلى العشرات من أبنائه بالنفى والسجن والمصادرة ، وقضى منهم من قضى بالطاعون ، ومن بقى بعده لم يزل بين خصومه الألداء عرضة للوشاية والخراب . واسم مجاهد ظاهر الدلالة على خب العمل في سبيل الله ، وتظهر العاطفة الدينية في تسمية البنات باسم زمزم ومريم ، فانها تسمية أناس مشتغلين بأمر الدين . واسم عبده مضافا الى الضمير الذي ينوب عن جميع الأسماء الحسنی معناه أن المتسمى به « عبده » هو سبحانه وتعالى وليس بعبد أحد من خلقه . وقد يطلق هذا الاسم بغير نظر الى هذا المعنى ، ولكنه اذا أطلق على المولود في زمن يسام فيه أهله الذل والعنت ويرفعون فيه الرأس بالتحدي والمناجزة فليس هو من الأسماء التي تطلق جزافا ولا تراد لمعنى ، وكذلك اسم خير الله كبير الأسرة : انه خير الخالق وليس بخير أحد سواه ، وأصغر أبناء الأسرة « حمودة » هو اسم محمد للتحييب ، سمي به لأن له أخا أكبر منه يسمى محمدا وينادى أخوه الأصغر باسم حمودة ، كأنه ينادى باسم محمد الصغير .

ونحن نلتفت الى هذه العبادة في التسمية ونرجح القصد فيها لأنها مناسبة لحالة الأسرة غير منقطعة عن معانيها كما تنقطع معاني الأسماء في كثير من الأسر التي تجرى في اختيار الأسماء لأبنائها وبناتها مجرى التقليد الذي تتساوى فيه ظروفها وظروف غيرها . فاذا صح ما ذهبنا اليه فهو آية أخرى من آيات الاستقلال بالرأى في هذا البيت . وعادة من عادات أناس يريدون لأنفسهم ولا يراد لهم فيما يعينهم من شئون الآباء والأبناء .

واسم صاحب الترجمة « محمد » هو الاسم الذي يقترن باسم أبيه فيساق لفظ التحية الاسلامية كلما ذكر النبي « محمد عبده » ورسوله .

فمحمد عبده اسم للوليد وذكرى محبوبة لنبي الاسلام عليه السلام .

وأغلب الظن أن « محمداً » نذر من يوم مولده لطلب العلم ، لأنه ولد بجوار مدينة طنطا في أواخر سنة ١٢٦٥ هجرية أو أوائل السنة التي تليها ، وهو موعد من السنة يحتفل فيه بأحياء ليلة جامعة يشهدها المريدون من أنحاء الاقليم وتتلّى فيها سور القرآن الكريم يرتلها أشهر القراء بالمسجد الأحمدي ، وهو مشهور منذ بنائه بعلوم القرآن حفظاً وتجويداً وتفسيراً ، وله في كل ليلة من ليالي الأسبوع مقراءة باسم أحد المحسنين من أصحاب الوقوف عليه ، ومن عادة قرائه الكبار أن يجلسوا بعد صلاة الجمعة ، أو بين العشائين ، كل ليلة من ليالي المقارئ

لاستماع سور القرآن من المبتدئين بحفظه وتجويد تلاوته ،
وهم الذين يخلفون كبار القراء بعد اتمام الحفظ واحكام التلاوة
والالمام بما يتيسر لهم في سنهم من تفسير آيات الفرائض
والعبادات .

فاذا كان الوالد المغترب قد شهد بالمسجد ليلة الختام وشهد
معها تسابق الفتية الصغار الى تجويد القراءة والاستعداد لطلب
العلم بمعهده الذى كان يسمى بالأزهر الصغير ، أو الأزهر
الثانى ، فليس أقرب الى الذهن من أن يخطر له أن ينذر وليده
في هذا الجوار لمثل هذه الكرامة ، وهو على ما طبع عليه من
التدين والتطلع الى عظام الأمور ، ولم يكن لابن القرية يومئذ
من مستقبل أعظم من مستقبل العالم الذى يقود الأمة في شئون
الدين والدنيا ، ويحاسب ولاية الأمر على ظلم أهل القرى ، وهو
في اغترابه لا ينسى ذلك الظلم ولا يتمنى لولده مقاما أكبر من
مقام ذلك الحسيب المهيب .



لذلك بقى الطفل الصغير بعد عودة أبيه الى محلة نصر
معفى من تكاليف العمل فى الحقل مع أخويه وذوى قريابه ،
وتعلم الكتابة والقراءة فى منزل والده ، ثم وكل الى حافظ
معتقد لتحفيظه القرآن ، ثم أرسل فى سن طلب العلم الى طنطا
لتلقى علومه تمهيدا للترقى منه الى الجامعة الأزهرية ، ولم يقبل
منه أبوه عذرا للتخلف عن المسجد بعد تزويجه المبكر فى نحو

السادسة عشرة ، ولعله حسب أن احجابه عن متابعة الدرس كان عرضا من أعراض سن المراهقة ، وانه مع ذكائه الذى ظهر منه فى تعلم الكتابة وحفظه للقرآن فى نحو سنتين خلىق أن يعدل عن المعاندة فى طلب العلم الذى نذره له منذ ولادته ، وتفصيل ما بعد ذلك من مراحل تعليمه مبسوط فى سيرته التى كتبها بقلمه ، ننقله بنصه ولا نرى لنا مرجعا أولى بالاعتماد عليه وأوفى منه فى بابيه ، وهذا ما كتبه بعنوان نشأتى وتربيتى من تلك السيرة التى نشرت بعد وفاته . قال رضوان الله عليه :

« تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى ، ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحذى جميع القرآن أول مرة ، ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين ، أدركنى فى ثانيتهما ضبيان من أهل القرية جاءوا من مكتب آخر ليقرأوا القرآن عند هذا الحافظ ، ظنا منهما أن نجاحى فى حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . وبعد ذلك حملنى والدى الى طنطا ، حيث كان أخى لأبى الشيخ مجاهد رحمه الله ، للأجود القرآن فى المسجد الأحمدي لشهرة قرائه بفنون التجويد ، وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ هجرية .

« وفى سنة مائتين واحد وثمانين هجرية جلست فى دروس العلم وبدأت بتلقى شرح الكفراوى على الأجرومية فى المسجد الأحمدي بطنطا ، وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم ، فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ، ولا عناية لهم بتفهم معانيها لمن لم

يعرفها فأدركنى اليأس من النجاح وهربت من الدروس ،
واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر على أخى
فأخذنى الى المسجد الأحمدي ، وأراد اكرامى على طلب العلم ،
ولم يبق على إلا أن أعود الى بلدى وأشتغل بملاحظة الزراعة
كما يشتغل الكثير من أقاربى : وانهى الجدال بتغلبى عليه ،
فأخذت ما كان لى من ثياب ومتاع ، ورجعت الى محلة نصر
على نية ألا أعود الى طلب العلم ، وتزوجت فى سنة ١٢٨٢ على
هذه النية .

« فهذا أول أثر وجدت فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا
وهى بعينها طريقته فى الأزهر .. وهو الأثر الذى يجده خمسة
وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بضجة من لا يلتزمون
هذه السبيل فى التعليم .. سبيل القاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه
بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم ، غير أن
الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تعشهم أنفسهم فيظنون
أنهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن
الرجال ، وهم فى أحلام الأطفال ، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب
بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ،
ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ، ويؤذون بدعاويهم
من يكون على شىء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس
بعمله .

عودة الى طلب العلم

« بعد أن تزوجت بأربعين يوما ، جاءنى والدى صحوة نهار
وألزمنى بالذهاب الى طنطا لطلب العلم .. وبعد احتجاج وتمنع
واباء ، لم أبجد مندوحة عن اطاعة الأمر ، ووجدت فرسا أحضره
فركبته ، وأصحبنى والدى بأحد أقاربنى .. وكان قوى البنية
شديد البأس ، ليشيعنى الى محطة (ايتاى البارود) التى أركب
منها قطار السكة الحديدية الى طنطا .

« كان اليوم شديد الحر ، والرياح عاصفة ملتهبة ، تخبص
الوجه بشبه الرمضاء .. فلم أستطع الاستمرار فى السير فقلت
لصاحبى : أما مداومة المسير فلا طاقة لى بها مع هذه الحرارة ،
ولا بد من التعرّيج على قرية أنتظر فيها حتى يخف الحر .. فأبى
على ذلك فتركته ، وأجريت الفرس هاربا من مشادته ، وقلت
انى ذاهب الى (كنيسة أورين) بلدة غالب سكانها من خثولة
أبى . وقد فرح بى شبان القرية لأننى كنت معروفا بالفروسية
واللعب بالسلاح وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا
بصاحبه .. أدركنى صاحبى وبقى معى الى العصر ، وأرادنى
على السفر فقلت له خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد
وان شئت قلت لوالدى اننى سافرت الى طنطا .. فانصرف
وأخبر ما أخبر ، وبقيت فى هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت
فيها حالتى ، وبدلت فيها رغبة غير رغبتى .

مع الشيخ درويش

« ذلك أن أحد أخوال أبي ، واسمه الشيخ درويش سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا .. ووصل في أسفاره الى طرابلس الغرب ، وجلس الى السيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الاستانة وتوفي بها وتعلم عنده شيئاً من العلم ، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية ، وكان يحفظ « الموطأ » وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع من أسفاره الى قرية هذه ، واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاحه الأرض وكسب الرزق بالزراعة .

« جاءني هذا الشيخ صبيحة الليلة التي بتها في الكنيسة ، ويده كتاب يحتوى على رسالة كتبها السيد محمد المدني الى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربي دقيق ، وسألني أن أقرأ له فيها شيئاً لضعف بصره .. فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ، وفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدي رميته الى بعيد ، ولكن الشيخ تبسم وتجلى في لطف مظاهر الحلم ، ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لي معاني ما قرأت بعبارة واضحة تغالب اعراض فتغلبه وتسبق الى نفسي . وبعد قليل جاء الشبان يدعونني الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية ، فرميت الكتاب وانصرفت اليهم .

« بعد العصر جاءني الشيخ بكتابه ، وألح علي في قراءة شيء

منه ، قرأت ثم تركته الى اللعب ، وفعل في اليوم الثاني كما فعل في الأول . أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه ، وهو يشرح لى معانى ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها ، فقال لى انه فى حاجة الى الذهاب الى المزرعة ليعمل فيها فطلبت منه ابقاء الكتاب معى فتركه ، ومضيث أقرأه وكلما مررت بعبارته لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهر ، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب ، وكل هوى يينازعنى الى البطالة .. وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه ، فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من «الرغبة فى المطالعة والميل الى الفهم .

مفتاح سعادتى

« كانت هذه الرسائل تحتوى على شىء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا .

« لم يأت على اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شىء الى ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شىء الى ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم ، وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعوننى الى ما كنت أحب ويزهدوننى فى عشرة الشيخ رحمه الله ، فكنت لا أحتمل أن أرى واحدا منهم ، بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجر .

« وفي اليوم السابع سألت الشيخ : ماهى طريقتك ؟ فقال :
طريقتنا الاسلام ، فقلت : أوليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟
قال : لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ،
ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب .

« هذه الكلمات كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من
المتاع القديم .. متاع تلك الدعاوى الباطلة ، والمزاعم الفاسدة ،
متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون ، وان كنا في غمرة ساهية .

« سألته :- ما وردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب
الصلوات ؟ فقال : لا ورد لنا سوى القرآن ، تقرأ بعد كل صلاة
أربعة أرباع مع الفهم والتدبر . قلت : أنى لى أن أفهم القرآن
ونم أتعلم شيئاً ؟ قال : أقرأ معك ، ويكفيك أن تفهم الجملة
وبيركتها يفيض الله عليك التفصيل ، وإذا خلوت فاذكر الله -
على طريقة بينها لى . وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن ،
فلم تمض على بضعة أيام الا وقد رأيتنى أطيّر بنفسى فى عالم
آخى غير الذى كنت أعهد ، واتسع لى ما كان ضيقاً ، وصغر
عندى من الدنيا ما كان كبيراً ، وعظم عندى من أمر العرفان
والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيراً ... وتفرقت
عنى جميع الهموم ، ولم يبق لى الا هم واحد وهو أن أكون
كامل المعرفة كامل أدب النفس ، ولم أجد اماماً يرشدنى الى
ما وجهت اليه نفسى الا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة
أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد ، الى
اطلاق التوحيد .. هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من

صحة أحد أقاربي ، وهو الشيخ درويش خضر من أهل
(كنيسة أورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتي إن
كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا ، وهو الذي رد لي ما كان
غائب من غريزتي ، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في
فطرتي .

« وفي اليوم الخامس عشر ، مر بي أحد سكان بلدتنا
(محلة نصر) فأخبرني أن والدتي ذهبت إلى طنطا لتراني ،
فعلمت أنها ستقول لوالدي أنني لا أزال في بلدة الكنيسة ،
فأصبحت مبكرا إلى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده في
اللوم ، لأنني لو كنت أقمت له ألف دليل على أنني وجدت في
مهربى مطلبه ومطلبى لما اقتنع .

في ساحة الدرس

« ذهبت إلى طنطا ، وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية
في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ الهجرية ، فاتفق أن بعض
المشايع كانت ماتت بنته ، فعاقه الحزن عليها من اتمام شرح
الزرقاني على العزية ، وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام
شرح الشيخ خالد على الأجرومية فأدركت كلا منهما في أوائل
الكتاب الذي كان يدرس وجلس في الدرسين فوجدت نفسي
أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله . وعرف ذلك مني بعض
الطلبة فكانوا يلتفون حولي لأطالع معهم قبل الدرس
ما سنتلقاه .

وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة ، كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معاني شرح الزرقاني ، فرأيت أمامي شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب .. فلما رفعت رأسي إليه قال ما معناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء .. فقلت له : وأين الحلوى التي معك ؟ فقال : سبحان الله من جد وجد .. ثم انصرف فعددت ذلك القول منه الهاما ساقه الله الي ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا .

« وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الأزهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت أستغفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة .. وفي أواخر كل سنة دراسية ، كنت أذهب الى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين من منتصف شعبان الى منتصف شوال وكنت عند وصولي الى البلد أجد خال والدي الشيخ درويشا قد سبقني اليه فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم الى يوم سفرى وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت ، فأذكر له ما درست فيقول : ما درست المنطق ، ما درست الحساب ، ما درست شيئا من مبادئ الهندسة .. وهكذا كنت أقول له : بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الأزهر ، فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أى مكان .. فكنت اذا رجعت القاهرة ، ألتبس هذه العلوم عند من يعرفها ، فتارة كنت أخطئ في الطلب ، وأخرى أصيب ، الى أن جاء المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر أواخر سنة ١٢٨٦ هـ .

لقاء بالسيد جمال الدين

« وقد صاحبتُه من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ هـ ، وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية ، وأدعو الناس الى التلقى عنه كذلك .

« وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه .وعلينا الأقاويل ، ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة . وقد يهوى بالنفس في ضلالات تحرمها خيري الدنيا والآخرة ، فكنت إذا رجعت الى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لي : « ان الله هو العليم الحكيم ، ولا علم يفوق علمه وحكمته ، وأن أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفیه ، وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة ، فلا شيء من العلم بمقوت عند الله ، ولا شيء من الجهل بمجحود لديه الا ما يسميه بعض الناس علما . وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلهما الاضرار بالناس . »

محور حياة

صحبتنا الفتى الناشئ في مراحل التعليم الى نحو الثانية والعشرين من عمره ، فلو أننا اردنا أن نلتصق بحياته في هذا الدور مجورا تدور عليه ، يجتمع لنا في كلمة واحدة ، لما كانت هذه الكلمة أصدق ولا أوفى من كلمة التعليم .

صحبتنا الى أول لقاء له بأستاذه العظيم جمال الدين الأفغاني ، وسنبصحه بعد ذلك زدجا من العمر في الصفحات التالية ، ولا نرانا نعرف حياته المباركة محورا غير ذلك المحور الذي دارت عليه كل أدوار حياته ، على تعدد جوانبها واتساع ميادينها .

بل نحسب أننا لو صحبتناه في كل صفحة من الصفحات بعنيت بأخياره وآثاره لما ابتعدنا من ذلك المحور المكين ، وان ذهبننا الى غاية الأمد الذي أحاطت به حياته الحافلة بجلال أعماله ، متعلما ومعلما وعاملا على نشر العلم النافع حيث استطاع ، وقد استطاع ما لم تستطعه العصابة أولو العزم في جيل واحد ، من الثانية والعشرين الى السادسة والخمسين .

اننا نصاحب الطفل محمد عبده كما نصاحب الفتى محمد عبده ، والشيخ محمد عبده ، فلا نراه أبدا الا على مفترق طريقين من طرق التعليم ، أصلحهما هو الذي يختاره له القدر

أو يختاره لنفسه ، منذ تعلم الكتابة في بيته الى أن فارق دنياه وهو يناضل نضاله الدائم في سبيل أصلح الثقافتين وألزم التعلّمين .



كان في نحو السابعة حين ابتداء بتعلم الكتابة والقراءة ، فكان في قريته الصغير أمام طريقتين في هذه المرحلة الأولى من مراحل التعليم : طريقة السوط والفلة وصياح العشرات من الصبية بين جدران المكتب العتيق ، وطريقة التعلم في البيت بين يدي أستاذ واحد من أهله يفهمه ويعنى بتفهمه ويعز عليه أن يعتنه بالسوط والفلة وجلبة الصياح في مكان كالمكان الذي يختار للمكتب في ذلك الزمن ، فكان من حظه أن يتعلم حروفه الأولى على أفضل الطريقتين .

وارتقى الى المرحلة الثانية من مراحل التعليم في القرية ، وهي حفظ القرآن ، فلم يتعلمه في المكتب العتيق مأخوذاً بقسوة الضرب والشتم ، مرتاضاً على التردد مع زملاء له يحفظون غير حفظه ويرددون غير ترديده ، ويستعينون بالحركة الآلية على هذا الحفظ الآلي الذي لا يعقله الأستاذ ولا التلاميذ ، بل هو قد حفظ منه ما استطاع أهله أن يعلموه في البيت ، ثم أسلموه الى الحافظ المعتقد الذي يقرأ الكتاب مع تلميذه الوحيد قراءة بعد قراءة ، قبل أن يأخذه باستظهاره من فاتحته الى ختامه مقروءاً أو غير مقروء ، لا فرق بين تعليم الضير وهو

لا ينظر الى الصفحة وتعليم البصير الذى ينظر الى الكلمات والآيات فيدرك جهده من الادراك معنى الانتقال من آية الى آية ، ويستعيده للفهم جهده قبل أن يستعيده للحفظ والاستظهار ... فكان فى هذه أيضا محدودا موقفا الى أمثل الطريقتين ، وفضله فى مثل هذه السن أنه وافق هذه الطريقة باستعداده للمضى فيها الى غايتها ، ولم ينفر منها كما نفر من التعليم - وهو أكبر من ذلك سنا - لأنه تعليم معيب .



ثم ألقى نفسه مترددا عند مفترق الطريقين أيضا على فجوة أوسع من كل فجوة مرت به منذ اختبر التعليم فى البيت أو عند حافظ القرآن .

ألقى نفسه على مفترق الطريقين بين دروس المسجد الأحمدي يوم ذاك ودروس قريه الصوفي الحكيم الشيخ درويش بكنيسة أورين .

ألقى نفسه بين طريقة الأذن والذاكرة ، وطريقة الذهن والوجدان :

فى الطريقة الأولى يتدبىء المعلم بتدريس النحو لجمع من التلاميذ الذين يجهلون كل شىء عنه ، فيلقى عليهم فى أول درس ومن أول صفحة اعراب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويحدثهم عن حرف الجر وعن الاسم المجرور وعن المضاف والمضاف اليه وعن النعت ومطابقة الوصف للموصوف ، كأنهم

قد فرغوا من دروس العربية كلها قبل أن يقرأوا البسملة على بابها الأول .. فمن وعى ما سمع فقد أدركته بركة العلم والمسجد ، ومن لم يع شيئاً مما سمع فذلك عندهم مطموس محجوب عن البركة والفائدة .

وهذه هي الطريقة التي سمينها بطريقة الأذن والذاكرة ، لأن أساتذتها يخاطبون في تلميذهم أذناً تسمع الكلمات وذاكرة تثبتها كما هي وتعيدها كما سمعتها ، ولا يعنيه منه بعد ذلك أن يكون له ذهن يفهم ، ويتصرف فيما يفهم ، أو وجدان يستضيء بنور المعرفة المفهومة ويستلذ الشعور بما وعاه منها .

وقد عاف الفتى الناشئ هذه الطريقة ولم يستطع أن يغالط نفسه في حقيقتها .

وانما يفعل ذلك أحد اثنين من الطلاب : طالب مغلق الذهن عن كل معرفة مفهومة أو غير مفهومة ، فهو عاجز عن الاستماع إلى ما يفهم وما لا يفهم مما يلقي على أذنيه ، فلا يلبث بعد معالجة الحفظ والمراجعة زمناً أن يسلم الأمر تسليم اليأس لأنه من أولئك المطموسين الذين « لم يفتح عليهم » وليس لهم من العلم نصيب مقدور .

والطالب الآخر الذي يزهد في تلك الطريقة ولا يغالط نفسه في حقيقتها هو صاحب الذهن الذي يتطلب الفهم والوجدان الذي يلمح النور إذا رآه . فان لم يجدهما في ساحة الدرس لم يبال أن يتركه لما هو أقدر عليه من شواغل حياته ، وبخاصة حين تكون هذه الشواغل رياضة كرياضة الفروسية

تستريح اليها كل نفس حية وكل طبع سليم ، وعملا كعمل
الزراعة يقوى عليه صاحب الجد في العمل وصاحب البنية التي
تحتمل الجهد ولا تعيها المشقة .

ولعسى ان من بواكير العظمة المستقلة في هذا الفتى الناشئ
أن يركن الى عقله في الحكم على هذه الطريقة بالعقم ولا يستسهل
قبل ذلك أن يتهم عقله وأن يصنع ما صنع الألوف من قبله في
مثل بدايته ، فانهم كانوا يكبرون أن يعيوا هذا التعليم وهو
محفوف بتلك الهالة المرهوبة التي تحف باسم المعهد الأحمدي
وأسماء العلماء الذين يجلسون للتعليم فيه ، ومن اسم السيد
البدوي تستمد تلك الطريقة هيبتها وهو ثاو في ضريحه براء
منها ، وانه كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق في ترجمته
للأستاذ الامام : « أشهر أولياء القطر المصري ، وصيته وكراماته
ذائعة في أنحاء وادي النيل ، وللناس فيه اعتقاد ، ولزائريه من
صور التوسل والزلفى ما لا يخلو من اسراف » .

ولا شك أن الشيخ « عبده حسن خير الله » قد تلقاها خيبة
أمل مرة في وليده المنذور للعلم والرئاسة الدينية الديوية ،
ولولا رجاء الأب الذي يأبى أن تزعزع صدمة أو صدمتان لما
عاود الكرة على الفتى المتمرد ولا حال بينه وبين البقاء في القرية
كما أراد ، ولكنه لو كشف له حجاب الغيب لعلم أنه يشاهد
من فتاه الصغير أنضر بواكير العقل المستقل والعارضة القوية
التي صار بها الطالب « الخائب » أستاذ الشرق الناهض بعد
سنين .

اما الطريقة الأخرى ، طريقة العقل والوجدان ، فلم يكن بينه وبينها غير اشارة لطيفة من أستاذه الفلاح البسيط درويش خضر ، وغير كتاب مخطوط يلقي بين يديه ليقرأه ويستقل بفهمه ويسأل عما يغمض عليه من كلماته ، ان شاء .

فلم تكن لهذه الطريقة مهابة المعهد الكبير أو الأساتذة الكبراء ، ولم يكن لذلك الكتاب اسم يروع بالتواتر والتقليد ، أو شكل يعجب بصنيع الطبع والتجليد ، ولكنه كان بصفحاته المشوشة المبعثرة ، وخطه الساذج المسوح ، كافيا لاجتذاب الطالب المتمرد على العلم وانصرافه عن لهو الفتوة في ملاعب الخيل وحلبات السباق ، لأنه خاطب منه الذهن المتفتح والوجدان المتطلع الى النور .

ولسنا نعلم اليوم شيئا عما احتوته تلك الصفحات المخطوطة الا أنها نخبة من حكم الصوفية وجوامع النوادر والأمثال .

ولكننا نستطيع أن نعلم عن تلك « الصوفية » أنها شيء غير الجذب والتواكل وغير الكسل والزهد في أعمال المعيشة ، لأن أستاذه الذي هداه الى ذلك الكتاب كان فلاحا يعمل في الزراعة ، وكان يحضه على تعلم الحساب والهندسة والمنطق وعلوم الحياة ، وينهاه عن العزلة واجتناب الناس ، ولو كانوا على غير ما يرضاه من خلق وسيرة ، لأنهم بذلك أحوج الى الهداية ومصاحبة العقلاء .

ولا يخلو مذهب صوفي قط من التفرقة بين الظاهر والباطن وبين شواغل الجسد وشواغل الروح ، ولكن هذه التفرقة قد

تتباع بالفوارق كما يتباعد النقيضان ، وقد تتباعد بها كما
يتباعد الباب والقشور . ومثل هذه الصوفية هي التي نعقلها
من مزاج رجل كالشيخ محمد عبده له بنية الفلاح السليم ونشاط
الرياضي المقدام وثقة العقل المستقل وهمة الكفاح الذي يأبى
أن يستكين لمغالبة الأحداث ، أو مغالبة الخصوم .

وفي الأسرة كلها على ما يظهر نفحة من هذه الصوفية العاملة
التي تؤمن بحقيقة لهذه الدنيا وراء قشورها الظاهرة ، فمن
أجداد محمد عبده أولئك الفلاحون الذين أقاموا مساكنهم
حول ضريح « عبد الملك » وقامت المحلة كلها — من ثم — على
أساس ذلك الضريح .

ومن خثولة أبيه الشيخ « خضر » الذي تدل تسميته على
هذه النزعة في أبيه ، ومنهم الشيخ « درويش بن خضر » الذي
وضع بين يدي تلميذه ذلك الكتاب وهو لا ينسى أن يحثه على
العمل والعلم في كل لقاء ، ومنهم أبوه « عبده » وأخوه « مجاهد »
فيما تخلقا به من خلق وما عرفنا عنهما من غيرة على العلم ، مع
اشتغالهما بالفلاحة وكفاح الحياة ، وهذه الطبائع التي تهديها
الفطرة السليمة إلى الإيمان بشيء وراء القشور وسر وراء
الكلمات ، قد تهديها هذه الفطرة السليمة بعينها إلى العصمة
من أكاذيب الأدعياء وأباطيل اللصقاء بالصوفية ، لأن طبيعة
العمل والجد في فطرتهم تأبى عليهم أن ينخدعوا بما ينخدع به
الكسالى الذين ينفرون من الجد الصادق بمقدار ارتياحهم إلى
الأوهام الباطلة ، ويرحبون بما يحجب اليهم التواكل والاستنامة

الى أحلام اليقظة وتعلات الغرور بمقدار اعراضهم عن الواقع
الصادع والبرهان الدامغ ، ان كان وراءهما جهد واجتهاد .

وغاية ما تسيغه الفطرة السليمة من استطلاع الأسرار أن.
تتفاعل بها لتمضى فى عملها ، ولكنها لا تتفاعل أو تتشائم منها
لتعرض عن العمل أو تركز الى الكسل ، وكذلك كانت فطرة.
هذه الأسرة فى « صوفيتها » البريئة ، فاننا سمعنا عن عقائدهم
فى الأولياء وأبناء الطريق ، ولكننا لم نسمع عن واحد منهم
ساقه اعتقاده الى اهمال حقله أو القاء فأسه والتخلى عن كفاحه.
للعيش ، أو كفاحه للخصوم .



ومن هذا التفاؤل اصغاء الطالب المتبرم بدروس المعهد الى.
الكلمة التى لوح بها من قال عنه : « انه يشبه أن يكون من.
أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب » ... وقد سمعها منه يوم.
كان يحدث نفسه بالانتقال من طنطا الى القاهرة ، عسى أن يجد
فى الأزهر الأول ما لم يجده فى الأزهر الثانى أو الأزهر
الصغير .

ولم يلبث أن أقام بالقاهرة أياماً حتى ألفى نفسه فى الأزهر
كما ألفى نفسه من قبل مرة بعد مرة على مفترق الطريقين :
طريق الأذن والذاكرة ، وطريق الذهن والوجدان ، وقد سميتا
يومئذ بين طلاب العلوم الدينية بطريقة التقليد وطريقة
التجديد .

وحسبنا من تلخيص واف لصلابة المقلدين على جمودهم
أن نعلم أن رئيسهم عlishاً خرج يسعى بخنجره الى مجلس الشيخ
السنوسى ليقتله لأنه كتب فى مؤلف له أنه يجتهد بعلمه فى فهم
الشريعة من كتاب الله ، غير متقيد بما كتبه الفقهاء من المتأخرين
أو المتقدمين ، ولولا سفر الشيخ السنوسى من القاهرة لما برح
الشيخ يتعقبه حيث كان ليقضى عليه .

وقد كانت لأنصار التجديد مدرسة مستقلة يقصدها من
يريدها وقلما يبحث عنها من كان يطلب العلم على من يفتتحون
كتاب النحو بأعراب البسمة ، ويختمون الكتب كلها بخاتم
الذاكرة . فبحث الطالب الأزهرى الغريب عن أساتذته المختارين
من علماء التجديد ، وحضر على عالمين جليلين من أشهرهم
وأقدرهم هما الشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيونى ،
وكلاهما من تلاميذ الشيخ حسن رضوان الذى تفرغ لحكمة
التصوف بعد أن استوفى حظه من العلوم العقلية والشرعية ،
ثم يئس من الدرس والتدريس فى الجامع الكبير فتركه ليلحق
بأستاذه الذى كان يلقي دروسه فى غير حلقاته ، ونظم وهو يودع
حلقاته أرجوزة يقول فيها عن جماعة المقلدين :

لو كان هذا وصفهم ما شنعوا
بل وقتهم فى « جاء زيد » ضيعوا
ظنوا بأن العلم علم القول لا
والله بل علم القلوب فمضوا

وعلم القلوب هذا هو العلم الذى ميزه الطالب الناشئ في
قريته وجاء الى العاصمة الكبرى ينشده فيجده على تلك الحال :
امامه العارف بفضله يبحث عن تمامه بعيدا من حلقات الجامع ،
وخليفته النابتان بعده يقنعان من درسه وتدريسه بالجانب
المأمون من خنجر الشيخ عlish .!

قال صاحب المنار نقلا عن الأستاذ الامام :

« ... كان الشيخ حسن الطويل ممتازا في الأزهر بعلم
المنطق وحضره عليه ولم يكن يشفى ما في نفسه ، بل كانت
تتشوف دائما الى علم غير موجود ، فكان يبحث في خزائن
الكتب الأزهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشيء . ومما
ظفر به كتاب القطب على الشمسية ناقصا » .

قال : « وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئا من الفلسفة
ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا ، بل كان الدرس احتمالات
أو شبهات الحذر فيما بينها ، حتى جاء السيد جمال الدين
فسكنت اليه نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها
وأقصى أمنيته .. » .

أهو مفترق الطريق مرة أخرى ؟

نعم ، ولكنه في هذه المرة مفترق طريق في مدرسة واحدة :
مدرسة علم القلوب والعقول . وبديهة التلميذ الصادقة هي
هاديه الأمين الى أقوم الطريقين وأفضل الغايتين ، بين تعليم
الشيخ حسن الطويل ، وتعليم السيد جمال الدين .

وانما افترق التعليمان هنا بين طريق النظريات وطريق العمليات .

وكلاهما يخاطب الذهن والوجدان ، ولكن النظريات لا تذهب بعيدا وراء الفهم والمناقشة ، ولا تستريح النفوس المطبوعة على الحركة زمنا طويلا الى بحث من بحوث الذهن قصاراه ترجيح نظرية على نظرية وتوضيح شبهة وارادة أو تصحيح غلطة خفية ، لأنها تفهم لتعرف كيف تعمل ، وتهتدى لتسلك الى الغاية التى تتحراها ولا تستريح الى السكون دونها .

وغير هذه الطريق : طريق النظريات ، كانت طريق جمال الدين الى «العمليات» التى تعيش مع صاحبها فى معترك الحياة ، وتعقب لها أثرا فى نفسه وفيما يحيط به من أحوال قومه ، وخلاصة الفارق بين الطريقتين هى خلاصة الفارق بين صاحب درس وصاحب رسالة ، وقد يلتقيان ولكنهما لا يتساويان .



وبعد ، فاننا فى صفحات هذه السيرة لا تتوخى ترتيبا يقيدنا بترتيب أرقام السنين فى التقويم ، لأننا نتكلم عن نغمة من نغمات الحياة العالية بأوصافها وملاحمها ، ولا نتكلم عن نبذة من الزمن بترتيب حوادثه وأرقامه . فمكان الحادث من هذه السيرة هو مكانه فى موضع الدلالة على جوانب تلك الشخصية

الحية ، ولا سيما جوانبها البارزة التى تنتظم من مبدأ العمر الى نهايته ، وأولها وأهمها هذا الجانب الذى نراه على الدوام كأنه يوحد بين مسألة التعليم ومسألة العمر كله فى سيرة هذا المصلح العظيم الذى سُمى بحق بالأستاذ الامام .

ولهذا تتناول فى هذا الفصل جملة من الحوادث التى تتابعت بعد لقاء الطالب محمد عبده بأستاذه جمال الدين ، ومنه ما كان الخلاف فيه بين التلميذ والأستاذ بعد ملازمة السنوات الطوال .



تولى التحرير فى الصحف فكان مدار مقالاته التى كتبها فيها جميعا على الدعوة الى التعليم ، والتميز بين التعليم النافع والتعليم العقيم الذى أدرك عقمه بالتجربة بعد التجربة من بواكير صباه .

ولم تمض سنوات بعد أول لقاء له بالسيد جمال الدين حتى جاشت البلاد بقلقل الثورة الأولى ، وكان الطالب الذى تخرج يومئذ من معهده للتدريس يلقي دروسه ويكتب مقالاته ويشارك زعماء الثورة فيوافقهم على أمور ويخالفهم على غيرها ، ومن أهم ما خالفهم عليه أن يهتموا بتعليم الأمة لتوكل اليها . حقوقها وهى أمينة عليها ، فان ما يمنحه سلطان الحاكم بأمره يسلبه سلطان الحاكم بأمره « وانما علينا - كما قال للزعيم عرابى - أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة

الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من المصلحة أن نفاجئ البلاد بأمر قبل أن نستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد ، فيفسد المال ويفضى الى الهلكة » .

وانتهت الثورة العراقية بنفيه الى بيروت فكان عمله فيها التعليم بالمدرسة السلطانية ومحاضرة الطلاب والمريدين فى منزله وفى المساجد المشهورة ، وكان الأستاذ الشرتونى صاحب المعجم الكبير المسمى بأقرب الموارد يقول عن دروسه هناك : انه يتكلم فيخرج النور من فيه .

وأذن له بالعودة الى مصر فلم يفارق بيروت الا بعد أن أودع آراءه فى اصلاح الأمة الاسلامية بالتعليم والتربية فى رسالتين أو « لائحتين » أرسل احدهما الى شيخ الاسلام بالآستانة ، وأرسل الثانية الى والى بيروت ليشرح فيها ما اهتدى اليه أثناء مقامه من وسائل اصلاح البلاد من طريق التعليم والتربية .

وقد اتبع أستاذه جمال الدين فى حملات الاصلاح من طريق السياسة وعلى أيدي الأمراء والملوك الذين توسموا فيهم صدق الرغبة فى استجابة الدعوة ، فلما بلغا بهذه الحملات المتدركة غاية مطافها ، عاد التلميذ يراجع أستاذه فيما هو أقوم وأجدى ، وقال له كما روى صاحب المنار :

« أرى أن تترك السياسة ونذهب الى مجهل من مجهل

الأرض لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الأذكىء السليمى الفطرة ، فنربهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم الى مقصدنا ، فاذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضى بضع سنين أخرى الا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد فى سبيل الاصلاح ، ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح . قال السيد لتليذه فى رواية صاحب المنار : « انما أنت مشبذ . نحن قد شرعنا فى العمل ولا بد من المضى فيه ، ما دما نرى منفذا » .

ولكنه اختلاف الفطرة والاستعداد بين هذين الامامين العظيمين : أحدهما خلق للتعليم والتهذيب والآخر خلق للدعوة والحركة فى مجال العمل السياسى والثورة « الأممية » . وظل المعلم المذهب على رأيه وعلى فطرته فى انتظار الفرصة الملائمة لأداء رسالته على حسب استعداده .

فلما عاد الى مصر كان فى مرجوه أن يسند اليه عمل من أعمال التدريس فى معاهده العليا التى لا يعوقه فيها عائق من التقاليد الموروثة عن الانتفاع ببرنامج الثقافة العصرية ، وأقرب هذه المعاهد اليه وأشبهها بعمله وبالرسالة التى أجمع العزم على أدائها هو معهد دار العلوم ، لأنه يجمع بين ثقافة الأزهر وثقافة العصر الحديث .

الا أن ولادة الأمر أوجسوا - على ما يظهر - من اسناد وظيفة التدريس فى دار العلوم الى رجل مثله فى إيمانه بقوة التعليم واقتداره على بث هذه القوة فى نفوس الناشئة من

«معلمى المستقبل ، ومنهم مئات يتولون تعليم أبناء القطر كله بعد سنوات وينشرون فى أنحائه بذور نهضة متشعبة الأطراف ، هى أخطر على ولاية الأمر من الثورة العرابية التى أخدموها وخيل اليهم أنهم استراحوا منها .

فأبعدوه عن وظائف التعليم واختاروا له وظيفة القضاء ، وهى وظيفة لوحظ فيها علمه بالشريعة ونزاهته فى الحكم ، وكفايته لتوجيه المحاكم الجديدة الى وجهتها الصالحة فى أوائل نشأتها ، ولكن لم تلاحظ فيها رغبته ولا كفايته للإصلاح من طريق التربية والتعليم ، وكان خليقا أن يقبلها لو أنه نظر الى مستقبله ولم ينظر الى مستقبل رسالته فى الإصلاح ، لأن درجات الارتقاء فيها ممهدة الى أرفعها وأعلاها فى مناصب الدولة ، ولم يكن للمعلم فى ذلك الحين مستقبل أرفع من مستقبل النظارة على مدرسة من المدارس الصغيرة ، لأن نظارة المدارس الثانوية والمدارس العليا كانت موقوفة يومئذ على الانجليز والأجانب ، ولم يكن ناظر المدرسة الابتدائية يرتقى الى درجته الا وهو على باب الاحالة الى المعاش . فلما حيل بينه وبين معاهد التعليم أسف لذلك وأوشك أن يستعفى ولاية الأمر من وظيفته القضائية ، لأنه — كما قال — جرب عمله فى التعليم وعلم أنه خلق له ولم يخلق « ليقول حكمت على هذا بوحكمت لذلك ... » .



ان الذى خلق للتعليم يعلم حيث شاء ، ويتعلم ما استطاع .
وقد كان القاضى « محمد عبده » معلما فى أحكامه كما روى عنه
الذين شهدوا جلساته ، وسمعوا كلماته التى كان يلقيها على
المتهمين وعلى الحاضرين فى الجلسة قبل النطق بحكم الادانة ،
وكانت له لازمة اشتهرت عنه بين زوار المحاكم قبل تلاوة
الحكم ، زعم بعضهم يومئذ أنها كانت خاصة بالأحكام
المشددة ، ونرى فيما نظن أنها من لوازم التأمل ومراجعة الفكر
عند كثير من المعممين أو المطربيين ، وهى زحزة العمامة أو
الطربوش الى الأمام بحركة لدية تتم على الاستغراق فى
التفكير ، وكانت تلازم القاضى محمد عبده ، ثم ظلت ملازمة له
بعد الانتقال من وظائف القضاء كما سمعت من أصحابه
وعشرائه ، ولا نظنها كانت خاصة بالأحكام المشددة دون غيرها ،
الا أن يكون تشديد الحكم مستدعيا للأناة والتأمل قبل النطق
به مراجعة للفكر وإبراء للذمة ، ولا نخالها على أية حال - الا
علامة من علامات التفكير واعادة النظر فيما يلقيه من النصائح
ويمليه من الأحكام .

وقد نظر فيما يتعلمه لوظيفته فعلم أنه بحاجة الى التوسع
فى مبادئ القانون الجنائى الذى تعمل به المحاكم ، لأن القانون
المدنى يجرى على أحكام الشريعة فى مسائل الموارث وحقوق
المال والمعاملة ، وعلم أن المراجع العربية لهذه القوانين لا تعطيه
كفايته من الاحاطة الواجبة بتلك المبادئ فى أصولها المأثورة
عند فلاسفة التشريع الغربيين ، فشرع فى تعلم اللغة الفرنسية

وثابر على تعلمها بعد انتقاله من وظائف القضاء ، ولم يسبق له درس هذه اللغة في غير كتب الهجاء التى أَلَم بها وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ثم شغلته عنها شواغل الثورة العرابية ، فلما عاد الى تعلمها لم يقنع بما وعاه منها للقراءة والفهم ولم تقعه صعوبة الكلام بلفظها الصحيح عن متابعة الدرس فى القاهرة وفى رحلاته الى البلاد الأوربية فحرص على حضور دروس العطلة الصيفية بجامعة جنيف أثناء رحلته الى سويسرة ، وكان يعنى على الخصوص باستماع محاضرات العلماء فى الآداب الأوربية وفلسفة التاريخ ، ولم يزل يقرأ ويستمتع حتى جاوز فى اللغة مرتبة الفهم والمطالعة الى مرتبة الافهام والكتابة .

قال الدكتور عثمان أمين فى كتابه عن الأستاذ الامام من سلسلة أعلام الاسلام : « لقد أجمع أصحاب الأستاذ الامام وخاصته على أنه أَتقن اللغة الفرنسية تحدثا وقراءة وفهماً على الرغم من قرب عهده بتعلمها . وهذا ما شهد به أخيرا الأستاذ لطفى السيد (باشا) حين ذكر أن الشيخ محمد عبده هو الذى كان يجلو لآخوانه المصريين ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنسي تين ؛ فى كتابه المشهور عن الذهن ، ونحن نعلم من جهة أخرى أن الأستاذ الامام قد أَملى فى مرض موته فصلا بالفرنساوية نشره المسيو دى جرقيل فى كتابه عن مصر الحديثة بعنوان : وصية سياسية للمرحوم المفتى الشيخ محمد عبده ، كما نعلم أن الشيخ قد ترجم عن الفرنسية كتاب التريية

للفيلسوف الانجليزى « هربرت سبنسر » ترجمة تدل على تمكنه
من تلك اللغة ... » .



وتأبى ملكة التعليم اذا تمكنت من صاحبها أن تتوارى ولها
مندوحة للبروز في حركة من حركات ذهنه أو شاغل من شواغل
حياته . فقد كان القاضى التلميذ يتلقى دروسه الأولى في اللغة
الفرنسية وكأنه يتعلم أستاذه فيها كيف يعلمه تلك الدروس
وكيف يختار له أجزاها وأنفعها لمثله ، وهداه الهام البديهة الى
منهج في تعليم اللغات للكبار على الخصوص لم يكن معلوما في
ذلك الحين ولم ينتشر قط في البلاد الغربية أو الشرفية قبل
وفاته ، ونعنى به منهج التعليم الذى أطلقوا عليه بعد ذلك اسم
المنهج الكلى أو منهج الابتداء بالكلام المجلل والانتهاى الى
التفاصيل المتفرعة عليه ، ويؤثر المعلمون على هذا المنهج أن يبدأ
قارئ اللغة بقراءة الجملة ثم يتعلم تفسيرها بفهم مفرداتها على
حدة ، ثم يلم بقواعدها الضرورية ، أو بأجروميته ونحوها
وصرفها وبلاغتها ، من توضيح موقع الكلمة بالنسبة الى
الكلمات الأخرى والى التراكيب التى تحتويها .

جاء المعلم وفى يده كتاب من كتب الأجرومية الأولية ،
فقال للمعلم : لا وقت عندى للابتداء من البداية فلنبداً من
حيث ننتهى ، وتناول قصة من قصص «اسكندر دumas» ليقرأ
عبارتها ويستمتع تصحيح المعلم لنطقه وتفسيره لمعانيها ... قال :

أما ماعدا ذلك فهو عملى ، والنحو يأتى فى أثناء العمل ، وعلى هذا المنهج أتم الكتاب وأتبعه بكتابين آخرين ، وتعود بعد الدرس أن يطالع ما قرأه على المعلم منفردا بصوت مرتفع ، ليسمع نطقه ويتذكر مواضع خطئه وتصحيح معلمه ، واختبر فى نفسه نجاح هذا المنهج فأوصى به من كان يعرفهم من طلاب اللغة الفرنسية ، ومنه استفاد الشاعر « حافظ إبراهيم » فوائده حسنة فى هذا الباب ، كما سمعت منه وهو يحدثنا عن محاولته الأولى لترجمة كتاب « البؤساء » .



ومثل هذا التمكن فى ملكة التعليم خليك أن يزيدنا بصرا بطبيعة هذه الملكة حيثما برزت لنا فى أعمال ذوى الاستعداد القطرى لتعليم الناس أفرادا كانوا أو جماعات ، فضلا عن نفعها لنا فى التبصير بترجمة الأستاذ الامام ، أو بما سميناه محور حياته وأردنا به ذلك المرجع النفسانى الذى نرجع اليه لنهتدى به الى بواعث نفسه ومقاصد سعيه واجتهاده . ويبدو من بروز هذه الملكة والخاصها على خواطر المستعدين لها وبوادر نفوسهم وأذهانهم أنها عبقرية خاصة من تلك العبقریات الروحية التى تخلق فى الانسان ومعهما حافظ لا يستريح من حوافز الغيرة على انجاز عملها والحماسة لتحقيق مقاصدها ، وشأنها فى ذلك شأن كل عبقرية موهوبة تطبع على أداء رسالتها فى عالم العقيدة والایمان أو فى عالم الفن والجمال . فلا يهدأ صاحب هذه

العبقرية أو يبلغ رسالته ولو صلت الأسماع عنه أو حالت الحوائل القاسرة بينه وبين من يستمع اليه . ومن كان مطبوعا على عبقرية التعليم فليس قصاراه من الافضاء بعلمه أن ينقل طائفة من المعلومات المحفوظة من رأسه الى رءوس غيره : تلك رسالة لا نفحة فيها من الروح ولا مدد لها من السليقة ، وهي أشبه بنقل الصفحات من نسخة الى نسخة تمر بالسمع أو تمر بالفكر — على الأكثر — ولا تسرى منه الى سرائر النفس ولا تتخطاه الى بواعث الحياة ، وهو عمل كعمل المأجور المسخر لارادة غيره ولا ارادة له ولا غيره عنده ولا اخلاص في تفهيم ما يلقيه في آذان مستمعيه ، وسواء عنده عملوا بما يعلمون أو لم يكن لهم عمل قط بعد فراغه من القاء تلك المعلومات وتقاضيه الأجر الذي سخره له ، كأنه مجبر عليه .

وعلى غير هذا من النقيض الى النقيض يعمل صاحب العبقرية المطبوعة على التعليم ، فانه يعلم ليدفع المتعلمين الى عمل ويستشيرهم الى غاية ، ويبث في نفوسهم من الحماسة مثل ما انطوى عليه في أعماق ضميره من الحماسة لعمله وغايته ، ولا مطمع له في أجر يناله منهم أو من سواهم بل هو يعطى الأجر ويجزله لو استطاع ، وليس بالسائق في طبعه أن يتمحل العلل لاعفاء نفسه من عناء عمله اذا توانى المتعلمون على يديه ولم يستجيبوا لدعوته بمثل حميته واخلاصه ، لأنه يحسب استجابتهم غاية له تعنيه قبل أن تعنيهم ، وان كان فيها غاية النفع لأولئك المتعلمين عليه .



وأكثر ما يكون هذا الباعث الوجداني في نفوس المعلمين المطبوعة خصلة من خصال النخوة الانسانية في كل ما تمثلت فيه من غوث الضيف والرثاء للذليل وكراهة الجهل المذل للمبتلين به من ضحايا الغفلة والغباء وصرعى الظلم والخديعة ، ولا يثير هذه النخوة شىء كما تثيرها عزة الظالم الخادع واستكائة الجاهل الغافل ، ولكنها نخوة ترتفع مع ارتفاع الهمم وتقوى مع قوة الطباع ، فلا تقنع بمحاربة الجهل فى واحد وآحاد وهى قادرة على محاربته فى جماعات وأقوام ، ولا تقصر الغوث على الدرس وهى قادرة على غوث للضعيف المفتقر اليه كيفما كان .

وأعمق ما تكون النخوة اذا كانت سجية موروثة تنتقل من الأجداد الى الآباء والأبناء ، كما رأيناها فى أسرة أستاذنا الامام منذ عرفت لهم أعمال ورويت عنهم أخبار .

فهم فى قرينتهم الصغيرة كرام يجودون بما عندهم ، ويأبون الضيم لأنفسهم ولن يلوذ بهم من جيرتهم ، وقد كان أكبر ذنوبهم عند الأقوياء أنهم يأوون اليهم طرداءهم المظلومين ويشدون أزرهم بمعونة رجالهم وبقوة السلاح اذا وجدوا السلاح الذى ينفعهم فى مقاومتهم ، ومن لم يستطع منهم أن يقاوم القوة بالقوة لم يصبر على الضيم فى بلده ، وآثر أن ينجو منه بكرامته وان ضيع بعده كل تراثه من آباءه ، غير هذا التراث المضنون به على الضياع .



قيل ان العبقري يستنزف من أسرته صفوة اللباب من خلائقها الحيوية أو ملكاتها الذهنية ، وقيل انه من أجل ذلك قلما ينبج الذرية من العباقرة أمثاله ، وان ذريته لا تزال عرضة لنقص العمر أو نقص التكوين ، وكل ما قيل من هذا القبيل فهو تشبيه على المجاز لا يخلو من المبالغة التي تعرض لكل تشبيه ، ولكنه كذلك لا يخلو من الصحة التي تؤيدها مشاهدات الواقع . ومن هذه المشاهدات أن طابع الأسرة المآثور عنها كثيرا ما يتجلى في عبقريها مكبرا مهيمنا منبعثا على جادته في غير هوادة ، وانه في انبعائه عصى على الكبح والتوقف دون قبلته التي ينساق اليها ، وكأنما هو غريزة من الغرائز النوعية يخلق للفرد ارادة نوع كامل ، يوشك ألا يملك معه ارادته الفردية في سبيل بقاء النوع وارتقائه .

وأخرى الخصال أن يورث في أسرة صاحب الترجمة هو تلك النخوة الانسانية في كل ما تمثلت فيه — كما أسلفنا — من غوث الضعيف والرتاء للذليل وكراهة الجهل المذل للمبتدلين به من ضحايا الغفلة والغباء ؛ ورثها نخوة انسان وأصبحت فيه نخوة معلم مطبوع على التعليم ، لأنه لم يملك سلاحا للنخوة أقوى من تعليم المغلوبين المستضعفين ، ولكنه لم يكن بالبداهة معطل النخوة فيما يملكه من أسبابها غير هذا السلاح الذي كان أنفذ سلاح في يديه ، لأن أعماله في اغاثة الملهوفين وانصاف المظلومين كادت أن تكون وحدها وظيفة حياة عامرة بالمآثر حافلة بالحسنات ، وسيأتي من بيان هذه المآثر والحسنات

ما يتسع له موضعه من هذا الكتاب ، ولكننا نوجزه اذا قلنا انه لم تسمع في حياته دعوة الى الغوث والاحسان تنفيسا عن المكروبين في فواجع هذا البلد أو اعانة للمعوزين من ضعفائه الا كان هو صاحب الدعوة أو كان في مقدمة الملبين لها والعاملين على نجاحها ودوام أثرها .

وكاتب هذه السطور قد سمع بمحمد عبده نصير المظلوم قبل أن يسمع بمحمد عبده المصلح العظيم .

سمعت في بلدتي بأقصى الصعيد ، وفي باكورة صباى ، بمآثرة من مآثر هذا القلب الكبير ، لم تكن الا مثلا واحدا من مئات المآثر التى سمعنا بها بعد ذلك حيث نزلنا من أقاليم هذا البلد ، ولا يزال الكثير منه معروفا مرويا في اقليمه ، وان لم يصل نبأه الى غير أهله .

شغلت بلدتي - أسوان - قضية كبيرة تقلبت بين محاكم الصعيد والعاصمة أكثر من عشر سنوات ، وأوشك الخصم القوى فيها أن يظفر بالحكم الأخير وأن يجرد خصمه الضعيف من حقه ، مستعزا عليه بقوة المال والجاه وسعة الحول والحيلة ، وقد شاعت الاشاعات التى تحققت بعد ذلك عن الرشوة المبدولة ، بألوف الجنيهات ، ثمنا لذلك الحكم الأخير الذى ينقضى به الأمر ولا يقبل المراجعة والاستئناف .

وقبل صدور الحكم بأيام يلتقى الخصم الضعيف بنائب بلدته في مجلس الشورى ، فيستمع منه لاشاعة الرشوة ويرجحها له بما علمه من توكيد أنصار الخصم القوى ومن قسم مغلف

أقسمه أمامه أقربهم اليه : ليصدرن الحكم كما أملاه صاحبهم
على — فلان باشا — وليسمن نبأه بعد أيام !

وكان نائب البلدة في مجلس الشورى يعرف الأستاذ الامام
من زمالته له في المجلس ، فاصطحب المسكين الى عين شمس ،
وترك صاحب القضية يسطها للأستاذ الامام بسداجته التي تنم
على الصدق الأليم والحسرة البالغة ، فلم يكدها هذا الرجل المثل
بشواغل وطنه الكبار يستمع الى كلمة المظلمة والرشوة حتى
اعتذر لضيوفه جميعا وأفرغ من وقته زهاء ساعتين للاصغاء الى
قصة هذه القضية منذ نشأت قبل عشرة أعوام ، وترك الرجل
يقول ويعيد كما يشاء على ديدن المظلوم الملهوف في سداجته
وابتهاله واضطراب نفسه بين خوفه وأمله ، فلم يتعجله ولم
يقتضب عليه لاجابة شرحه وتكراره ، ولم يدعه تلك الليلة الا
على وعد بأن يلقاه عند باب وزارة العدل في موعد افتتاح
الدواوين .

وفي اليوم التالي لم يذهب المفتى الى دار الافتاء ، بل توجه
توآ الى دار وزارة العدل وكلف الرئيس المسئول أن يبعث في
طلب « ملف القضية » من المحكمة ، فقضى اليوم يراجع أوراق
الملف مراجعة القاضي الخبير بأصالة الأسانيد وأساليب المراوغة
وعلامات الغرض والتمحل في التأجيل والتعجيل ، وأيقن
بصدق الدعوى وخطر الحكم المنتظر فيها ، فصنع ما لا يقوى
على صنعه غيره ، واستصدر الأمر باسناد رئاسة الدائرة الى
قاض آخر لا ترتقى الشبهة الى ذمته وعلمه ، وصدر الحكم

الأخير بالحق الذى يعرفه أهل البلدة جميعا ، فظل أبناؤها ينحدثون بهذه القضية كما يتحدث المؤمنون بكرامة القديسين ، وكان يوم وفاته رحمه الله مأتماً فى البلدة تبادل فيه الناس العزاء فى المساجد ، ونودى بنعيه على المآذن ، وتقرب فيه المحسنون بالذبائح والصدقات على جوانب الطرقات .

كتب قاسم أمين عن مروءة الأستاذ الامام بأسلوب القاضى الذى تعود أن يزن كلامه كما يزن أحكامه ، فقال فى رثائه يوم الأربعين :

« بلغت فيه طيبة النفس الى درجة تكاد تكون غير محدودة . كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد ، فيندفع اليه ويسعى الى كل نفع للغير عام أو خاص . كان ملجأ الفقراء واليتامى والمظلومين ، والمرفوتين والمصابين بأى مصيبة كانت ، واهل الأزهر الذين هم أكثر الناس احتياجا الى المساعدة لأنهم فى وسط المدنية الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم فى ميدان حياتنا الجديدة ، يبذل اليهم ماله ويسعى لهم عند ولادة الأمور بهمة لا تعرف الملل ، كأنما كان يسعى لأعز انسان لديه : يسعى مرة ومرتين وثلاثا الى أن يقضى حاجتهم وهم جميعهم فى نظره مستحقون ، سواء كانوا كذلك فى الحقيقة أم لا . بل كان يسعى الى صاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء اليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه فى ترويج عبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه يوما مدة حياته . ولا يصل الانسان الى هذا الخلق العظيم الا اذا ربى نفسه على أن تتغلب

على الغرائز القبيحة الملازمة للطبيعة البشرية وصار حاكما عليها يحاسبها على كل عمل أو نزعة أو فكرة أو خاطر مما يرد عليها . كان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة له مطلقا وأن التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في اصلاح فاعله .. » .

وفي هذا التأين يقول قاسم : « من يرى أن الحياة لهو وزين له أن يعيش ليأكل ويشرب ويسافر وينتقد أفكار الباحثين وعمل العاملين : أولئك لا يعلمون أن امام مصر كان محركا بقوة فوق الاعتيادية وأن عقله كان ملأنا بالفكر الى حد أنه كان لا يسعه كله ، الى حد أنه كان يفيض منه بالرغم ، وأن قلبه كان ملتهبا بحب وطنه فلايستريح الا وهو مشغول به وبسعادته وبمستقبله وانه كان مثل جسيح نوابغ الرجال لا يبالي بالألم الذى يأتية بسبب أمنيته التى كان يعزها ، بل كان يجد الألم فيها لذيذا كما يلتذ العاشق بما يقاسيه من العذاب فى هوى من يحبه ، وكم من مرة سمعته يؤكد بأنه صمم على أن لا يتدخل فى شيء من هذا القبيل ثم رأيتة فى الغد منغمسا فيه أكثر مما كان . ذلك لأنه كان بعكس ما يراه عموم المصريين فى أنفسهم عنده أمل لا يزعه شيء فى اصلاح أمتة .. » .

يقول قاسم هذا وربما كان هو — رحمه الله — أحد أصدقائه المشفقين الذين كانوا يكفكفونه أحيانا عن ارهاق نفسه بالجهد والمجاهدة كلما شعروا بحاجة الى الراحة والدعة وأوجسوا خيفة على صحته ، بل على حياته ، من عنت خصومه ومصاعب

الاصلاح فى بيئته ، مع فساد الزمن وغلبة الجهل والهوى على نفوس الغافلين المتهاونين ، فضلا عن المغرضين المتعمدين للاحباط والايذاء ، وهم فى ذلك الزمن وفى تلك البيئة كثيرون .

وسمعت من زعيمين عاصراه وعاشراه كلاما كالذى قاله قاسم فى تأيينه وذكر فيه وعده بالكف عن الجهد فيما يحاول من السعى العقيم والكفاح المعقد المقيم ثم عودته بعد قليل الى مثل ما كان فيه ، بل أشد مما كان فيه ... وأحد الزعيمين كانت له عليه جرأة الصديق الند وهو الزعيم سعد زغلول ، والآخر كان منه بمثابة الأخ الصغير فى بيت يحبه ويرعى له قدره وفضله ، وهو الزعيم محمد محمود ، وكلاهما اشترك معه فى بعض أعمال الاصلاح وأعمال الخير والاحسان ، وكان أولهما يصرفه صرفا عن بعض محاولاته التى كانت ديدنه الشاغل له فى أخريات عمله بوظيفة الافتاء ، فقال له من حوار مطول لا تثبته هنا بتفصيلاته : « أخشى أن يفسدك هؤلاء القوم قبل أن تصلحهم » وكان الآخر - محمد محمود رحمه الله - يعيد عليه قوله مشيرا الى الخديو عباس الثانى : « ان هذا القولى » يريد أن يقتلك ، فلا تمكنه من بغيته ، ويريد بالقولى نسبة الخديو عباس الى قولة موطن جده محمد على الكبير .

وموضع النظر فى كلام قاسم وصاحبيه أن الاصلاح لم يكن فى حياة هذا المصلح الغيور عملا من أعمال الارادة يدبره لنفسه كتدبير المرء لما ينفعه ويرىحه أو يعفيه من التعب والمشقة ، ولكنه كان باعثا نفسانيا مستحكما فى ذلك القلب الكبير يغلبه

على ارادته ويخلق له ارادة نوع كامل في بنية انسان واحد ،
وان يكن من أعظم بنى الانسان ... وذلك ما عناه قاسم بشغف
العاشق بما يؤله ويضنيه وعيناه بالعبقريّة المطبوعة التي تلخصها
كلمة « النخوة » وتدل سيرته وسيرة أهله على أنها خليفة
موروثة فيه ، وأنها أقوى بواعثه الى رسالة حياته ، وهى رسالة
التعليم .

ولنا أن نقول ان النخوة الانسانية في نطاقها الواسع هى
محور هذه الحياة فى نواحيها الكثيرة ، وان رسالة التعليم عنده
انما كانت فى صميمها رسالة خلقية قبل أن تتجه الى وجهتها
الفكرية ، فلم يكن يعنيه أن يعلم لينقل الى الناس « معلومات »
يجعلونها وكفى ، ولكنه كان يتعلم ليحفز الناس الى عمل
يتوانون عنه ، ويحملهم على خلق يجب اليهم ذلك العمل
ويسعدهم عليه .



ولعلنا لم نخطئ اذ بدأنا السيرة كلها بهذا التمهيد عن هذه
العبقريّة من ناحيتها الخلقية والفكرية ، فانها بمثابة الأساس الذى
تقوم عليه حوادث الترجمة منذ بدأ الأستاذ الامام حياته العاملة
فى نحو العشرين الى أن فارق الحياة فى نحو السادسة والخمسين ،
فأما حادث تردد فيه رأى المؤرخ وحكم الناقد فانما تقوم أصالته
فى هذه الحياة بمقدار ثبوته على ذلك الأساس .

مع جمال الدين

كان لقاء البشير جمال الدين الأفغانى أهم حادثة فى تربية الفتى الناشئ محمد عبده ، لأنه رده الى سجيته وأقامه على جادة العلم والعمل التى استقام عليها بعد ذلك طول حياته ، واستقل بها حسب استعداده وفطرته حتى استقل بها آخر الأمر عن طريق استاذة ، بعد أن فرقتهما الحوادث اضطرارا ووجب أن يعمل كل منهما على جادته ومنهاجه .

كان الفتى الناشئ (محمد عبده) قبل لقاء جمال الدين أشبه شئ بالطائر المغمى عليه قبل امتحان المدرسين له فى ضوء النهار للثبوت من سلوك مطاره الى غايته القصوى . ويقال إن هذا الطائر لا يزال بعد خروجه من الظلام يتلمس طريقه ارتفاعا وانحدارا ويستقبل الوجهة ثم ينحرف عنها حتى ينطلق من حيرته على ثقة ، فيعتدل الى الغاية التى ينويها ، فلا حيرة بعد ذلك ولا احجام عن تلك الغاية الى أقصاها . وكذلك كان محمد عبده بين الحيرة والاحجام قبل التقائه بجمال الدين :

صدمته الحياة العامة كما يصطدم بها كل شاب يخرج من معيشته فى الأسرة على المودة والعطف الى معيشة الكفاح بين الناس على سنتها من الرياء والأثرة وتنازع البقاء ، وكان

يشكو هذه الحال الى شيخه القروى من أخوال أبيه كما قال
في ترجمته : « فذكرت له اشمئزاضى من الناس وزهادتى في
معاشرتهم وثقلهم على نفسى اذا لقيتهم ، وبعدهم عن الحق
ونفرتهم منه اذا عرض عليهم ، فقال لى : هذا من أقوى الدواعى
الى ما حثتكَ عليه ، فلو كانوا جميعا هداة مهدين لما كانوا
فى حاجة اليك ، ثم أخذ يستصحبنى فى مجالس العامة ويفتح
الكلام فى الشئون المختلفة ويوجه الى الخطاب لأتكلم
فيتكلم الحاضرون فأجيبهم ، وانطلق فى القول على وجل
فى أول الأمر ، وما زال بى حتى وجد عندى شىء من الألفة مع
الناس والاستئناس بمكالمتهم ، وفى شوال من تلك السنة ودعنى
وبكى بكاء شديدا ومات فى السنة التالية » .

وفى هذه السنة — سنة ١٨٧١ — وفد السيد جمال الدين
الى القاهرة قادما من الآستانة ، فوجد الفتى الناشئ حيث تركه
شيخه القروى بين طريق العزلة وطريق العمل مع الناس ، ولكنه
حين مضى فى هذا الطريق يخطو خطواته الأولى فقد شيخه
الصوفى ولم يجد لعقله هاديا يعمل أمامه ويتجه ببصره المتطلع
الى غاية مداه ، لأنه كان يدرس علوم العقل على أساتذة
يحسنون شرح النظريات ويبسطون القول فى الشكوك والموانع
ثم لا ينتهون منها الى قبلة يستقيم عليها السالك على قدر جهده
فى طريقه المرسوم .

وكان جمال الدين قد مر بمثل هذا الدور فى مثل سنه : كان
قد زهد فى صحبة الناس فاعتزلهم وخرج من طريق العزلة الى

طريق العمل ، وكان يفهم أن الفناء في الله اعتزال للعالم فعاد يفهم أن الفناء في الله انما هو فناء في خلقه ، أو كما كان يقول لتلاميذه في رواية الشيخ عبد القادر المغربي : « أنا لا أفهم معنى لقولهم الفناء في الله ... وإنما الفناء يكون في خلق الله : تعليمهم وتنبيههم الى وسائل سعادتهم وما فيه خيرهم » .

وقد كتب عنه تلميذه المسيحي أديب اسحاق وهو في هذا الدور بين العزلة والعمل فقال : « انه تبخر في المنقول والمعقول وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء فداخله من ذلك بداءة بدء شيء من التصوف فاتقطع حيناً بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وادراك الحقيقة حتى صار له في القوم كثير من الأتباع والمريدين ، كل ذلك وهو دون العشرين » .

ولم يكن لجمال الدين أستاذ يجتذبه من حياة الخلوة والعزلة الى حياة العمل والجهاد ، ولكن الحوادث كانت لها صيحة في مسمعه أقوى من صيحة الامام المرشد ، فافتحم معركة الحياة لينصر فريقاً على فريق من أولياء الأمر في وطنه ، وانتصر جمال الدين للأمير محمد أعظم خان : « فشهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جرأة واستخفافاً بالموت وأقام في ذلك تسعة أعوام لا يرى الراحة ولا يستقر بمكان حتى دارت الدائرة على محمد أعظم خان فانصرف الأولياء عنه الا جمال الدين .. » .



حضر التلميذ على أستاذه دروساً نافعة في كتب المنطق والحكمة والتصوف وأصول الدين ، ولكن الدروس الروحية التي كانت تسرى من أحاديث هذا المصلح العظيم كانت أعظم وقعاً وأعمق أثراً من دروس الأوراق والأسفار ، ولم تكن شروحه للكتب التي كان يقرأها على تلاميذه معاني « فكرية » تستخرج من ألفاظها « القاموسية » على عادة الشراح الذين يقفون بالعبارات عند ألفاظها ومعانيها ، ولكنه - كما سمعنا من مريديه الذين عرفناهم - كان يشرح العبارة ليستخرج منها قوة حية تسرى إلى النفس فتحركها إلى العمل ، وكأنما الكلمات المشروحة على لسانه تلك المفاتيح الصغيرة التي تدار فتنبعث منها قوى من الكهرباء لا يستقر عليها قرار .

وخير الأساتذة ، على ما نعلم ، هو الأستاذ الذي ينبه في التلميذ ملكات ذهنه وضميره ويستجيش في قرارة طبعه غاية وسعه من الاجتهاد والهمة على حسب فطرته واستعداده ، فليس بخير الأساتذة من يجعل تلاميذه نسخاً منه تحكيه ولا تزيد من عندها شيئاً غير الاقتداء به والعمل على غرارهِ ، فهذه هي تربية التقليد والمحاكاة تصلح للذين خلقوا للاتباع ولا تصلح للذين خلقوا على نصيب من قدرة الاستقلال والاجتهاد .

وهكذا كانت تربية جمال الدين لمحمد عبده وهو يخطو خطواته الأولى على طريق العمل والاصلاح : انه لم يخلق فيه ملكة كانت معدومة فيه ، ولكنه رده إلى طبيعته العملية وعزز

فيه تلك الثقة التى لا غنى عنها لمن يتولى عظام الأمور وينهض الى الغاية العصية والمطلب البعيد .

ولم تكن الطبيعة العملية طارئاً جديداً على سليقة الفتى الذى شب عن الطوق وهو يركب الخيل ويحمل السلاح ويتمرس برياضة الفروسية .

ولم تكن الثقة بالنفس طارئاً جديداً على سليقة الطالب الناشئ الذى استقل برأيه فى الحكم على تعليم زمنه بالعقم والجمود ، ومن حوله ألوفاً المتعلمين والعلماء يتهمون أنفسهم ولا تهجس فى قلوبهم هاجسة من الشك فى صلاح ذلك التعليم ووجوب الصبر على مصاعبه وألغازه .

وقد لمح الأستاذ البصير ملامح تلك الثقة المكيئة فى نفس ذلك الطالب الصغير ، وكان يعجب لتلك الثقة المطبوعة التى لا تكلف فيها فيسأله مغتبطاً راضياً : قل لى بالله : أى أبناء الملوك أنت ؟

ولكن تربية جمال الدين وزنت تلك الثقة بمقدار رسالتها الكبرى التى تهيأت لها بنزعاتها وآمالها واقتدرت عليها بطموحها واستعدادها ، فلم تنهيهما ولم تنكص عنها حين علمت مداها ، وعلمت أنه المدى الذى لا سبيل الى الوفاء فيه قبل بلوغه ، وهو نهضة العالم الاسلامى بين مشارق الأرض ومغاربها : نهضة العالم الاسلامى فى وجه الدول العظمى ، بل فى وجه ملوكه وأمرائه المتآلبين عليه ، بل فى وجه أبنائه الكارهين للإصلاح كراهة الطفل المريض لمذاق الدواء .

وكانت خطة جمال الدين للإصلاح أن يبدأ بتأسيس دولة واحدة على الأقل صالحة لقيادة العالم الإسلامى كله فى معترك السياسة الدولية وفى تنفيذ برامج النهضة والهداية العملية .

وكانت هذه الخطة تنمة معقولة للفتاحة التى افتتح بها جمال الدين حياته وهو فى نحو العشرين ، لأنه افتتحها بالجهاد فى سبيل امارة يقيمها للأمير الذى آمن بصلاحه وحسن الرجاء فى ولايته ، فاذا خطر له أنه قادر على أعباء هذه الخطة حيث كان فى وطنه أو غير وطنه فهو خاطر ليس بالغريب على الرجل الذى بدأ بتلك الفتاحة فى مطلع شبابه .

ولكن الفتى الفلاح لم يستهول الغاية التى طسح اليها ربيب بيت الوزارة ، كيفما كانت الخطة التى تنتهى اليها .

ونرجع هنا الى سليقة التصوف عند الرجلين لنعرف منها سر هذا الاقدام فى أمور الممالك والعروش ، فان التصوف فى نبابه كفاء - بل أكبر من كفاء - لمواجهة سلطان المالكين وأرباب التيجان المتحكمين :

هسا طرفان من ملك ونسك ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
فان لم تملك الدنيا جميعا كما تهواة فاتركها جميعا

وألزم خلائق الصوفى المطبوع أنه يستخف بعظمة الدنيا وأن تهون عليه رهبتها ورغبتها فلا يهابها ولا يتهالك عليها ، وأزهد من الصوفى الذى لا يملك الدنيا ذلك الصوفى الذى لا تملكه الدنيا ولا يداخله الوجل ممن يملكونها .

وقد ثبت هذا الخلق من هذين الرجلين ثبات السليقة المتأصلة فيهما فلم يكن من عمل عادة متبوعة ولا من عمل تربية مكسوبة ، وكان جمال الدين يعث بحبات سبخته في حضرة السلطان عبد الحميد وينبهه رئيس الديوان الى قواعد التشريفة ، فيجيبه ساخرا : « مه يا هذا ... ان السلطان يلعب بحياة ثلاثين مليوناً من بنى آدم ، أفلا يلعب جمال الدين بثلاثين حبة من حبات الكهرباء » .

وكان الخديو عباس الثانى يشكو من مسلك محمد عبده فى حضرته ويقول : انه يدخل على كآته فرعون ! .. ويستمتع محمد عبده الى هذه الشكوى فلا يزيد على أن يقول : وأينا فرعون ؟ وقد نزل جمال الدين بمصر وهى على حال كنتلك الحال التى أخرجته من عزله لينصر أحد الأميرين على أخيه : اذ كان الفيورون على البلد يخشون العواقب عليه اذا طال فيه حكم اسماعيل ويفكرون فى خلعه باغراء الدول أو اغراء السلطان واسناد العرش الى خليفته محمد توفيق ، ولم يلبث جمال الدين أن تقدم الدعاة الى هذا الانقلاب فجمع الأنصار من مريديه والمعجبين به لمخاطبة وكلاء الدول باسم الأمة ، وصارحهم بذلك فاتخذوا من موافقته على خلع اسماعيل حجة عند حكوماتهم على موافقة الحزب المستنير فى مصر لهذه السياسة التى كانت تتردد فيها بين الوعيد والتنفيذ .

أما محمد عبده فقد كان عمله فى هذه الحركة أوفق لسنه وأقرب الى مزاجه الرياضى فى شبابه : كان على عزيمة صادقة

آن يزيل اسماعيل بيده ، ان لم ينزل عن العرش باختياره أو يصدر الأمر من السلطان بعزله .

وكانت خديعه الخديو توفيق — مع ضعفه عن انجاز وعوده — أول خيبة منى بها جمال الدين في خطته مع الأمراء والملوك ، فانه ظل يتودد الى جمال الدين وأنصاره بعد ارتقائه العرش ويؤكد له كلما لقيه أنه يعتمد عليه وانه « كل أمل في مصر » لتحقيق برامج الإصلاح ، ولكنه ضعف عن مقاومة الدول ، وبلغ من مطاوعته لهم انه كان يطلعهم على مطالب زعماء البلد منهم قبل النظر فيها « ومن كلام اخصائه الانجليز — وبينهم المؤرخ المشهور الفريد بتلر — انه كان يحتفل بمجاملتهم بين كبار موظفيه ، فيقضى الساعات يتكلم معهم باللغة الانجليزية التي لا يعرفها اولئك الموظفون ويذكر الاسماء بالحروف الهجائية في سياق أحاديثه ليخفى موضوع الكلام عن سامعيه الذين يعرفون أصحاب تلك الأسماء ، ويفضى في هذه الأحاديث بأخبار من المعلومات الخاصة والأوراق المحفوظة تتعلق بالأبيرة وعظماء البلاد » .

واذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه كما يقول أبو الطيب ، فلا جرم يساوره الشك من جانب جمال الدين ويتوقع منه أن يأنمر به كما ائتمر بأبيه ، ويغتنم الفرصة من حذر وكلاء الدول من دعوة جمال الدين الى اعلان الحقوق الوطنية ورفع الرقابة الأجنبية ، فيتفق معهم على اقصائه والاعراض عن حزبه ، ويمالته على ذلك رجال الحاشية الخديوية على سنة الحواشي في كل بلاط

يكره النصحاء ويجب الاستئثار بسبع الأمير وهواه ،
وينتهى الأمر بنفيه والتشهير به - تسويغا لتلك الفعلة - في
منشور بذىء لم يصب جمال الدين بمسبة ، ولكنه ارتد على
توفيق وحاشيته بالمسبة التى لا تمحى ، وغير عليهم قلوب
المخلصين من طلاب الإصلاح فداخلهم الشك الشديد فى امكان
الإصلاح على عهده بغير الثورة عليه .

وهذا بعض ما جاء فى ذلك المنشور البذىء « انه لما كان
الأمن والأمان والراحة والاطمئنان يتوقف عليها تمام العمران
فى جميع المسالك والبلدان ، ومن أنجح الأبواب وأصلح
الأسباب التى بها نجاح الممالك ، وسلوكها فى أقوم المسالك ،
قطع دابر المفسدين الساعين فيما يضر بالدنيا والدين ، ويكون
ذريعة للطائشين المتظاهرين بين الناس ، بمظهر الحرية بدون
أساس » .

ويتلو هذا كلام عن جماعة جمال الدين السرية يقولون فيه
انها جماعة « رئيسها شخص يدعى جمال الدين الأفغانى مطرود
من بلاده ثم من الآستانة العلية لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة
فى ديارنا المصرية ، وهذا من أكبر ما يغير الأفكار ، ويجب أن
يعامل مرتكبه بالتشديد والانكار ، فالتزمت هذه الحكومة
الحازمة أن تتخذ الطريق اللازمة ، وتستعمل السداد فى قطع
عرق هذا الفساد ، فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار
المصرية بأمر ديوان الداخلية ، ووجهته من طريق السويس الى
الأقطار الحجازية » .

ولم يذع خبر هذا المنشور الا بعد سفر جمال الدين على غير علم من أكثر أصحابه ومريديه ، وانما علموا به بعد اعلانه في الوقائع المصرية (عدد الحادى والثلاثين من شهر أغسطس سنة ١٨٧٩) .

وكان السيد جمال الدين قد مكث بمصر في هذه الزيارة الثانية نحو ثماني سنوات ، غرس فيها بذور نهضة مثمرة لم تشهد من ثمراتها الجنية ثمرة أنضج وأبقى من عزيمة تليذه وخليفته « محمد عبده » ففارق هذه الديار وهو يقول لمن يسألونه عن وصيته عليها : « حسبكم محمد عبده : حسبكم محمد عبده من وصى أمين » وطفق يذكره في رحلاته بعد ذلك فيكتفى من الدلالة عليه بوصف الأخ الصديق ، فيعلم المستمعون اليه من يعنيه .

ولم يتصل السيد بأحد من أصدقائه وأصحابه بمصر الى ما بعد انتهاء الثورة العراقية ، ومنهم خادمه الأمين العارف أبو تراب الذى كان يلازم السيد في حله وترحاله ملازمة ظله ، لأن السيد قضى تلك الفترة في رقابة الحكومة الهندية تارة ، وفي التنقل على غير قرار تارة أخرى . فلما رفعت عنه الرقابة شخص الى أوربة في شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ وكتب من بورت سعيد الى الشيخ محمد عبده خطابا يشكر له فيه رعايته لخادمه ويحمده « على البر والمعروف » ويطلب اليه ابلاغ سلامه وشكره لتلميذه ابراهيم اللقاني وسعد زغلول ، ويذكر له عنوانه بالعاصمة الانجليزية في ادارة جريدة الشرق والغرب ، أو عند

الشاعر المستشرق مستر « بلنت » صديق العراقيين .

وكان الشيخ محمد عبده يومئذ قد نفى الى بيروت فبادر بالجواب على السيد وكتب اليه كتابا نستغربه ، كما استغربه تلميذ الأستاذ الامام السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار ، لأنه لهج فيه بالتعظيم والتقديس لهجا لم نعهده في أسلوبه منذ صباه الى ختام حياته ، وغلا في اتضاعه والارتفاع بأستاذه غلوا يخالف المعهود من عرفانه لنفسه مع عرفانه لأعظم الناس قدرا عليه ، وفيه كما قال السيد رشيد « من الاغراق والغلو في السيد ما يستغرب صدورهم عنه وان كان من قبيل الشعرىات ، ويصفه نفسه بالتبع لأستاذه من الدعوى التى لم تعهد منه البتة » .

الا أن الأسلوب هنا هو الأسلوب الذى لم يتكرر في خطاب أو مقال للأستاذ الامام ، لأنه أسلوب الساعة التى لم تنكرر في حياته . وليست هى مما يتكرر في حياة أحد ، اذ كان كل ما يستوحيه في تلك الساعة شعورا مشبوبا يتوقد بحماسة الشباب وحماسة الثقة التى بقيت له في منفاه بعد ضياع الثقة بأقرب الأقربين وأولى الاخصاء بالصدق والوفاء ، ويذكيها من وجدانه الحى ذلك الشوق المتجدد الى أستاذه بعد انقطاع العهد وجلاء الغمة في أعقاب الثورة عن ذلك المصير الذى له ما بعده ، وقد يكون ما بعده جهادا آخر يرجى له من الفلاح ما لم يكتب للأستاذ ولا لتلميذه في جهادهما الأول . فان تكن في الأسلوب غراية تلحظ في سائر الأحوال فقد كان الأغرب أن يجرى به القلم في تلك الحال مجرى المتكرر المألوف .

ومن عبارات الخطاب التي لم تتكرر ولم تؤلف في سواه قوله عن نفسه وأستاذه : « ... كنت أظن أن قدرتي غير محدودة ، ومكنتي لا مبتوتة ولا مقدودة ، فإذا أنا من الأيام كل يوم في شأن جديد : تناولت القلم لأقدم اليك من روحى ما أنت به أعلم فلم أجد من نفسى سوى الأفكل^(١) والقلب الأشل ، واليد المرتعشة والفرائض المرتعدة ، والفكر الذاهب والعقل الغائب ، كأنك يا مولاي منحتني نوع القدرة للدلالة على قوة سلطانك فاستثيت منه ما يتعلق بالخطاب معك والتقدم الى مقامك الجليل . »



وفي هذا الخطاب تحدث التلميذ الى أستاذه عن مصير الجماعة التي تركها بمصر واستخلفه عليها في غيابه ، وأفاض في بيان ما يعنيه من أمر أصحابه ومريديه ولم يتحدث عن أمر نفسه لأنه اكتفى فيه بما كتبه زميله ابراهيم اللقاني الى السيد كسا علم منه . قال « انى يا مولاي لا أحدثك عن شيء مما أصابنا بعد فراقك . فقد تكفل ببيانه أخى العزيز ابراهيم افندى اللقاني سوى ما تركه في كتابه من انقلاب بعض القلوب من خاصتك وتحول أحوالهم بعد نزول ما نزل بك ، فقد تغلب أعوان الشر وأنصار السوء بقوة جاههم وشدة بأسهم ، فأرغموا العقول على اعتقاد بالمحال ، وألجأوها الى التصديق

(١) الأفكل : الرعدة - يقال أخذه أفكل ، اذا ارتعد من خوف .

بما لا يقال ، حتى انهم غيروا قلب دولتلو رياض باشا عليك وعلى
تلامذتك الصادقين أياما معدودة ركن فيها للعمل بالشدة
والأخذ ببادرة الحدة ، لكن لم يلبث أن وصلنا اليه وجلوت
الأمر عليك ، وكشفت له ما أغمض من الحقيقة حتى زال ما لبس
المبتلون وهكذا ضمنت الى كل من كان ينتسب اليك
صادقا في الاتساب أو كاذبا ، حتى أنى لم أتأخر عن مساعدة
أولئك الأشقياء الأذنياء وأمثالهم من اللئام ، تحسينا للظن
وايثارا لجانب العفو ، فأصلحت لهم القلوب ، وفسحت لهم
من الصدور ، وفتحت لهم أبواب التقدم الى المنافع الغزيرة
لكنهم لم يرعوا ودا ولم يحفظوا عهدا ، ولا حاجة الآن الى
ايضاح ما صدر عنهم خيانة ولؤما ، وألفت لحبك ممن حرم
التشرف بلقائك قبلا ليس بالقليل ، يتجسسون قدرك ويعرفون
لك فضلك ، وكنا واخواننا كما شرح لك ابراهيم افندى اللقاني
.... ولسيرنا في تلك الحوادث نبأ طويل اذا أردت يا مولاي
أن أقدم اليك به تاريخا ربما يكون مفيدا فأنا رهين الإشارة ،
ونحن الآن في مدينة بيروت نقضى بها مدة ثلاث سنوات ،
لا لذنوب جنينا ولا جرم اقترفناه فما نحن سالكون في
سنتك وعلى سنتك ولا نزال الى انقضاء الآجال ، ولولا أطفال
لنا رضع ، ونساء لنا طوع ، أيينا لهم الذل ، وأنقنا لهم الضيم ،
فأتينا بهم هنا الى حيث أقمنا . لكنك أول من تلقاك في مدينة
باريس لأسعد بالاقامة في خدمتك ... ولا أتكدر مما أشرت
اليه في كتابك الى أبى تراب حيث طعنت في ثقتك بالناس .

أجسعين وبالغت حتى سحبت الطعن الىّ والى ابراهيم افندى
... أما اختلال ثقتك بالدواهي والبلايا فقد صادف محلا لمن
نقضوا عهدك وحالفوا عدوك ، فاستبقوه للوجود وأنت
موجود ... » .



ولا نزيد فى الاقتباس من هذا الخطاب على ما آوردناه من
هذه الفقرات الضرورية لجلاء الموقف كله وجلاء الموقف -
خاصة - بين هذين الرجلين فى أعقاب الثورة العراقية ، فجملة
ما يقال فى هذا الموقف انه موقف فتنة عمياء تلتبس خفاياها على
المقيم بين ظهرائها فضلا عن المغترب البعيد عن ظواهرها
وبواطنها ، محجوبا بحجاب الرقابة الكثيف عن المباح والمحظور
من أخبارها ، ولولا ذلك لما التبست الحقائق على قلب ذلك
المصلح العظيم ، فأوشك أن ييأس من الناس كافة على غير
المعهود من شيمته وشيم الدعاة المصلحين أجمعين .

ونحن لا نعرف الآن بيانا وافيا عن أسماء أولئك الأصحاب
والأنصار الذين تركهم جمال الدين بعده فى الديار المصرية ،
فانه كان - أثناء مقامه بها - قد برىء من طائفة منهم دخلوا
معه فى المحفل الماسونى الذى انضوى اليه السيد على أمل فى
مناصرة أعضائه الشرقيين والأوروبيين على دعوته العامة ،
تصديقا لما شاع عن مزاعم الماسون أنهم ينتصرون للحرية
الانسانية ، ولا يتقادون لدولهم وحكوماتهم فى سياستها الشرقية،

فلما تبين بطلان هذه المزاعم نفّض يديه من المحافل عامة وممن بقى على الولاء لها فى ذلك المحفل وفى غيره ، ولم يزل يحتفظ بأسماء زملائه الباقين على ولائه ، وهم الذين سماهم ولّاه الأمر بجماعته السرية فى منشور نفيه ، ونحسبه لم يكتف أسمائهم الا حماية لهم من كيد وكلاء الدول وجواسيس الحكومة ، وتمكيننا لهم من العمل مع اخوانهم بآمن من أعين الرقابة وحبائل الاغراء والدسيسة . وقد بقيت من هؤلاء الأولياء المخلصين بقية لم تعلن أسمائهم لذلك السبب ، ولكنهم على الأرجح هم الفئة التى تألف منها فرع جماعة « العروة الوثقى » بالديار المصرية ، وهى الجماعة التى أصدرت صحيفتها فى باريس بعد انتقال الشيخ محمد عبده اليها .

فان الشيخ قد عول على اللحاق بأستاذه فى باريس بعد أن أقام بمدينة بيروت عاما أو أكثر من عام ، ولحق بأستاذه لاصدار صحيفة سياسية تشن الحملة على الاستعمار ، وتعمل لاثارة الشعوب المغلوبة عليه ، وكانت مجازفة من الشيخ لم يكثرث لعواقبها الوبيلة عليه وعلى ذويه ، ومنها فراق اطفاله الصغار وإطالة أجل النفى عن بلاده من ثلاث سنوات كادت تنقضى الى غير نهاية موقوته ، مع المعيشة المهددة بغوائل الفاقة والمكيدة فى ديار الغربة التى تجمعها عصبية المنفعة على كل من يكافح الاستعمار ولو فى بلاد غير بلاده .

ويتلخص برنامج العروة الوثقى فى مبدأ عام ينطوى على مبادئ كثيرة : وهو حرب الاستعمار بكل وسيلة مستطاعة ،

ومن تلك الوسائل تحريض المحكومين على حكوماتهم الأجنبية ،
وازالة أسباب الخلاف بين الدول الاسلامية لسد الثغرات التي
يتسلل منها المستعمر بين تلك الدول لتاليب بعضها على بعض
وتسخيرها جميعا لخدمته كما حدث غير مرة في طريق الهند على
علم من جمال الدين بدخائل هذه السياسة التقليدية ، ومنها
ضم الصفوف الوطنية حيث يعيش المسلمون مع غير المسلمين ،
وهو مبدا تأسست عليه دعوة جمال الدين قبل نفيه ، ومن أجله
أنشأ المحفل الماسونى الذى أنشأه بمصر للاشتراك بين أتباع
الديانات جميعا فى قضية الحرية ، ولم يزل لسان حاله فى
الصحافة قبل النفى وبعده أديبا مسيحيا كاثوليكي المذهب هو
« أديب اسحق » الذى ثبت على هذا المبدأ الى يوم وفاته .

وقد كانت صحيفة « العروة الوثقى » احدى وسائل
الجماعة ولم تكن هى وسيلتها الوحيدة ولا وسيلتها الكبرى ،
لأن الحكيمين لم ينقطعا أثناء مقامهما بباريس عن الاتصال سرا
وجهرا بأنحاء العالم الاسلامى ولا بمراجع السياسة الفعالة فى
عواصمها المشهورة . ومن ذلك أن الجماعة أوفدت الشيخ محمد
عبده الى لندن لاثارة المسألة المصرية بحذافيرها أثناء قيام
« المهدي » بثورته فى السودان ، وكان زبانية الاستعمار -
كعادتهم - يخيفون المصريين من مقاصد المهدي ويشيعون عن
« مخابراتهم السرية » أنه ينوى غزو وادى النيل كله ، وأن
الحكومة المصرية لا تقوى على صدّه بغير المعونة البريطانية ،
فلما سئل الشيخ محمد عبده فى حديث جرى بينه وبين مندوب

صحيفة « البال مال غازيت » عن هذا الخطر المزعوم قال :
« لا خطر على مصر من حركة المهدي : انما الخطر على مصر من
وجودكم أنتم فيها ، وانكم اذا غادرتهم مصر فالمهدي لن يرغب
في الهجوم عليها ، ولن يكون في هجومه أدنى خطر ، وهو الآن
محبوب من الشعب ، لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء
الأوربي ، وسينضمون اليه عند قدومه » .

وقد نجحت دعاية الشيخ في العاصمة الانجليزية ورجحت
هناك جانب الحزب الذي كان يدعو الى اخلاء السودان ، وتقرر
هذا الاخلاء ، بل أعدت المعاهدة التي يتفق عليها الطرفان
لتسوية هذه القضية ، وأوشكت أن تبرم وتوضع موضع التنفيذ
لولا ورود الأنباء بموت المهدي ، واستعداد خلفائه للهجوم على
الحدود المصرية .

ولقد جرى هذا الحديث في خريف سنة ١٨٨٤ ولم يبق من
المدة الموقوتة لنفيه غير شهور ، ولكنه سئل عن الحديو توفيق
في مطلع الحديث ، فلم يبال أن ينحى عليه وأن يصرح برأى
الوطنيين فيه ، وقال في غير موارد : « ان توفيق باشا أساء
الينا أبلغ اساءة ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله انضم
الى أعدائنا في قتالنا لا نشعر ازاءه بأقل احترام . لكنه اذا ندم
على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم فربما غفرنا له سيئاته
... اننا لا نريد خونة وجوهمهم مصرية ، وقلوبهم انجليزية » .

وتبدو من هذا التصريح القاطع نية البقاء حيث كان خارج
القطر لمواصلة الجهاد مع أستاذه ، لأنه قطع بيده كل أمل له عند

صاحب السلطة الشرعية وهو الخديو ، وأصحاب السلطة الفعلية وهم المحتلون .



على أن الحكيمين قد بقيا معاً في القارة الأوروبية زمناً يسيراً يعملان بين باريس ولندن في مراقبة المسائل الشرقية عند نظرها في دوائر العاصمتين أو الكتابة عنها في الصحف السياسية ، وكانا قد اضطرا الى تعطيل صحيفة العروة الوثقى ، ولما ينقض على صدورها أكثر من ثمانية شهور خلال سنة (١٣٠١ هجرية و ١٨٨٤ ميلادية) ظهر في أثنائها ثمانية عشر عدداً ، ثم احتجبت على كره من الأستاذين لأنها صودرت في جميع البلاد الاسلامية واتفقت على مصادرتها حكومات الدول الأجنبية وحكومات الملوك والأمراء الشرقيين لأنها كانت تحارب الحكم الأجنبي بجميع مساوئه كما كانت تحارب استبداد الحاكم الوطني وفساد أعوانه ورجاله ، وكانت تبديء القول وتعيده في الانحاء على رؤساء الأمم المستعبدة من أبنائها لأن استعباد هذه الأمم إنما يكون بقوة رؤسائها ، وربما كان من أسباب تعطيل الصحيفة أنها كانت تتخذ في البلاد التي تصل اليها دليلاً على أعضاء الجمعية الذين يتلقون أعدادها ويتولون توزيعها ، فحيثما وصلت الأعداد مجموعة الى جهة من الجهات فهناك الشبهة فيمن تصل اليه ، ومن وراء الشبهة مصادرة الدولة ومتابعة التضييق والارهاق حيث

لا عاصم من القانون ولا حماية من سلطان الرأى العام المكبوت ،
ان لم يكن محجوبا عن الأخبار العامة بالكتمان والسكوت .

ولبت جمال الدين قليلا يحاول في عواصم الغرب محاولاته
السياسية على خطته المعهودة بغير كبير جدوى ، ثم بدا له أن
يجرب هذه المحاولات من غير هذه الناحية ، فأزمع الرحلة الى
عاصمة القياصرة وهو ينوى أن يستخدم مقامه فيها لأغراض
نارته : اولها رفع الظلم عن الرعايا المسلمين وتمكينهم من حريتهم
الدينية على قدر المستطاع ، والغرض الثانى أن يكف من عداوة
الدولة الروسية التقليدية لدولة الخلافة ويرجو ألا يقع منها
عدوان جديد فى أثناء مقامه بعاصمتها ، والغرض الثالث هو
الانتفاع بالمنافسة القديمة بين الروس والانجليز فى تحريك المسائل
الشرقية بجملتها ، ولا سيما مسائل الأمم التى على طريق الهند
من مصر الى فارس الى بلاده الأفغانية .

أما الشيخ محمد عبده فقد عاد الى بيروت وهو يزداد ايمانا
بعقم المحاولات السياسية ، وضعف الأمل فى الملوك والأمراء ،
ووجوب التعويل بعد هذه المحاولات العقيمة على الأمم
دون غيرها ، وحصر الأمل كله فى اعداد هذه الأمم للنهضة
والمقاومة بعدة العلم الصحيح والتربية الاجتماعية الصالحة ،
وقد أبرأ ذمته وأعطى سياسة أستاذة كل حقها من الرعاية
والاخلاص ، ولكنه اتخذ من الأرزاء التى ابتلى بها أستاذة على
أيدي الأمراء والملوك حجة جديدة على ضعف الأمل فيهم ،
ووجوب التحول بالجهود الى أممهم ، فقد شهر به خديو مصر

ونفاه ، وعذبه شاه ايران وأهانه وطرده من بلاده على شر حال ،
وخيب راجوات الهند رجاءه وأعرضوا عنه مجاملة للسادة
المستعمرين ، واعتقله السلطان العثماني في قفص من الذهب ،
كما قال عنه بعض المعجبين به من المستشرقين ، ولم يبق أمامهما
أحد غير هؤلاء ينوطان به الرجاء ويشدان اليه الرحال ، فمن
صيانة الجهد عن الضياع أن يتوقف هذا الجهد من هذا الجانب
وينصرف الى ما هو أصلح وأجدى .

وظل الشيخ محمد عبده على هذا الرأي يزداد إيمانا به يوما
بعد يوم ، ويضيف اليه من تجاربه مع الأمراء والرؤساء كل يوم
ما يعززه تعزيزاً لا سبيل فيه الى الشك عنده . وقد كان يقول
لتلاميذه الفقهاء والأدباء من أمثال العالم الديني السيد « رشيد
رضا » والشاعر الوطني « حافظ ابراهيم » ان السياسة ضيعت
علينا أضعاف ما أفادتنا و « ان السيد جمال الدين كان صاحب
اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الاسلام
أكبر فائدة . وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن تترك
السياسة ونذهب الى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ، ونعلم
ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا ، فلا تمضي عشر سنين
الا ويكون عندنا عدد من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم
والسير في الأرض لنشر الاصلاح المطلوب ، فينتشر أحسن
الانتشار ، فقال : انما أنت مشيط ^(١) » .



(١) صفحة ٨٩٤ من تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول لصاحب المنار .

وأراد التلميذ الوفي بعد عودته الى القاهرة واستقرار
أستاذة بالآستانة أن يعاود الكرة ، ويتلطف في الإشارة الى
السيد بما تقضى به الحيلة في مقره المضطرب بين دسائس الحاشية
المتربصين ، ومكائد الحساد المنافسين ، وغدرات الوزراء
والسلاطين .. فجاءه الرد عنيفا غاية العنف من السيد يقول فيه :
انك « تكتب لى ولا تمضى وتعقد الألغاز .. من أعدائي ؟ وما
الكلاب كثرت أو قلت ؟ ... فكن فيلسوفا يرى العالم ألعوبة ،
ولا تكن صبيا هلوعا » .

ثم يقول عن رسالة أخرى : « ان الرسالة ما وصلت ولا
بينت لنا موضعها وجلا منك ، قوى الله قلبك » .

وقد أمسك الشيخ محمد عبده بعد ذلك عن الكتابة الى
السيد في الآستانة ، لأن الرسائل لا تصل أحيانا ، وما يصل منها
في القليل من الأحيان تراقبه الشرطة وترفع خبره الى المراجع
العليا ، ولا حيلة في صراحة القول مع ضررها المحقق بالمرسل
اليه دون المرسل ، ولا حيلة كذلك في التورية لأن السيد على
عادته من الجرأة البالغة يحسبها هلعا صبيانيا ، ويؤنب الكاتب
عليها ذلك التأنيب الحكيم .

ونرى من وفاء البحث أن تتم هذا الفصل بالنظر في موضع
التساؤل من هذه الفترة في علاقة الأستاذين الحكيمين على رأى
بعض المؤرخين المعاصرين ، كالأستاذ عبد الرحمن الرافعى فيما
تناول به سيرة الأستاذ الامام من تاريخ الثورة العرابية ... فقد
كتب الينا أديب علم أننا نكتب سيرة الأستاذ الامام فاستحلفنا

ألا ننسى هذه المسألة في موضعها من السيرة وقال : « ومما أرجوه أن تناقشوا ما جاء في كتاب « الثورة العرابية » تأليف الأستاذ عبد الرحمن الرافعي ، بالصفحتين ٥٤٢ و ٥٤٣ وهو :

« ونقطة الضعف في شخصيته — أى شخصية الأستاذ الامام — هى تخلفه عن الكفاح السياسى واختلافه فى هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين الأفغانى ، وقد بدأ انقطاعه عنه منذ عودته الى مصر سنة ١٨٨٩ ، فترك أستاذه يعانى متاعب الكفاح السياسى وآلامه ومرارته ، وكان من قبل عضده وساعده الأيمن . وانك لتلمح تراخى الصلات بينهما ، حتى الصلات الشخصية منذ أن عاد الى مصر حتى وفاة السيد جمال الدين من قراءة منتخبات الأستاذ الامام . فانك لا تجد فيها رسالة واحدة كتبها الى السيد فى محنته ومنفاه . بل ان جمال الدين توفى سنة ١٨٩٧ فلا تجد للأستاذ الامام كلمة فى رثاء أستاذه الروحى والفلسفى ، وزميل جهاده فى العروة الوثقى . وهذه الناحية هى أثر من آثار الاحتلال فى أخلاق الأمة ونفسياتها .

ولا حاجة الى القول — بعد البيان المتقدم — بأن هذا النقد أثر من آثار الاسراع فى المؤاخذة لغير سبب يوجبها ولا حاجة تسندها ، فما كان فى الأمر من شىء يوصف بالضعف على معنى من معانيه ، لأن الضعف انما يكون حذرا من ضياع منفعة أو خوفا من وقوع ضرر ، ولم يكن فى الكتابة الى السيد محذور على الكاتب يتقيه ، وانما المحذور كله على السيد أن يصيبه من القوم ما هو فى غنى عن احتماله ، ويأبى هو أن يسميه خطرا

يتوقاه . ولا نظن المؤرخ الفاضل كان يريد من الأستاذ الامام أن يتلقى بعد كل مراسلة تقريرا كذلك التقريع يرمى فيه بالوجل والهلع وينهى فيه عن تصوير الخطر ولو بالتلميح اليه . وقد كان جمال الدين رضوان الله عليه في دار خلوده يأبى أن يحسب نفسه سجيناً مرغماً على البقاء حيث كان بضيافة السلطان فانه بقى هنالك بعد أن سُدَّت في وجهه مسالك البلاد ، وسد هو أمام نفسه ما كان مفتوحاً بين يديه ، ولو أنه شاء الترحل عن الآستانة لما تعذر عليه ذلك ، بل حدث مرة أنه همَّ بالترحل منها وانتقل الى مكان تحميه السيطرة الأجنبية ، ثم لم يلبث أن غادره وعاد الى داره تلبية لرجاء السلطان ، وأثفة له أن يذل أمام أعدائه في عاصمة ملكه .

ويستطيع المؤرخ الفاضل أن يعلم لو شاء ان الأستاذ الامام قد أفاض في ترجمة السيد جمال الدين في تصديره لترجمة الرد على الدهريين ، ولكن الأستاذ الامام شغل عن كتابة سيرته هو — أى سيرة محمد عبده بقلمه — مع الحاجة اليها لدفع مفتريات الخصوم عليه . وما أكثر تلك المفتريات عليه في حياته وبعد مماته ! وان في بعض ما كتبه منها لتنويرها — أشرف التنويه — بفضل جمال الدين عليه ، ولا يطلب من تلميذ بلغ أوجه من المكانة في العالم أن يعترف لأستاذ له اعترافاً أكرم وأرفع من قول محمد عبده عن جمال الدين : ان ميراثه منه أقدس من ميراثه الأبوى ، لأنه ميراث في الروح يجمعه بصفوة الرسل والقديسين .

وبعد هذا الاستطراد العارض في موضعه نعود فنقول انه لم يقاطع جمال الدين يوم كانت صحبته له تنفيه نفى الأبد عن أهله ووطنه ، وقد عاد الى بيروت وهو في حكم المنفى عن مصر مدى الحياة ، ولكنه خرج منها بأعجوبة من أعاجيب السياسة تضدق عندنا تجارب الشيخ الحكيم للفضل السياسى الذى يحسن فيه صاحبه وهو ينوى أن يسىء . فقد توسط له فى العودة الى مصر اثنان هما : الغازى أحمد مختار باشا وكيل السلطان بالقاهرة ، والأميرة نازلى فاضل وريثة البيت المنافس لبيت اسماعيل من فروع الأسرة الخديوية ، ومركزه الاستانة . ذلك فضل باطنه الذى لا خفاء به أن الرجل أقصى من بيروت بطلب خفى من السلطان العثمانى ، ليأمن عاقبة دعوته الى الاصلاح والحرية فى احدى عواصم الدولة العثمانية والبلاد العربية ، ولولا ذلك ما جاءت الوساطة — من كلا طرفيها — من هذا الطريق .

مع الثورة العربية

كان الشيخ محمد عبده ثائرا ولكنه لم يكن عرابيا ، لأنه كان على خلاف مع الزعيم أحمد عرابي في برنامج العمل ، ولم يجمع العزم على تأييد العرايين الا لتوحيد الصفوف في وجه الاحتلال الأجنبي ، بعد التجاء الحـديـو توفيق الى الدولة البريطانية .

كان يؤيد الثورة في أمرين : « أولهما » تنبيه الرأي العام وجمع كلمته للمطالبة برفع المظالم واصلاح نظام الحكم واسناد المناصب الكبرى ووظائف الحكومة عامة الى الوطنيين ، « وثانيهما » وهو أحوج الى الوقت والأناة هو التعويل على نهوض الأمة واقامة نهضتها على أسس التربية والتعليم ، واعدادها للحكم النيابي المستقل برغبتها الصادقة وقدرتها على صيائه من عبث الولاة والمتسلطين ، لأنه — كما تقدم — كان سيء الظن بالنظم التي تأتي من جانب الملوك والأمراء بعد تجربة هذه النظم في سائر البلاد الشرقية ، ولا فرق عنده بين المجالس النيابية وبين دواوين الحكومة اذا لم تكن للأمة قدرة على حماية مجالسها .

الا أنه كان يخالف زعماء الثورة في اتباع الخطة التي تؤدي

الى الشطط وتفتح الباب للتدخل العسكرى من جانب الدول الأجنبية .

وكان يؤيد الحديو فى سعيه الى الاستقلال عن رقابة الدولتين - انجلترا وفرنسا - ولكنه كان ينكر عليه تفاقه فى اتباع هذه السياسة واستخدامها لتعزيز سلطته ، والرجوع بسياسة القصر الى مثل ما كانت عليه فى عهد أبيه اسماعيل وعهود أسلافه من قبله .

وكان يؤيد وزارة رياض باشا فى برنامج الاصلاح ولا سيما رفع السخرة وتحريم الجلد « أو الكرباج » والتشديد فى محاسبة المديرين على سوء المعاملة ، ويؤيده أكبر التأييد فى توسيع نطاق التعليم وتشجيع العاملين على نشر الثقافة من علماء هذا البلد أو العلماء الوافدين اليه من الأقطار الشرقية .

ولكنه كان يأخذ عليه أن شهوة الحكم غلبته على مشيئته فلم يعتزل الوزارة حين وجب اعتزالها .

وكان يؤيد الشكوى العامة ويشارك فيها بقلمه ولسانه . ولكنه كان يعيب على بعض الشاكين أنهم يمزجون بين الشكوى العامة وبين شكواهم الصغيرة من قبيل فوات الوظائف والعلاوات ورفض المطالب والشفاعات . وقد كان بعض هؤلاء ينقم على الوزارة خير أعمالها وأجدره بالمؤازرة والثناء : وهو رفع السخرة وتحريم الكرباج .. لأن مصالحهم فى زراعة أرضهم والانتفاع بموارد الرى فى جوارهم كانت تقوم على تسخير الفلاحين وتخوينهم بالضرب وسوء المعاملة بموافقة المديرين

وأعوانهم ، وقد جلبت الوزارة عليها سخط العلية من أصحاب الأموال بتقرير الضريبة التى تحصل للاتفاق على تحسين الصحة العامة وتدير وسائل العلاج على الأصول الطبية ، ولم تكن أمثال هذه الشكاوى بالقليلة بين أصوات الشكاوى التى ترتفع باسم الإصلاح ، ومن ورائها أشباه هذه الأغراض واللبانات .

ولهذه الشوائب التى امتزجت بالحركات العامة فى ذلك الحين ، كما تمتاز بها فى كل زمن ، لم يتيسر لذلك العقل الناقد أن يختار له حزبا بين الأحزاب يؤيده كل التأيد ويخذل ما عداه كل الخذلان ، ولم يكن متحيزا فى ثورته الى فريق دون فريق ، الا حين بدرت بوادر الاحتلال الأجنبى بمشايعة الخديو وحاشيته ووجب أن تتفق الأمة فريقا واحدا على مقاومته . فأقدم على مواجهة الخطر الأكبر ولم يحجم لحظة عن مناصرة ذلك الفريق .

أما الوجهة التى استقبلها بكل قلبه ومنحها كل وقته ووقف جهوده كلها على العمل لها واقناع غيره بفضلها ، فتلك هى الوجهة التى خلق لها بالفطرة ورجحتها عنده التجربة بعد التجربة ، وهى ايقاظ حمية الرأى العام للمطالبة برفع المظالم واصلاح أداة الحكم ، وانهاض الأمة على أساس قويم من التربية الاجتماعية ونشر التعليم .

وكان قبل استفحال الخطب يلقي زعماء الثورة وأصحاب الرأى فيها ليقنعهم بفضل هذه الخطة ويحذرهم من عواقب الشطط بالدعوة الوطنية الى ما وراء الغاية المأمونة ، وصرح لهم فى بعض هذه الأحاديث بما يخشاه من سوء العاقبة كما قال

في بيت طلبة عصمت باشا قائد الاسكندرية : « ان هذا الشغب قد يجر الى البلاد احتلا أجنبيا يستدعى تسجيل اللعنة بسببه الى يوم القيامة » .

وانصرفوا في ذلك اليوم والزعيم أحمد عرابي يقول مبتسما :
« أبذل جهدي في ألا أكون مورد هذه اللعنة » .

وقد بسط الأستاذ الامام آراء الزعماء وآراءه يومئذ في تاريخه للثورة العربية ، وسمعنا كثيرا من تفصيلاتها على السنة شهودها الثقات ، ويوافقه تمام الموافقة ما سمعنا صديقنا الأستاذ المازني ونقله عن والده حيث قال من كتابه عن قصة حياته :

« ... ثم قامت الحركة العرابية وسارت بأسرع مما كان ينتظر ، وكان غرضها تحرير المصريين والتخلص من عناصر الترك والشراسة المتحكمين المستولين على المناصب في الادارة والجيش ، ومضت الى غايتها في جو من الدسائس الأجنبية والأطماع الدولية ، فخشى الشيخ محمد عبده العاقبة ، وكان بعيد النظر سديد الرأي فتوقع اذا لج العرابيون فيما هم فيه ، ولم يتحرزوا أو يتوخوا الاعتدال أن ينتهى الأمر باحتلال الانجليز لمصر ، فكان لهذا يقاوم العرابيين مقاومة شديدة وينعى عليهم قصر نظرهم وقلة تبصرهم ، ويبسط فيهم لسانه حتى ضجوا وهددوه بالقتل اذا ظل يعترض طريقهم ويناوئهم ، وأراد بعض العرابيين من أصدقاء الامام أن يصلح ما بينه وبينهم ، وأنا أعرف هذه القصة لأن الذى حاول اصلاح ذات البين من أقربائى ، ولأن بيت جدى كان هو مكان الاجتماع .

« وتكلم العراقيون ، وتكلم دعاة التوفيق ، ثم تكلم الشيخ محمد عبده ، فأصر على رأيه أن العراقيين باندفاعهم سيجرون على البلاد الاحتلال الأجنبي ، فأخفقت المساعي للصالح والتوفيق .

« وكان أبى من رجال الأزهر وزملاء الشيخ محمد عبده في الدراسة وتلاميذ السيد جمال الدين ، وان كان لهم ينبغ كما نبغوا ، فسأل الشيخ محمد عبده : أكنت تلج هذه اللجاجة في عنادك مع العراقيين لو كان السيد جمال الدين في مصر ؟ فكان جواب الشيخ محمد عبده هذه الكلمة المترعة : يا محمد .. لو كان السيد جمال الدين هنا لما قامت الحركة العراقية ولا احتاج أحد إليها ، لأن السيد كان يغنى بشخصه عن كل ذلك ، وتمثل بيت من رثاء المتنبي :

كان من نفسه الكبيرة في جيب

ش وان خييل انه انسان

« ولما استفحلت الحركة العراقية وضرب الأسطول الانجليزى الاسكندرية ، انضم الشيخ محمد عبده الى العراقيين ، ووضع يده في أيديهم ، لأن الواقعة قد وقعت وكان ما خاف أن يكون ، فلم يسعه الا أن يكون مع قومه - ولو كانوا مخطئين - على الغريب . وكان يتمثل بيتي الحماسة :

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللوى

فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

وهل أنا الا من « غزية » ان غوت

غويت ، وان ترشد غزية أرشد

« والواقع أن السيد جمال الدين كان كما وصفه تلميذه الأكبر الشيخ محمد : « من نفسه الكبيرة في جيش » . وهو الذى يرجع اليه الفضل الأول في قيام الحركة الدستورية في تركيا ومصر وايران ، وهو الذى أثار نفوس الهنود المسلمين على الاستعمار الانجليزى ، وقد خشيه سلطان تركيا وشاه ايران وخديو مصر والامبراطورية البريطانية » .



ويشتمل تاريخ الأستاذ الامام في الثورة العراقية على أمثلة شتى من أمثلة العظمة بالرأى الأصيل والنظر البعيد والغيرة الصادقة والخلق النبيل ، ولكنه لم يشتمل على موقف من المواقف التى يضرب بها المثل في سير العظماء على تقديسهم للواجب أنبل من موقفه الأخير منها ، وهى تواجه خطر الاحتلال الأجنبى وتنساق الى المآزق الوييل الذى يفض عنها الأنصار ويبعد عنها ذوى المآرب والمخاوف ، وانه لأحصف عقلا وأبعد نظرا من أن تخفى عليه العاقبة ولو على سبيل الترجيح ، اذا حال الأمل الطيب دون العلم بها في ذلك المآزق علم اليقين .

وأى عاقبة ؟ عاقبة الوقوع في قبضة الاحتلال الأجنبى نفسه ، وأخطر منه وقوع أعداء الاحتلال في قبضة الخديو المنتصر المنتقم ، ومعه رؤساء جميع الوزارات الذين عاداهم

العرايون ، وفي طليعتهم أحمد رياض أقربهم الى الأستاذ
الامام وأستاذه جمال الدين .

وأنبأ من ذلك أنه ثبت على رأيه في محاربة الاختلال
الأجنبى وخيانة توفيق لوطنه في مذكرته التى كتبها أثناء محاكمته
وقال فيها :

« هل يقدر أحد أن يشك فى كون جهادنا وطنيا صرفا بعد
أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان ، فكان يتألب
المسلمون والأقباط والاسرائيليون لنجدته بحماس غريب وبكل
ما أوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين
والانكليز » .

ثم قال عن مؤامرة الخديو لحرق القاهرة انه « شاع فى
القاهرة أن الخديو سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شغباً
فى نفس القاهرة ، الى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة
وبالغت فى ذلك طول مدة قيامها بالأمر ، واستدعى الخديو
ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب اليه أن يجمع مشايخ
قبائل البدو ويحضرهم اليه ، ففعل وبالنسبة للخديو فى حسن
استقبالهم وأكثر لهم من المواعيد ، ثم أوعز الى المدير أن يأمرهم
بحشد ثلاثة آلاف بدوى واحضارهم الى القاهرة بطريق الجزيرة
ليحدثوا فتنة فى البلد لعدم وجود النظام بينهم ، ولكنه تعذر
على المشايخ حشد العدد المطلوب من البدو فحذف هؤلاء من
العسكر . ولما فشل مسعاه هذا أرسل تلغرافاً رمزياً الى محافظ
اسكندرية هذا نصه : قد ضمن عرابى أمر الأمن العام ونشر

ذلك في الصحف وجعل نفسه مسئولا لدى القناصل ، واذا نجح في ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا . أما الآن وأساطيل الدول في مياه الاسكندرية وعقول الناس متهيجة فوقع الخلاف بين الأوربيين وغيرهم أمر محتمل ، فاختر لنفسك اما خدمة عرابي في ضمانه أو خدمتنا .

الى أن قال : « وفي يوم هذا الحادث توجهت الى السراى فرأيت موظفيها في جذل عظيم مما حدث وكانوا يببالغون في رواية الأخبار ويضحكون من عهد عرابي بالمحافظة على الأمن العام . ومن المعلوم أن موظفى السراى لا يقولون الا ما يسر الخديو ، فاذا كانت الأخبار سارة تكلموا وضحكوا والا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم » .



وهكذا جمع الشيخ السجين في تقرير واحد بين اتهام السلطتين ، ولم يخطر له أن يدارى احدهما ليأمن شرها ويحتمى بها من الأخرى ، كما فعل كثير من الذين قدموا الى المحكمة العسكرية ، وهم يعلمون أنها خاضعة للسلطة الانجليزية وأن أحكامها تعرض على القصر الخديوى ومجلس النظر لاقرارها .

وقد تلقى هذا التقرير محامى العرايين برودلى صاحب التاريخ المستفيض عن محاكمات الثورة ، وكان الشيخ محمد عبده يعرض عنه لأنه لم يقبل في بادىء الأمر أن يدافع عنه محام انجليزى ، مع علمه بنظام المحاكم الخاصة وصعوبة الدفاع وفاقا

لهذا النظام على غير المختصين من الانجليز ، ثم علم أن شاعر
الأحرار (بلنت) صديق القضية الايرلندية والقضية المصرية
هو صاحب رأى فى اختياره فقبل أن يفتحه بأوجه دفاعه ،
وقال المحامى فى ذلك ان الشيخ محمد عبده « لم يتخلص من
تأثير الصدمة الناشئة عن توقيفه الا فى أواخر أيامه فى السجن ،
وحينئذ أخذ يعاملنا بتلك الثقة التى سعيينا لاستحقاقها » .

وان هذه الصدمة - كما سماها برودلى - لهى خير مثال
لذلك التفاهم العسير بين عقول الشرقيين والغربيين فى الدوافع
النفسية التى تخامرهم ابان الفتن الاجتماعية ، ولعلها سبب من
أسباب ارتياب الشيخ محمد عبده فى نية محاميه آه ودرته .
فان الشيخ قد سئل كما سئل غيره - وكان عمله فى الثورة غير
عملهم وداعيه الى المشاركة فيها غير دواعيهم - فنفى بطبيعته
الحال أكاذيب الشهود الملفقين وتهم الأذئاب المسخرين من قبل
القصر والحاشية ، ولم يعترف من التهم بغير الواقع الذى وقع
منه رأيا وعملا ، وكله - كما رأينا - أخطر من أن يعد
الاعتراف به نكوصا عن التبعة وتنصلا من الجريرة ، فخيّل الى
برودلى أن موقف الشيخ السجين - بين ما نفاه عن نفسه
وأنكره من شهادة غيره - انما كان ضعفا تبتلّى به النفوس
الشرقية فى أمثال هذه الشدائد . وليس أسهل عند هؤلاء
الغربيين من مداراة سوء الفهم عندهم بالخلاف المزعوم بين
طبائع الشرقيين وطبائع الغربيين .

على أن هذا المحامى نفسه لم يستطع أن يحجب عن عقله

عظمه الرجل في غير ما توهمه من أثر « الصدمة » ... وأشاد
بسواهبه الخارفة في غير موضع من كتابه فقال : « انه ربما كان
أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين ولا شك
أنه ساعد من قبل كثيرا على جعل الراى العام عاملا حقيقيا في
الترقى المصرى ولم يكن متهوسا في الدين ، بل هو من المسلمين
القائلين بالتوسع الشديد ، وكانت أفكاره السياسية تنطبق على
الراى الجمهورى الحر ووطنيته التى لا شائبة للأناية فيها
هى التى حالت دون استياء رفقاءه المتحمسين من خطته الدينية
علانية . حتى ان عرابى باشا صديقه قال عنه مرة : ان راى
الشيخ عبده أصلح للقبعة منه للعمامة » .

ثم كتب بعد توديعه : « فى مساء اليوم الأول من شهر
يونية سنة ١٨٨١ ودعت فى الظلام محمد عبده الذى ذهب أخيرا
منفيا عن القطر المصرى مدة ثلاث سنوات واذا جاز لمصر
أن تسير منفردة أو يكون لها بداءة خير يوما من الأيام فانها لا
يسهل عليها الاستغناء عن مثل الشيخ محمد عبده العالم
المحرر ... » .

ولو أن المحامى كاتب هذه النبوءة أتيح له أن يمد بصره
وراء السنوات الثلاث لعلم أن البلاد لم تستغن حقا عن الشيخ
محمد عبده ، وعلم قبل ذلك أن أمانة الصدق التى عهدا فى
« موكله » هى التى حملته على أن ينفى ما نفى ويثبت ما أثبت
ولم يحمله على ذلك خوف العقاب . فانه لم ينقطع عن حملته
على الاحتلال وعلى الحديو صنيعته فى قلب العاصمة البريطانية ،

وهو يعلم أنه - بذلك - يطيل منفاه أبدا ، وقد طال منفاه
فعلا فعاد الى مصر بعد انقضاء موعده النفي بخمس سنوات .



ولسنا في هذا الفصل بصدد البحث عن ظروف الثورة
العرايية وتبعات زعمائها ودعاتها وجرائم خصومها وأشياءها
المندسين عليها ، ولكننا نستغنى عن ذلك في هذا المقام بوزن
هذه الثورة بميزان الثورات عامة ، ونعود الى طبائع الثورات
جميعا في الشرق والغرب ، فنرى أن الثورة العرايية لم تكن بدعا
بينها ، لأنه ما من ثورة حدثت قط الا اشترك فيها الأنصار
والخصوم على اختلاف الأفكار واختلاف الأمزجة واختلاف
النيات واختلاف المظاهر والألوان ، ولا يختلط هؤلاء في هذا
الطوفان المريع الا اختلطت الأعمال والتبعات وأفلت الزمام من
الأيدي واختفى الزمام حيناً عن الأبصار والبصائر فلا يدري
من هو القابض عليه ومن هو المتخلي عنه ، ولا يعرف أين كان
مبدؤه ومنتهاه بين أيدي الأنصار وأيدي الخصوم .

ومن طبائع الثورات أن يخطيء الانسان خطأ لا حيلة له فيه
وأن يكون خصمه هو المسئول عن خطئه ... ومن طبائعها أن
تكون الثورة كالمطية الجموح تسوق من يركبها ولا يسوقها
الى غير مجراها ، بل من طبائعها أن تتقسم الصواب والخطأ فلا
يكون الصواب كله يوما في جانب ولا يكون الخطأ كله في
جانب ، وهكذا كانت الثورة العرايية بعد اندفاعها ان لم تكن

كذلك عند بداءتها وقبل استفحالها ، وربما كان من خطأ الشيخ محمد عبده - بمذهبه السوى فى الاصلاح - انه كان كالمهندس الذى حاول أن يسوس مجرى السيل كما يسوس مجرى النيل ... ولكن الفارق بينه وبين الأكثرين من مخالفيه أن خطأه لم ينجم عنه ضرر ، وانه أدرك الأضرار التى تنجم عن أخطائهم وهم غافلون عنها ، وانه لم تكن له يد فيها ولكنه اضطلع معهم بجسيع تبعاتها ولم يتركهم وحدهم - حين جد الجد - لاحتمال جريرتها .

القضية القومية

انتظم محمد عبده في سلك الحزب الوطنى منذ نشأة هذا الحزب قبيل عزل الخديو اسماعيل . وقد تؤدي تسمية تلك الهيئة السياسية بالحزب الى لبس كثير في أذهان المعاصرين الذين ألفوا نشوء الأحزاب على وضعها الحديث .

فان الحزب الوطنى الذى انتسب اليه معظم المشتركين في الثورة العراقية لم يكن حزبا يقابل أحزابا أخرى من أبناء البلاد تتعارض في المبادئ والبرامج على النحو الذى نعهده اليوم في الأحزاب السياسية ، ولكنه كان في حقيقته هيئة واحدة شاملة للحركة الوطنية في جملتها . وانما سمي بالحزب ليقابل جماعة الشراكسة والترك والألبانيين والأرمن الذين كانوا يتبعون الدولة العثمانية وينفردون بولاية الحكم في الوظائف الكبيرة وأكثر الوظائف الصغيرة .

فالحزب الوطنى على هذا الاعتبار كان هو حزب المصريين الفلاحين أو حزب الأمة المصرية ، ومن أجل هذا كان شعاره « مصر للمصريين » جامعا لمبادئه المتعددة في كلمتين اثنتين ، أو هو في الواقع كان مبدأ واحدا يجرى تطبيقه على مختلف المسائل التى كانت تدخل في نطاق القضية القومية بجميع جوانبها .

كان رفع المظالم عن أبناء البلاد ومحاربه الفساد والاسراف في دواوين الحكومه هو مبدأ المبادئ في سياسته الحزب الوطنى منذ تأليفه قبل نهاية حكم الحديو اسماعيل . وينطوى في هذا المبدأ أن يصير حكم البلاد الى أيدي أبنائها الذين أصابهم الظلم من حكم « العثمانيين » غير المصريين ، وينطوى في هذا المبدأ أيضا منع التدخل الأجنبى الذى جرت اليه سياسة الاسراف والبذخ أو سياسة الديون في عهد اسماعيل على الخصوص . وينطوى فيه تنظيم أداة الحكم والتوفيق بين مقاصد الحكام ومقاصد الرعية .

وكان محمد عبده فلاحا بمولده وتربيته ينتمى الى قرية نشأت في ظل عهد الاقطاع ، وكان مصابه ومصاب أهله من ظلم الطبقة الحاكمة أشد وقعا في نفوسهم من مصاب اخوانهم أبناء القرية ، لأنهم كانوا بمنزلتهم الاجتماعية هدفا لأنظار الحاكم المتسلط ، وحائلا في كثير من الأحيان بينه وبين أغراضه من عامة الرعية ، فكان مصابهم بالظلم مضاعفا لأنه مصاب في الرزق ومصاب في الكرامة . وكانت ثورته على « الراعى » الجائر ثورة من يشعر في قرارة نفسه بأنه أهل للمنازعة مع ذلك الراعى الجائر ، وليس قصاراه أنه أهل للخضوع أو للسخط في صمت واستسلام ، واستفادت هذه الثورة من التعليم والرياضة الروحية أنها أصبحت عقيدة من عقائد الضمير ولم ترتعن بحدود القرية أو الطبقة ولا بحدود المصلحة الاجتماعية أو السياسية . وكانت حماسة النخوة سليقة في الرجل كما أسلفنا ، وهى

شئ غير اندفاع التطرف الذى يساور بعض ذوى الآراء ، وان التبس أمرهما أحيانا على من يحكم عليهما بالمظاهر والأشكال . فان تطرف الاندفاع قد يأتى من الخفة والعجلة ، ولكن حماسة النخوة تأتى على الأكثر من شعور عميق وعقيدة متأصلة ، وربما كانت حماسة النخوة عوناً لصاحبها على الصبر الطويل ، ولكن خفة التطرف قد يستثيرها الغرض العاجل أو تموت .

كذلك ينبغى أن نفرق بين الاندفاع والاقدام ، لأنهما قد يتلاقيان أحيانا وقد يكون الافتراق بينهما أكثر من اللقاء ، فربما اندفع المندفع الى الفرار كما يندفع الى الاقدام ، ولكن المقدم فى غير اندفاع هو فى الحقيقة ثابت حيث كان ، وان خيل الى أناس أنه مدفوع الى غير ما أراد .

وتاريخ محمد عبده فى خدمة القضية القومية هو تاريخ الاقدام الى أقصى حدوده ، ولكنه لم يكن قط تاريخ الاندفاع مع الخفة والعجلة ، لأن نظرتة الى الغرض القريب لم تعجله قط عن النظر الطويل الى الغرض البعيد ، وهو الغرض الدائم وراء جميع الأغراض .

وقد أقدم يوما على التردد للخديو اسماعيل عند قصر النيل للقضاء عليه — أولى من الانتظار به الى أزمة بينه وبين الدول تزيله عن عرشه — ولولا أنه أخطأه فى هذه المرة وسنحت الفرصة للتفاهم مع ولى عهده على تعديل سياسة أبيه بعد عزله ، زال اسماعيل عن العرش مقتولا فى أغلب الظن ولم يزل معزولا

كما أراد جمال الدين وحزبه في الساعة الأخيرة ، وقد كان
التآمر على العزل خطراً لا يقل عن خطر الاقدام على القتل ،
وليس لاندفاع التطرف مذهب وراء مذهب الاقدام على هذين
الخطرين .



ولما نشبت الثورة العراقية كان حذره من السيطرة الأجنبية
أشد من حذر العراقيين وحذر الخديو توفيق ، لأنه لم يخالف
العراقيين في أدوار الثورة الأولى الا خشية الاحتلال الأجنبي
الذى يجبر على جالبه لعنة الأبد كما قال ، ولم يؤيد الثورة كل
التأييد في مرحلتها الأخيرة الا لأن الخديو توفيق جنح الى
الدولة المحتلة وحارب جنوده بجنودها .

وفي كل أولئك كان محمد عبده أشد اقداًما على الخطر من
الجميع : كان أشد منهم اقداًما في معارضة الثورة حين عارضها ،
وأشد منهم اقداًما في تأييدها حين أيدها ، وكان أبعد منهم نظراً
وأصدق منهم غيراً في كلتا الحالتين .

ولما وقع المحذور ودخل الانجليز مصر محتلين ، وبارحها
محمد عبده منفياً عن وطنه ، كان هذا المنفى أسبق أبناء الوطن
الى عاصمة الدولة الانجليزية ليعلن الحرب على الاحتلال في
عقر داره ، وقال لهم في صحافتهم : « اننا نرى أن انتصاركم
للحرية انما هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وان عطفكم علينا

كعطف الذئب على الحمل ، ولقد قضيتهم على عناصر الخير فينا لكي تكون لكم من ذلك حجة للبقاء في بلادنا .

وبلغ في الصراحة معهم ما لم يبلغه قائل من بعده حيث يقول لصحيفة البال مال :

« لم لا تغادرون بلادنا في الحال ؟ لقد علمنا الانجليز شيئا واحدا هو التضامن في مطالبكم بالجلاء شكونا من الأتراك لأنهم أجانب عن وطننا ، وأردنا لبلادنا اصلاحا وتقدما كنتقدم الأوربيين في طريق الحرية . لكننا الآن نعلم أن هنالك ما هو شر من استبداد الحكام ، وشر من ظلم الأتراك ، وليس في مصر من بلغ به الظلم حدا يرجو معه مساعدتكم . ان لنا اليكم رجاء واحدا ، وهو أن تغادروا بلادنا حالا الى غير رجعة » .

ولما سأله محرر الصحيفة عن الخديو توفيق كانت مشايعتهم هي الجريمة الكبرى التي نعاها عليه في وجوههم اذ قال : « ان توفيقا أساء الينا أبلغ السوء لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، وانضم أيام الحرب الى أعدائنا ... ولا يمكننا أن نشعر ازاءه بأقل احترام » .

قال هذا وهو لا يبالي أن يظل منفيا عن بلاده أبدا . لأنه لن يعود على غير رضى الخديو صاحب السلطة الشرعية ورضى المحتلين أصحاب السلطة الفعلية ، وقد بقي فعلا غير مأذون له بالعودة بعد انقضاء الموعد المحدود لنفيه ، وهو ثلاث سنوات . واقتضت فترة من هذه السنين في الحملة السياسية على الاحتلال بين لندن وباريس ، وكان محمد عبده في صحبة جمال

الدين قد اختارا هذه المدينة مركزا لنشاطهما السياسى ، لأنها عاصمة الدولة الفرنسية التى كانت تنافس الدولة البريطانية وتساورهما على مشاكل القضية المصرية . فكان من أملهما أثناء الحملة على الاحتلال البريطانى أن تثار القضية كلها فى ميدان السياسة الدولية لمطالبة الانجليز بالجلء عن مصر ، وأن يكون مثار الحملة من باريس بعد مضى السنوات الأولى على دخول الجنود الانجليزية الى قلاع القاهرة والاسكندرية ، وبعد صدور الوعود الأولى من وزراء لندن باقتراب موعد الجلء . ثم انقضت السنوات فى التجارب التى ابتلى بها الحكيمان من معاملة الساسة الغربيين والساسة الشرقيين ، وكان أثرها جميعا شعورا عميقا بخيبة الأمل وضياع الجهد فى هذا السبيل . فأما ساسة الغرب فقد كانت قضايا الأمم عندهم صفقات للمساومة وتبادل الغنائم والاتفاق على توزيع المستعمرات الجديدة بعد المستعمرات التى يثيرون قضاياها ... وأما ساسة الشرق فقد كانت مخاوفهم من تحرير شعوبهم كمخاوف الأجنبى من تحرير مستعمراته المغلوبة ، وكان الأجنبى يستعين بهم على توطيد حكمه بين التهديد بالخلع والترغيب فى فضلات السلطة من يديه . فخلفت خيبة الأمل فيهم جميعا مرارتها التى تعصف بالأمل لولا قوة اليقين وانصراف العزيمة الى العمل فى غير هذه السبيل . وقد ندرك قسوة أذاها فى نفس الأستاذ الامام من كلماته عن السياسة وسوء أثرها فى نهضات التقدم بعد أكثر من عشر سنوات قضاها فى تجارب شتى لما أصابه منها ، فقال

في كتابه عن الاسلام والنصرانية : « ان شئت أن تقول ان السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين فأنا معك من الشاهدين . أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس ! . » .



لقد كان للعزيمة الصادقة عملها أمام هذه الخيبة القاسية . وكانت هي العزيمة التي لا يشغلها الغرض القريب عن الغرض البعيد ، ولا يئسها الأمل الضائع أن تصمد للأمل الذي لا يضيع .

ونفس أخرى كانت هذه الخيبة خليقة أن تضربها بضربة الوهن والقنوط فتتهجر السياسة وتهجر القضية معها .

ولكنها كانت عزيمة تصدق نفسها اذا كذبتها السياسة الخادعة ... فاستحالت بكل ما فيها من قوة اصرارا على ترك السياسة والاقبال على العمل في الطريق الذي لا عوج فيه الى الغاية التي لا ريب فيها ، وقضت على السياسة عندها بهذا الاصرار قبل أن تقضى السياسة عليها .

لا تعويل بعد اليوم على السياسة ولا على الساسة ، وانما التعويل كله على الأمم . ولا معول للأمم في جهادها أنفع لها . وأصدق في المضي بها الى غايتها من العلم الحى والتربية القويمة .. ولقد كان يقول للمقربين اليه من مريديه : لو كان في هذه الأمة مائة رجل لما استطاع الانجليز أن يحكموها ، ولما أدركوا !

منها أربا في حكمهم اياها ، وانما الرجل عنده صاحب الفكر البصير والخلق المكين : صاحب الكفاءة الذي ان وجد في الأمة قادها لا محالة ولم يتمكن أجنبي ذو سطوة أو ثروة أن ينازعه على قيادها .



بهذه العزيمة عاد من منفاه وهو ينيف على الأربعين ، ولا بدليل له من استكانة اليأس الا أن يقبل بكل ما أوتى من الثبات والأمل على العمل الذي آمن بأنه رسالته الباقية في الحياة ، ووثق من جدوى الاعتماد عليه طوال الزمن ، اذ لا جدوى للاعتماد على السياسة والساسة غير خداع السراب .

ولو أننا ألقينا على لسانه كلاما يقوله في هداية التعليم كالذي قاله في ضلال السياسة لخلناه قائما قاعدا يقول : « بارك الله في العلم والتعليم ، وفي علم وتعلم ، وفي عالم وعليم ومعلوم ، وفي كل حرف من حروف العين واللام والميم ! » .

تقرب من الخديو فلم يكن تقربه اليه ليخدم سياسته ، ولكنه أراد أن يقود الخديو الى احياء النهضة العلمية في أقدم الجامعات الشرقية ، وأن يجرى على يديه تطهير الدواوين حيث يتصل الديوان بأعمال الخير والاحسان ، أو يتصل بتربية البيت وصيانة الأسرة وحسن الوصاية على الأزواج والأبناء .

وبعد بضع عشرة سنة لمع في أفق السياسة آخر بروفها الخلافة في فضاء القضية القومية ، وعرضت الدولة الفرنسية

سرايها الأخير على الذين استنجدوا بها لاتقاذ مصر من مهاوى الاستعمار ، ثم أسفرت مساعي الخفاء عن العلن المكشوف فاذ هو اتفاق بين الدولتين - بريطانيا وفرنسا - على تبادل التصرف المطلق في مصر ومراكش ، تفعل كل منهما ما تشاء بالبلد الذى استولت عليه وتتفقان معا ذلك الاتفاق الذى سموه بالودى لاقناع الدول الأخرى بمثل هذا التفاهم على صفقات الاستعمار .

واطمأنت بريطانيا العظمى الى مكانها بوادى النيل ، وبدا لها أنها اذا نزلت للمصريين عن سلطانها على الحكومة لم يتأولوا ذلك بالاضطرار اليه خوفا من اثاره قضية مصر فى محيط السياسة الدولية ، ولكنهم يتقبلون منه ما يرضيهم باختيارهم ويرضى الدولة المحتلة باختيارها . فأرسلت صديق العربيين القديم - سكوين بلنت - يسأل مفتى الديار رأيه فى أسس الدستور التى يقام عليها بناء الحكومة ونظام الادارة ، فكانت خلاصة جوابه على ما يفهم من بين سطور الصحف التى حرفت هذا الجواب : أن يكون الدستور مقيدا لسلطة الاحتلال وسلطة الخديو ، وأن يكون اعلانه ضمانا من السلطتين باحترامه ومنع المساس بحقوقه ، وأن يكون للرئيس المصرى حق جدى فى ديوانه فلا يكون عمله فيه عالة على الرؤساء الانجليز ، وأن يكون نظام التعليم اجبارا فى جميع أنحاء البلاد ، وأن تكون للمجلس النيابى حقوق الاشراف على السلطة التنفيذية أو سلطة الوزارة ، فاذا اختلف مجلس النواب

ومجلس الوزراء عرض الخلاف على هيئة مشتركة من النواب وقضاة محكمة الاستئناف ، وتلتزم الوزارة بحكم هذه الهيئة فلا يكون لولى الأمر من سلطان على هذا الحكم ، الا ما يتقبله الوزراء ويحتملون تبعته فى حدود الدستور والقانون .

كان هذا قبيل وفاة المفتى بسنة واحدة (١٩٠٤) وكان للاحتلال أجل فى علم الغيب لم ينته قبل نيف وخمسين سنة ، ولم يكن له فى علم الانسان أجل محدود ، ولكنه لم يكن أمل الغد القريب بعد بضع سنوات على كل حال ، ولو أنه كان - مع التفاؤل الطامح - أمل سنوات عشر أو عشرين لما كان فى الوسع أن تدار الحكومة خلال هذه المدة بالدعوة الى الاضراب وترك الحكم كله بين أيدي المحتلين ، ولو بدأت الدعوة الى الاضراب فى تلك السنة لما نفذت ولا تم الاتفاق عليها قبل اقضاء تلك السنين . فليس تقدير وقوع الجلاء فعلا فى تلك السنة الا تسجيلا بعبارة أخرى لانفراد المحتلين بالولاية على الدولة بمعزل عن أبناء البلاد فى جميع الدواوين .

وقد كان المفتى موظفا يتولى عمله فى خدمة بلاده مع مئات من خيرة أبناء الوطن فى مناصب الوزارة والقضاء والتعليم والبناء والتعمير ، فاذا كان العاملون فى السياسة قادرين على تبليغ أماتهم بالكتابة فى الصحف والخطابة على المنابر ، فأمانة الموظف الذى يخدم بلاده لا تؤدي فى غير الديوان ، ولا يزال لقاء المستشار والمفتش والعميد عملا من أعماله المتكررة ان لم تكن من أعماله اليومية ، وبخاصة مستشار وزارة المال ووزارة

التشريع ، ولا تؤدي وظيفة واحدة بغير الرجوع الى هاتين
الوزارتين .

ولا موجب هنا للموازنة بين من يعدون الأمم للاستقلال
بالدعوة السياسية ومن يعدونها للاستقلال بالتربية والتعليم .
فان الأمم تستطيع على الدوام أن تعتمد على كلتا الخطتين وأن
ترشح لكل منهما من هو أصلح لها وأقدر عليها وأرغب فيها ،
وليس ثمة من ضرورة توجب عليها أن تختار هذه وحدها أو
تلك وحدها ، منفصلتين غير مجتمعتين .

وانما المسألة هي مسألة هذا المصلح التقدير على الاصلاح .
أي الخطتين يختار ، وأيتهما ترجى منه منفعتها ، ويؤمن فيها على
وقته وجهده من الضياع والقوات .

ان هذا المصلح الذي تمت له عدة الاصلاح وقيادة الأمة في
طريق التقدم والحرية ، قد جرب السياسة فلم تثمر له ثمرة
يرضاها .

انه آمن بأن عمل السنين في السياسة والاعتماد على الساسة
قد يضيع ولا يبقى من أثره ما ينفع ، بل قد يبقى من أثره
ما يضر ولا تمحو ضيره الأيام والسنون ، ولكن عمل السنين في
تربية الأمة وتعليمها لن يضيع ولن يذهب سدى ، ولن يندم عليه
العامل ولا الأمة التي يعمل لها ، قصرت بها الطريق أو طالت الي
غايتها من التقدم والحرية .

انه ابتلى من السياسة والساسة بتلك الخيبة التي بغضتها
اليه وأورثته تلك المرارة « النفسية » التي جعلت كل عمل فيها

عصاة لا تطلق وأذى لا يحتمل ، ونفرتة منها ذلك النفور الذى
يصد العزيمة عنها ويدحض الرجاء فيها ، وليس من طبيعة الغيرة
الصادقة أن تمضى الى وجهة تصد عنها أو تخدع النفس عن
السعى الذى لا رجاء فيه . فليس له ولا لأحد أن يصرفه عن
العمل الذى يرجو جدواه ، ليكرهه على العمل الذى لا يجدى
عنده ، وإن أجدى كثيراً أو قليلاً عند غيره .

وأياً كان رأى التاريخ فى جدوى الخطتين على قضية مصر
فلا خلاف فى رجحان كفته على كفة خصومه بميزان الصدق
والاخلاص والمروءة الجديرة بأمثاله من دعاة الإصلاح . لأنه
آمن بخطته ولم يعطل على أحد خطة يؤثرها ويطمئن الى
عقبها . ولكن خصومه قد سوغوا أسوأ ظنونه فى السياسة
يوم صدوه عن طريقه ونصروا عليه أعداءه وأعداء رسالته
الباقية ، وكان أسوأ ما صنعوه أن يحسبوا عليه حماية القانون
لمنصبه اخلاصاً بالوطنية وهم يحمدون لولى الأمر أن يطأطئ
رأسه لرأية الاحتلال كى يغنم من المحتلين اغضاءهم عن عبثه
بوظائف الحكومة ، وهو لا يرمى بذلك العبث الى شىء غير
محاربة العلم واتهام الدين بما هو برىء منه ، اذ يجعله حائلاً بين
المسلم وبين علوم الحضارة فى القرن العشرين .

في الأزهر

وقفنا بتاريخ الأزهر الحديث عند أوائل النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وهو يومئذ حومة صراع خفى بين طلاب الإصلاح المجددين وبين شيعة الجمود والتقليد من المحافظين على القديم : اذا تولاه شيخ عصرى ، أو شيخ فتى بالقياس الى شيوخه المعمرين سعى سعيه البطيء الى تنظيم الادارة وترتيب أوقات العمل ، ومواعيد الامتحانات وشروطها دون مساس بجوهر التعليم من موضوعات الدروس وكتب التدريس وأشخاص المدرسين ، واذا أحس ولادة السخط على هذا النصيب المقتصد من الإصلاح البطيء أعادوا اليه شيخا من المشهورين بالتعصب للقديم ، وأعادوا الأزهر في الحقيقة الى ذلك الشيخ ليتولى عنهم ستر نياتهم نحو الإصلاح ويدفع عنهم بجموده وتقليده شبهات العدوان على حرمان هذا المعهد العتيق ، بل شبهات العدوان على حرمان الدين ، اذ كان كل تغيير فى المألوف بينهم لا يقل عن سبة الخروج من الدين .

وكانت الحكومة — كما تقدم — تخشى أن تتعرض لهذه الشبهات فى زمن تكاثرت فيه الشبهات عليها من سياستها الأجنبية ، وأوشكت هذه السياسة أن تجعلها رهينة بالسلطان الأجنبى فى أمور القضاء والتشريع وفى أمور « الامتيازات

الأجنبية» على التعميم ، فلم تكن لها بقية من السمعة الحسنة في هذا الباب تجازف بتعريضها للثورة عليها من رجال الدين ، في أكبر معاهد الاسلام . فاتبعت مع الأزهر خطة الانتظار وآثرت أن تتلقى طلب الاصلاح من أهله فتليه ، وظلت على هذه الخطة لا تجرؤ على تبديلها الى ما بعد الاحتلال البريطاني واستيلاء المحتلين علالية على دواوين الحكم بدعوى الاصلاح والتنظيم .

عندئذ تحول الموقف كله من جانب السلطة الشرعية أو سلطة الخديو بم عزل عن وزرائه وموظفيه ، فان استئثار المحتلين بدعوى الاصلاح والتنظيم في دواوين الحكومة جميعا لم يدع له مكانا يعمل فيه منطلق اليدين غير الجامع الأزهر وديوان الأوقاف والمحاكم الشرعية ، وهى الجهات الدينية التى أمسك المحتلون عن التعرض لها الا فيما يتعلق منها بميزانية الدولة كوظائف القضاة الشرعيين وموظفى المحاكم الشرعية ، فأصبح من همّ الخديو أن يدفع عنه تهمة العجز عن الاصلاح والتنظيم فيما بين يديه من الدواوين والمعاهد . فان هذا العجز حجة عليه وعلى الحكم الوطنى برمته فى أيدي السلطة الأجنبية ، وبرهان محسوس يرتكن اليه المحتلون - أمام العالم - كلما التمسوا ذلك البرهان المحسوس للحجبر عليه وعلى أداة الحكم التى ترتبط بها « المصالح الأجنبية » ودعوى الامتيازات .

ومع هذه الضرورة الملحة على ولى الأمر لم يجرؤ على « اقتحام العقبة » بغير تمهيد يعفيه من تهمة التهجم على حرمة

المسجد وتقاليده الدين ، فدبر مع المخلصين من طلاب الإصلاح « حيلة شرعية » للبدء بالإصلاح المطلوب ، واتفقوا على استفتاء شيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية في مسألة العلوم التي يجوز تدريسها بالجامع ولا تعتبر العناية بها في أماكن العبادة مخالفة للتقاليد الإسلامية ، وكلفوا عالما تونسيا فاضلا - هو الأستاذ محمد بيرم ، أشهر علماء جامع الزيتونة في عصره - أن يتوجه بهذا الاستفتاء إلى الشيخ محمد البابي شيخ الجامع يومذاك (١٣٠٥ هـ - ١٨٨٧ م) فكتب إليه بعد تمهيد وجيز :

« ... ما قولكم رضى الله عنكم : هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف ، لا سيما ما يبنى عليه منها من زيادة القوة في الأمة بما تجارى به الأمم المعاصرين لها في كل ما يشمل الأمر بالاستعداد ؟ بل هل يجب بعض تلك العلوم على طائفة من الأمة بمعنى أن يكون واجبا وجوبا كفايا على نحو التفصيل الذى ذكره فيها الامام حجة الاسلام الغزالي في احياء العلوم وثقله علماء الحنفية أيضا وأقروه ، واذا كان الحكم فيها كذلك فهل يجوز قراءتها مثل ما تجوز قراءة العلوم الآلية من نحو وغيره الرائجة الآن بالجامع الأزهر وجامع الزيتونة والقرويين ... أفيدوا الجواب لا زلتم مقصدا لأولى الأبواب . »

وقد كان الأستاذ البابي يعلم مصدر الاستفتاء فلم يهمله كما أشار عليه بعض أعوانه ، وكتب في جوابه ما يلى :

« ... يجوز تعلم العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافية ، لأنه لا تعرض فيها لشيء من الأمور الدينية ، بل يجب منها ما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوبا كهاثيا ، كما يجب علم الطب لذلك - كما أفاده الغزالي في مواضع من الاحياء - وأن ما زاد عن الواجب من تلك العلوم مما يحصل به زيادة في القدر الواجب فتعلمه فضيلة ، ولا يدخل في علم الهيئة الباحث عن أشكال الأفلاك والكواكب وسيرها علم التنجيم المسمى بعلم أحكام النجوم وهو الباحث عن الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية ، فانه حرام كما قال الغزالي وعلل ذلك بما محصله أنه يخشى من ممارسته نسبة التأثير للكواكب والتعرض للأخبار بالمغيبات ، مع كون الناظر قد يخطئ لحفاء بعض الشروط . وأما الطبيعيات - وهي الباحثة عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها كما في الاحياء في الباب الثاني من كتاب العلم ، فان كان ذلك البحث عن طريق أهل الشرع فلا منع منها كما أفاده العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي في جزء الفتاوى الجامع للمسائل المنتشرة ، بل لها حينئذ أهمية بحسب أهمية ثمرتها ، كالوقوف على خواص المعدن والنبات المحصل للتمكن في علم الطب ، وكمعرفة عمل الآلات النافعة في مصلحة العباد ، وان كان على طريقة الفلاسفة فالاشتغال بها حرام لأنه يؤدي للوقوع في العقائد المخالفة للشرع كما أفاده العلامة المذكور . نعم يظهر تجويزه لكامل القريحة الممارس للكتاب والسنة للأمن عليه مما

ذكرنا قياسا على المنطق المختلط بالفلسفة على ما هو المعتمد فيه من أقوال ثلاثة ثانيها الجواز مطلقا ونسبه الملوى فى شرح السئلم للجمهور ، وثالثها المنع مطلقا ونسبه صاحب السلم لابن الصلاح والنووى . قال الملوى : ووافقهما على ذلك كثير من العلماء ، ولما كان الامام النووى ممن يقول فى المنطق بالمنع مطلقا مشى على نظير ذلك فى الطبيعة ، فعذ فى كتاب السير من الروضة من العلوم المحرمة علوم الطبيعيات بدون أن يفصل . لكن حيث يعتمد التفصيل هناك فلنعتمده هنا . اذ لا فرق فى ذلك ، فان مظنة الضرر والنفع موجودة فى كل منهما ... » الى آخر الجواب مما يدل عليه أوله المتقدم .

وبعد أسبوعين من صدور هذه الفتوى من قبل شيخ الأزهر - الشافعى - صدرت الموافقة عليها من مفتى الديار المصرية ، وهو حنفى المذهب ، فقال ان « ما أفاده حضرة الأستاذ شيخ الاسلام موافق لمذهبنا وما استظهروه من أن الخلاف الجارى فى علم المنطق يجرى فى علم الطبيعة أيضا وجيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم » .



ويستطيع الناظر فى تضاعيف هذه الفتوى أن يلمح منها أنها تفتح الباب فيما أباحته للتفرقة بين طريقة وطريقة وغاية وغاية . ولا سيما فى المنطق والطبيعيات ، فلا يشق على المعارض فى تدريس علم منها أن يؤجل تدريسه على الأقل الى أن يثبت

خلوص الكتاب المقرر من الشوائب الممنوعة ، وإبتعاد المدرس له عن مذهب الفلاسفة أو مذهب المنجمين ، ولا يصعب على المعترض أن يحسب الأنباء عن مواعيد الكسوف والخسوف والقرانات الفلكية المحققة افتياتا على الغيب لجواز الخطأ فيها على الناظر كما جاء في الفتوى .

وتلك كانت النية منذ صدرت الفتوى اضطرارا بهذا التحفظ والتقيد ، فإن الشيخ قد أصدرها وهو ينوى تعطيل برنامج الإصلاح بأمثال هذه الحجج التي لا تعيى أحدا يريد لها بعد السير في خطوات التنفيذ العملية . وقد عاد الشيخ محمد عبده من المنفى واقترح على الشيخ الانبأى هذا تدريس مقدمة ابن خلدون فلم يجبه الى مقترحه وقال : « ان العادة لم تجر بذلك ... » ثم سكت حين أراد الشيخ محمد عبده أن يبين له وجهة المشابهة بين المقدمة ، وما يدرس من كتب المتأخرين على عهده ، ولم يرد أن يدخل في الحديث .



لا جرم يكون صدور هذه الفتوى العقيمة هو كل ما تم من « مشروعات » هذا الإصلاح ، فلم تزل حبرا على ورق الى العهد الذى أنشئ فيه للأزهر مجلس خاص لوضع الفتوى في موضع التنفيذ ، وكان الشيخ محمد عبده عضوا فيه ، وقد عين للأزهر وكيل ذو كفاية وخلق له « شخصية قوية » لا يسهل إهمالها ، وهو الشيخ حسونة النواوى من أصدقاء الشيخ محمد

عبدہ وأركان المدرسة الجديدة من بين العلماء المجددين ، وقد اتفقت الآراء على اختياره ليحول دون تعطيل « المشروعات » عند تطبيقها ، اذا صدرت بها القوانين والمراسيم .

مضى بين اتصال الشيخ محمد عبدہ بالأزهر وصدور تلك الفتوى نيف وعشرون سنة ، حضر فيها مراحل هذه الحركة من بداءتها الأولى وهو طالب ومدرس ومشرف على الإدارة والتدريس .

وصل الى الأزهر طالبا حوالى سنة ١٨٦٦ ميلادية فاجتهد نفسه فى البحث عن أساتذته ودروسه ، ثم أغناه حضور جمال الدين الى مصر عن المعلمين فيما يحتاج الى المعلم وأغناه ذكاؤه وصبره عن الكتب المقروة فى حلقات التدريس ، اذ كان يبحث عن الكتاب المفيد حيث أصابه ، فيقرأه لنفسه ويجنى منه خير ما يجنى من الفائدة فى زمن وجيز ، يريجه من حضور دروسه على المعلمين « التقليديين » ، وكثيرا ما يكون الكتاب من غير الكتب المقررة لدراسة الحلقات .

وقد مر بنا كيف كان الناشئ محمد عبدہ يتلى بالنقيضين على مفترق الطريق فى معاهد تعليمه منذ صباه ، ولكن مفترق الطريق هذا كان فى عهده الأول بالأزهر على أبعد ما تكون الشقة بين النقيضين . فقد كان من طرف الجمود يتراعى الى زاوية الجمود السحيقة فى كهف الشيخ محمد عlish ، وكان من طرف التجديد يتراعى الى غاية مرماه ، حيث تتطامن العقبات والسدود ، فى ساحة جمال الدين ، بل فى ميدان جمال الدين .

وقد كان الشيخ محمد عlish رجلا صالحا عفيفا عن المطامع
الدنيوية التي كانت تستهوى طلاب المظاهر من علماء عصره ،
وكان مخلصا صادق النية في كراهة البدع التي يخشى منها على
الدين ، ولكنه اخلاص قاده الى التطرف الشديد وأوشك أن
يبغض اليه كل تفكير مستقل به طالب العلم ، ولو كان من تفكير
حكماء الاسلام .

وأبلغه ابنه يوما أن طالبا بالأزهر يحضر على جمال الدين
ويقرأ كتب المعتزلة والمتكلمين ، فحمل عكازه وذهب مع ابنه
وأصحابه الشبان الى حيث يجلس ذلك الطالب الجريء ، ودارت
بين العالم الكبير والطالب الناشئ مشادة ، أخرى أن تسمى
مشاجرة ، لأنها انتهت الى التماسك بالأيدى واعتصام العالم
الكبير بعكازه ، وأجأت الطالب الناشئ الى اصطحاب عصاه
كلما ذهب الى حلقتة . ردا لعادية الزملاء المستأنسين بحماية
شيخهم ، ان لم يكن ردا لعادية الشيخ الوقور .

وتقدم الى امتحان شهادة العالمية وهو بهذه السمعة في
دوائر الجامدين ودوائر المجددين ، فدخل أعضاء اللجنة وهم
متعاهدون على اسقاطه كيفما كانت اجابته على أسئلتهم التي
قدروا أن تكون معجزة لمثله ، فلم يستطيعوا أن يحرموه بعد
العنت والمكابرة ، بل لم يستطيعوا أن يكتفوا بمنحه الدرجة
الصغرى وهي شهادة العالمية من الدرجة الثالثة ، حتى أنقذه
منهم بعض الاتقاذ رئيس اللجنة ورئيس الجامع في ذلك الحين
الشيخ « المهدي العباسي » أحد كبار العلماء المناصرين لحركة

التجديد وان لم يكن من المحبين لجمال الدين ، وأقسم الرجل انه لو عرف درجة فوق الأولى لما استكثرها عليه ، وكادت اللجنة أن تنفض على غير اتفاق ، لولا خشية العقاب من مجابهة شيخ الجامع بالتحدي والاجحاف ، فاقترح بعض الأعضاء التوسط بين الدرجتين واففقوا أخيرا على منحه الدرجة الثانية ، ثم رفعت هذه الدرجة الى الأولى بعد سنوات ، وكانت سنة في نحو الثامنة والعشرين حين دخوله الامتحان (١٨٨٧) .

وبعد التدريس في الأزهر نحو سنتين عين أستاذا بدار العلوم (١٨٧٩) وفصل منها بعد أشهر معدودات لغير سبب مذكور في قرار فصله ، ولكنه كان مفهوما بين المطلعين على سياسة القصر قبيل الثورة العرابية ، فانه كان قد عرف بالدعوة في دروسه الى المبادئ الخطرة التي أشارت اليها الحكومة في قرار نفيها للسيد جمال الدين ، وكان أكثر من ذلك تلميذ جمال الدين الأول ، فكان خطر جمال الدين أهون عليهم من خطر هذا التلميذ ، وهم يكلون اليه تعليم المعلمين !



أى مكان أسلم - أسلم للحكومة الخديوية - تضع فيه المدرس المعزول من وظيفة التدريس للمعلمين ؟

ان السؤال عن المكان المأمون الذى يشغله هذا الفتى الرفي قد أصبح في تلك الآونة شغلا للدولة تعنى به مع عنايتها بكل مكان تتوقع منه الخطر على وجودها ، ولم يمتض على هذا

الفتى الريفى فى الثلاثين من عمره سنتان ، أو سنوات ثلاث ، فى الحياة العامة حتى أصبح فى رأى الدولة واحدا من آحاد معدودين يحسب لهم حسابهم عند كل حركة من حركاتهم ، بل كل نية تحسها الدولة من نياتهم !

نعم . انه فى حالته وبيئته و « مؤهلاته » التقليدية واحد من عدة آلاف لا يعرف لهم اسم ولا يحسب لهم حساب ، ولكنه فى نفسه ، أو فى هموم نفسه وآمالها ، واحد لا ثانى له من غراره ، وان يكن فى توقع الخطر منه واحدا من بضعة آحاد معدودين ، خارج الوظائف والدواوين .

ولقد عزل من وظيفة التدريس بدار العلوم وهو عالم من علماء الأزهر ، فاذا كان تعليمه هو الخطر المحذور فهو عائد الى التعليم فى مدرسة أكبر باتساعها وأخطر بقدوتها من دار العلوم ، وهى الجامعة الأزهرية مالم تشغله عنها وظيفة يرضاها . وقد أخذ فى ذلك الحين ينشر مقالاته فى الصحف ويجمع حوله طائفة من قراء أدبه والمعجبين بأرائه ، فاذا خلتى بينه وبين الصحافة فمن ذا يعلم العاقبة المنتظرة بعد قليل ؟ وماذا يمنع أن تتيح له الظروف لسانا من ألسنة الصحافة السيارة يستقل به ويعلى منه دروسه التى حيل دون املائها بين الجدران فى دار العلوم ؟

ان التحرير عمل يناسبه ، فليكن اذن محررا فى صحيفة الحكومة بين سماعها وبصرها ، وليؤخذ عليه سبيل التدريس فى الأزهر والكتابة فى الصحافة السيارة ، بعمل يعجبه فى ظاهره

ويحد من نشاطه المحذور في باطنه ، وهو تحرير الوقائع المصرية : تحرير الصحيفة التي يدل اسمها عليها ، وهو نشر الوقائع الرسمية .

لو قال قائل ان هذا الانسان خلقة مجبولة للتعليم ، وان رفق الحياة ورمق التعليم فيها شيء واحد ، لما وصل الى حدود الاغراق الذي تبيحه المبالغة للمبالغ في مثل هذا المقام . فانه عزل من مدرسة التعليم للمعلمين ليلحق بمكان يقال فيه بحق انه آخر مكان ينتظر منه القاء الدروس ، وانه المكان الذي لا يقع في الظن أن الدروس تلقى منه على الأمة وعلى الحكومة ، وهما على أبواب ثورة قلما تجمعهما على وفاق .

ولكن صحيفة الوقائع الرسمية تحولت على يد هذا المحرر « الرسمي » الى منبر لنشر الدعوة وعلان الشكوى ، واسماع الحكومة ما تريد أن تسمعه وما لا تريد أن يسمع بحال ، وقال الشيخ محمد عبده على صفحاتها كل ما كان قائله لو تكلم في حلقات الأزهر أو على منصة التدريس بدار العلوم .

ولا تنسح هذه المناسبة لأكثر من الإشارة الى عناوين بعض المقالات التي نشرها للناس باسم الوقائع الرسمية ، ومنها مقال في انتقاد التعليم بوزارة المعارف ، ومقال عن التربية في المدارس والمكاتب الأميرية ، ومقال في الحملة على الرشوة ، ومقال في الانحاء على البدع التي تصدر من نظارة الأوقاف ، ومقال عن تأثير التعليم في العقيدة ، ومقال عن الشورى وآخر عن اختلاف القوانين باختلاف الأمم ، وآخر عن الملكات والعادات ، وآخر

عن تعدد الزوجات ، وآخر عن اسراف الفلاح وضرر الديون ، وغيرها وغيرها قرابة أربعين مقالا ، أو أربعين درسا ، في أمثال هذه الشئون القومية التي يتجه فيها الخطاب الى الأمة والحكومة ، وتلام فيها كلتاها بمقدار حقها من الملام .



ولم يهمل شأن الأزهر وهو يتكلم عن اصلاح التعليم ويتصل برئيس الوزارة بحكم وظيفته في الصحيفة الرسمية ، فكل ما عملته الوزارة الرياضية من أعمال الاصلاح وتنظيم الادارة بالأزهر فانما كان على علم منه بمشورته وبفضل وساطته بين الحكومة وعلمائه . ولكن الثورة العراقية شغلت علماء الأزهر يومئذ عن مسائل التعليم والادارة وضمت الكثيرين منهم الى جانب الثائرين في وجه الحديو بعد انضمامه الى السلطة الأجنبية ، وكان الشيخ محمد عبده أحد العلماء الذين كانوا يأخذون العهد والقسم من الثائرين على الاخلاص والأمانة ، وجوزى على ذلك بالنفى الى خارج الديار ثلاث سنوات امتدت الى سبع سنوات ، ولم ينقذه من حكم الموت الا تلك الصلة القديمة التي سبقت له مع الوزارة الرياضية .



وعاد الى الاتصال بالأزهر على أثر عودته من منفاه ، ولكنه حيل بينه وبين الاقتران للتدريس فيه باسناد الوظائف المختلفة اليه ، وكانت أول مشاركة له في وظائفه تعيينه عضوا بمجلس

ادارته (سنة ١٨٩٤) ثم تعززت مكائته الرسمية بولايته منصب الافتاء بعد ذلك بخمس سنوات ، وكان وجود مثله عضوا بمجلس الادارة كافيا لاجراج الفتوى القديمة - فتوى الشيخ الانبأى - من حيز القول المهمل الى حيز العمل الفعال ، ولكن قيامه على منصب الافتاء رجع بالفتوى الى صاحبها وأغنى العاملين على الاصلاح داخل الأزهر وخارجه عن مهمة التوفيق بين الوعد والانجاز ، وبين النية والتنفيذ .



وقد كان فى وسع الشيخ محمد عبده وأعوانه الثقات أن ينجزوا فى ثلاث سنوات ، أو أربع سنوات ، ما استغرق انجازه منهم أكثر من عشر سنين ، وهى المدة التى أشرف فيها الشيخ محمد عبده بشخصه على ادارة الأزهر ، منذ تعيينه عضوا بمجلس الادارة الى استقالته من منصب الافتاء فى سنة ١٩٠٥ ، ولكنه آثر أن يتمهل اختيارا لتسوية الانتقال من القديم الى الجديد فى نفوس أنصار القديم المتشبثين ببقائه بين الموافقة باللسان والمراوغة فى التنفيذ ، واضطر فى كثير من الأحيان الى التمثل اضطرارا لتراجع ولى الأمر - الحديف عباس الثانى وحاشيته - فى وعودهم وعدولهم عن العمل على التغيير الصريح الى مراوغة كمراوغة الشيوخ الجامدين بين الموافقة اللسانية والتعويق فى التنفيذ ، ولكن دعاة الاصلاح تمكنوا - مع هذه التعويقات - من اقامة الأسس التى يصعب على المعارضين أن

يهدموها بعد اقامتها ، وكان عملهم مدى السنين العشر أعظم مما يتسع له هذا الأمد القصير بالقياس الى القرون المتوالية التى تم تبديلها فى خلالها ، بعد الشروع فيه والعدول عنه واستمرار الدعوة اليه أعواما اثر أعوام .

ويطول بنا بيان التشريعات والاجراءات الادارية التى تقضى المراسم الضرورية باستصدارها قبل كل خطوة تخطو فى تغيير شىء من القديم واعتماد شىء من الجديد ، ولكن المقارنة السريعة بين ما كان عليه الأزهر فى السنوات الأخيرة من اقرن التاسع عشر وما صار اليه فى مطلع هذا القرن العشرين هى الأثر العملى المحسوس لجميع تلك التشريعات والاجراءات فى حيز التقرير والتنفيذ .

كانت سيئات الادارة لا تحصى ، وكانت حسناتها القليلة تجرى - اذا جرت - عفوا على غير نظام .

كان مشايخ الأزهر يوزعون المرتبات والجرايات على غير قاعدة مرعية ، حسبما يتجمع عندهم من محاصيل الأوقاف المحبوسة على أتباع المذاهب أو على أبناء الأقاليم ، فربما هبطت مكافأة العالم فى الشهر الى ما دون العشرين قرشا أو ارتفعت الى بضعة جنيهات ، ولا ضمان لعودتها فى السنة التالية اذا تغير الشيوخ واختلف حساب الأوقاف واختلف معه حساب توزيعها بين الشيوخ والمقدمين على الأروقة والأقسام .

وكان شأن كساوى التشرية كشأن المرتبات والجرايات ، يختص بها الشيخ الأكبر من يشاء من أبناء مذهبه أو اقليمه أو

خاصة أشياعه ومريديه ، ولا وجه لمراجعته أو الاحتجاج عليه عند هيئة مسموعة الكلمة في الجامع أو عند ولاية الأمور من الولاية والوزراء .

ولا ينتظر في مثل هذه الحالة أن يجرى عمل المدرسين والطلاب على وتيرة مطردة أو تجرى رقابة التدريس كله على مبدأ معروف . فمن شاء من الأساتذة أو التلاميذ حضر حلقات الدرس ومن شاء منهم غاب عنها ولم يسأل عن حضوره أو غيابه ، وليس للعمل أو للاجازة أو الامتحان موعد مقرر في سنة من السنين ، فإذا قيد الطالب اسمه بين مستحقي الجراية أو السكن بأروقة الجامع فقد يحسب من طلابه الى أن يجاوز الستين ولا تنقطع جرايته ما دام من المرضى عنهم بين شيعة صاحب الرواق .

وكافت العلوم الحديثة محرمة لا تدرس ولا يرضى عن طلابها في غير الحلقات الأزهرية ، وكانت علوم السلف التي تنسب الى الفلاسفة أو المعتزلة قرينة بتهمة الكفر والزندقة ، ومن اشتغل بها معلما أو متعلما فسبيله أن يعتزل الجماعة خفية .. ولا سلامة له باعتزالهم جهرة على سنة الأقدمين ممن اشتهروا بالاعتزال .

وكانت تدبيرات الصحة مهمة ، بل كادت أن تكون ممنوعة ، لقلّة اطمئنان العلماء الجامدين الى المواد التي تستخدم للتعقيم والتطعيم ، بل قلّة اطمئنانهم الى أقوال الأطباء في عدوى الجراثيم ، ولولا أن النظافة أدب من آداب الاسلام لما تقبل

القائمون على ادارة الجامع عملا من أعمال الوقاية في أزمنة الوباء ، غير الأمر باغلاق الجامع ووقف الشعائر والدروس في أروقتة ، وهو الأمر الذى يتخرج منه المسئولون ويحتالون له بمختلف الحيل كلما استطاعوا أن يتجنبوه بالاعلان الصريح .

وتبدل ذلك كله في سنوات قلائل ، وأول ما تبدل منه أمر العناية بالتدبيرات الصحية ، فأنشئت للجامع صيدلية خاصة وعين له طبيب منقطع لعلاج طلابه والكشف عليهم بالمجان .

ولم يكن باليسير تنظيم أعمال التدريس بغير تنظيم أوقات العمل والمرتبات ، اذ لم يكن للأزهر مورد محصور عند المراجع الرسمية ، يصرف منه على المرتبات الكافية لمدرسيه المعتمدين ، فسعى الشيخ محمد عبده عند الوزارة لتخصيص مبلغ من ميزانية الدولة تنفق منه على الدراسة في الأزهر ، وكانت حجة الشيخ على المستشار المالى - الانجليزى - الذى كانت له الرقابة على الميزانية أن الأزهر يخرج الموظفين لدواوين الحكومة من القضاة الشرعيين ، فالانفاق عليه واجب حكومى كالانفاق على مدارس الحقوق والشرطة والمعلمين ، وواصل الشيخ سعيه عند ديوان الأوقاف حتى أرصدت في ميزانيته مبالغ سنوية للجامعة الأزهرية ، وكان من فتواه للديوان أن هذا المصرف جائز ، بل مفروض على الديوان ، في مقدمة مصارفه الخيرية : وأولها الصرف على تعليم الدين واعداد الوعاظ والأئمة للمساجد التى تقام فيها الصلوات الجامعة فختوافر للأزهر مدد من ميزانية الحكومة وميزانية الأوقاف يكفى

لتنظيم وظائف التدريس ورفع المرتبات الى مستواه اللائق بطبقة العلماء ، وأقله في مبدأ الأمر لا يقل عن اثني عشر جنيها مشاهرة ، عدا الاعانات المرصدة من بعض الأوقاف الخاصة ، ومنها أوقاف السكن والجراية .

وتقرر تدريس العلوم الحديثة مع الترغيب فيها بالمكافأة الحسنة ، والترشيح لوظائف القضاء والتعليم .

ان المصاعب التي وجب تذليلها لوضع هذا التغيير موضع التنفيذ أطول شرحا من وجوه الاصلاح بكل ما اقتضاه بحثها وترتيبها والمضى في تنفيذ قوانينها واجراءاتها ، ولكن القارىء الذى لم يشهد ذلك العهد قد يتمثلها أمامه كلما تذكر الموانع التي كانت تعترض هذا التغيير ، وتذكر القوى الظاهرة والخفية التي كانت تدغم تلك الموانع وما تستطيع أن تثيره من زوابع القلق والسخط في أنحاء العالم الاسلامى بما رجب ، فضلا عن جوانب الأزهر وجوانب المدينة المصرية ، والقرية المصرية ، التي عرفنا علاقتها المتأصلة بذلك المسجد العتيق .

من تلك الموانع منافع الشيوخ الذين رفعت أيديهم عن موارد الأوقاف ، وامتنع عليهم جاه التصرف بكساوى التشريف ومنازل العنماء في المجتمع وعند ولادة الأمور .

ومن تلك الموانع لبانات المقدمين على الأروقة وأهواؤهم التي اقضى زمانها بانقضاء زمان التحكم في الجرايات والمساكن والطلاب والعلماء .

ومنها جاه العلم الذى ضاع على زمرة « السلفيين »

الجامدين بعد أن حفظوه لأنفسهم دون « الدخلاء » عليهم من رجال العلوم الدينية والعلوم « الدنيوية » على السواء .

ومنها جيوش الطلاب والمتطلعين الى الطلب ممن أحسوا وعورة الطريق بعد اقترابهم من نهايتها الميسرة لهم على « النظام » القديم ، وقد يزيد عليهم في العدد طلاب « الجراية » والمسكن بغير أمل في نهاية قط على نظام قديم أو جديد .

ومنها قوة الجهل المطبق والظن السيئ في عقول الدهماء الذين سمعوا من « الأئمة » المصدقين أن القول بدوران الأرض كفر براح ، وأن معلم الجغرافية مسخر من أعداء الدين ليعلم أبناء المسلمين أنها كرة مستديرة دوارة في الفضاء ، وأكفر منه من يعلمهم الطبيعيات ... لأن القول بالطبيعة انكار لوجود الله واثبات لوجود المخلوقات بطبيعتها دون وجود الخلاق .

ومنها ، ولعله يجمعها بحذافيرها ، سلطان ولى الأمر اذا أدرك بعد حين أن الاصلاح قد فوت عليه سلطانه وفوت عليه الغنيمة التي كان يجنيها لنفسه ويغدق منها الأجور على خدامه وحواشيه .



وتقول ان مناوأة الأمير لحركة الاصلاح الأزهرية تجمع تلك الموانع والعراقيل بحذافيرها اعتبارا بما عهدناه من أساليب الأمراء والملوك في اضطهاد المصلحين من رعاياهم كلما وقع الصدام بين أرباب التيجان ودعاة الاصلاح منذ أقدم العصور ،

فان الملوك والأمراء الذين يضيّقون ذرعا بدعوات الاصلاح قد جرت عاداتهم قديما باستفزاز رعاياهم واستشارة الجهلاء والمعرضين على قادة الراى فيهم ، لمدارة سلطتهم واخفاء مكيدتهم وتقويه سياستهم على الناس ، كى يتقبلوها منهم كأبها . استجابة لرجائهم وتلبية لمطالبهم وغيره على عقائدهم وشعائرههم ، فيحمدهم الناس على شروورهم وهم أخرى أن يضاعفوا لهم المقت بما أصابوا من افهامهم وعقائدهم فوق مصابهم فى المصالح والأرزاق . وقد كان الملوك والأمراء يخذعون شعوبهم هذه الخديعة وهم وحدهم فى بلادهم منفردون بسلطة الحكم وجاء الولاية ، فأما الخديو عباس الثانى فقد كانت معه سلطة أخرى . فى بلاده أقوى منه وأقدر على كبجه والحد من مآربه وأطماعه ، فكانت حاجته الى استشارة الجهلاء باسم الدين تزيد على حاجة أسلافه من أهل بيته وحاجة الأسبقين من زملائه فى أساليب الاضطهاد ، وقد أسف غاية الاسفاف وتبذل غاية التبذل فلم يدع وسيلة يدرك بها مآربه لم يتوسل بها غير مبال بما يعقبها من الأثر على سمعته وسمعة وطنه ، بل على سمعة دينه البرىء مما يفتره عليه وعلى أهله ، ولم يتورع — وهو أمير البلاد — عن التحريض على اثاره الشعب بين طلاب الأزهر وخدمته وعماله ، ولا عن تسخير الصحف التى تتجر بنهش الأعراض والمساومة على الفضائح والوشايات للاقتراء على مخالفيه وهو أعلم الناس بنزاهتهم عما يدعيه . وخلع نقاب الحياء فلم يتورع عن اتهام الاسلام والمسلمين بكراهة العلم الحديث وتصوير العلوم التى

أدخلها المفتى الى الأزهر في صورة الجناية على الدين ، ولم يبال
أن يعلنها حربا دينية بين الكفر والاسلام ، اذا تأتي له بذلك أن
يقصى الشيخ محمد عبده وكبار الموظفين من أعوانه عن ادارة
الأزهر كما يقصيه عن الاقتناء وديوان الأوقاف ، بل تطوع
بالوقوف تحت العلم البريطاني لاستعراض جيش الاحتلال ،
نعله يضمن بذلك أن يكف يد العميد البريطاني عن معارضته
فيما يتعلق من تلك المسألة بالميزانية ونظام الدواوين !



ومن البديهي أن الحديو قد عول على الدسياسة الخفية في
تدبير هذه الحملة الواسعة على المفتى وأعوانه بمجلس الادارة
ومجلس الأوقاف الأعلى ، ولكن الدسياسة التي يتآمر عليها
عشرات من المغرضين والجامدين والمأجورين لا تكتف عن الناس
في أوائها وان جازت فيها المغالطة أو المكابرة بين أنصارها
وخصومها ، الا أن التاريخ قد ينفذ يديه من دسائس هذه
الفترة جميعا ولا يحتفظ بشيء من أخبارها غير مراسيم الحديو
وخطبه المنشورة التي ألقاها في قصره ، ولا حاجة بالمؤرخ الى
بيان للدسياسة كلها أوضح من بيانها .. فانها ناطقة بدعواها
الظاهرة عن مكيدتها الخفية ، ودعواها الظاهرة أن تدريس العلوم
الحديثة في الجامعة الأزهرية خطر على الاسلام ، وأن المفتى
وأعوانه قد أبعدوا من مناصبهم لأنهم يصرون على تدريس تلك
العلوم .

قال الخديو في الاحتفال بخلع الكسوة على الشيخ
عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الجديد :

« ان الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة
دينية اسلامية تنشر علوم الدين الحنيفي في مصر وجميع الأقطار
الاسلامية وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء
سائدا في الأزهر الشريف . والشغب بعيدا عنه ، فلا يشتغل
علماءه وطلبته الا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيف
العقائد وشغب الأفكار ، لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شيء » .

وقد صدرت المراسيم بعد خروج الشيخ محمد عبده
باختيار شيخين من الحزب القديم لأكبر المناصب الدينية ، وهما
منصب الافتاء ومنصب مشيخة الأزهر ، فعين الشيخ عبد القادر
الرافعي مفتيا للديار المصرية وعين الشيخ عبد الرحمن الشربيني
شيخا للجامع الأزهر . فأما المفتي فقد توفي على أثر تعيينه فلم
يؤثر عنه عمل ولا قول في برنامج التعليم الذي يرتضيه رجال
العهد الجديد . وأما شيخ الجامع الأزهر فقد صرح برأيه في
حديث نشرته صحيفة الجوانب المصرية (١٣ مارس سنة
١٩٠٥) فقال عن رأيه في الغرض من انشاء الأزهر :

« ان غرض السلف من تأسيس الأزهر اقامة بيت لله يعبد
فيه ويؤخذ فيه شرعه ويؤخذ الدين كما تركه لنا الأئمة الأربعة
رضوان الله عليهم . وأما الخدمة التي قام بها الأزهر للدين ولا
يزال يؤديها فهي حفظ الدين لا غير ، وما سوى ذلك من أمور
الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغي له » .

ثم قال عن اصلاح التعليم : « ان الذى حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الدينى فيه ويحول هذا المسجد العظيم الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفىء نوره فى هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية وانى أسمع منذ سنوات بشيء يسمونه حركة فى الأزهر ، أو اصلاح الأزهر ، ولكننى لم أر لهذه الحركة وهذا الاصلاح من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى فى ربوعه » .

ثم قرن بين حركة الاصلاح والسياسة فقال : « انى رأيت الكثيرين من اخوانى خدمة العلم فى منصب المشيخة فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة وأشدهم فرارا من مظاهر الدنيا الباطلة » .



وهذا هو شرط « الأزهر » الصالح فى عرف المشيخة التى اختارها ولى الأمر لتعتدل به من طريق الزيغ والشغب الى طريق الايمان والأمان !

معهد يستبد ولى الأمر بإدارته وتعليمه ليستخدم سمعته الدينية فى تعزيز سلطانه وتوفير ثروته ، ثم يكل المشيخة فيه الى أناس يريدونه فى القرن العشرين مدرسة كبرى لا تعرف شيئا عن علوم « الأعصر » ولا تدرى شيئا عن الدنيا والديوان ، لأن كل شيء عن الدنيا والديوان انما هو سياسة تترك لولى الأمر ولا يحسن برجل الدين أن يعرض لها من قريب أو بعيد !

ومن تمام العلم بهذه السياسة التي نعاها الشيخ الصالح على المفتى وأصحابه أن نذكر أنها سياسة في صميم العمل الأزهرى ، لأنها سياسة الحاكم الشرعية ومساجد العبادة والتدريس ، وقد كانت من صميم السياسة التي أدخلها المفتى في برنامج الإصلاح بعد ولاية الافتاء ، وعلى أساسها تم الإصلاح اليسير الذي سمحت به الأحوال بعد ذلك بسنوات ، ولكنه لم يسلم قط من دسائس الخديو وخلفائه في دور التعليم وفي دور التوظيف ، فقد كان من أصعب الأمور تخريج قضاة يحكمون في المواريث ويبرمون العقود والمواثيق وينظرون في مشكلات الأسرة والوصاية على التركات وهم لا يعرفون شيئاً عن الحساب والرياضة وعن نظم الإدارة وتقاليده الدواوين ، وكان أصعب من ذلك حرمان طلاب الأزهر من وظائف المحاكم الشرعية قضائية وكتائية وهم ألوف يتخرجون بلا عمل ولا يستعدون بتعليمهم الأول لوظائف التدريس في المدارس الأميرية أو الأهلية ، وقد كان الخديو أشد المعارضين لانشاء المدرسة الخاصة التي يتخرج منها القضاة الشرعيون ، ولكنه كان لا يبالي أن يعلن الوعد بانشائها على حدة يوم كانت المسألة عنده مسألة الحملة على تدريس العلوم العصرية في الأزهر ، فقال في خطابه الذي تقدم ذكره عن تاريخ القضاة الشرعيين : « انه ستنشأ له مدرسة مستقلة يقصدها كل من يحصل على شهادة العالمية في الأزهر ويريد التوظيف في القضاء » .

وبهذا الوعد الذي أعلنه وهو ينوى المراوغة فيه خيل اليه

أله يسكت طلاب الأزهر وعلماءه عن تحريم العلوم العصرية وعن تخريج القضاة والموظفين الشرعيين من مدرسة خاصة ، غير الجامعة الأزهرية !.

أما اصلاح المساجد فقد كان مشروعاً من مشروعات الاصلاح الكثيرة التى عنى بها ذلك الرجل المغضوب عليه ، لأنه لا يترك موضعاً للاصلاح بمكان يسند فيه اليه عمل ، ولو كان من أعمال الاستشارة والمراجعة .

كان المفتى بحكم وظيفته عضواً فى المجلس الأعلى لديوان الأوقاف ، ومن عملها الاشراف على مساجد العبادة والتعليم فى الأقاليم . فكان أول ما نظر فيه انشاء ادارة مستقلة بالديوان تسمى ادارة المساجد وتتخصص لتعيين الأئمة والمدرسين فى مساجد المدن والقرى التى تتسع لالقاء الدروس على مثال الدروس العصرية بالجامعة الأزهرية ، ولزم من ذلك أن ترصد النفقات لتدبير الوسائل الصحية فى المساجد وما يلحق بها من أماكن الوضوء ، وأن يختار الأئمة من العلماء الأزهريين الذين يصلحون للخطابة والتعليم ونشر التربية العصرية من طريق الوعظ والارشاد ، وأن ترفع مكافآت الأئمة والوعاظ من جنيه واحد أو جنيهين فى الشهر الى المرتب الذى يناسب طبقة العلماء والمدرسين ، واشتمل التقرير المتقدم الى المجلس الأعلى بديوان الأوقاف على تفاصيل لهذه اللائحة - لائحة المساجد - تبسط الغاية من هذا المشروع لولاية الأمور ، وهى تزويد البلاد بقوة من قوى التربية الاجتماعية واليقظة الوطنية ، تحقق

للأمة مقصدا لا يقل في أثره الواسع عن أثر المدارس والجامعات -
ولو كتب لهذا المشروع أن ينفذ على الوجه الأمثل لخلق
تلك العناية في مدى سنوات ، ولكنه لم يكد ينتهى الى علم
الخديو قبل عرضه على المجلس الأعلى ، حتى تحركت دواليب
الدسياسة لاجباطه والتشهير به في كل مكان ، ولم يكن من
السهل أن يجترىء أحد على التشهير بمشروع كهذا المشروع
لا يختلف في نفعه رأيان ، ولكن الحجة التي لا يسندها الرأي
قد تسندها حروف الموائيق المطوية في أضياب الديوان ، وليس
في تلك الموائيق نص على المباخر الصحية ولا على دروس التربية
الاجتماعية ، وليس لكل مسجد وقف محبوس عليه يكفي
لمرتب الامام العالم وتكاليف الدراسة العامة ، وقد يجوز للناظر
على الأوقاف عامة أن يرصد تكاليفها جملة ولا يفرقها أجزاء
ينفصل بعضها عن بعض بادارته والاشراف عليه ، ويجوز له أن
يتم النفقة على المسجد بالنفقة على سائر الخيرات التي لم
يقيدها الواقفون بوجه من وجوه الاتفاق غير وجوه الاحسان ،
ولكن الناظر العام على الأوقاف يصنع ذلك اذا كان من همه أن
يصنع الخير حيثما وجد السبيل اليه ، ولكنه يقف عند كل حرف
من حروف الحجج المطوية اذا كان من همه غير ذلك أو كان من
همه - على عكس ذلك - أن يعلق الباب دون كل مشروع من
هذه المشروعات العامة تتحول اليه مصارف الأوقاف وتخرج
بذلك من قبضة يديه ، وقد كان القاضي الأكبر في القاهرة لذلك
الحين يتولى منصبه بالارادة السلطانية من دار الخلافة العثمانية ،

وكان ينقم على المفتى رأيه فى استقلال مصر عن السيادة التركية ، وينقم عليه فوق ذلك مكاتته فى البلاد الاسلامية وهو فى رأى نفسه أولى بتلك المكانة من مفتى القاهرة التابعة لمقر الخلافة فى الآستانة ، فلم يكن أيسر من حمله على الحكم بمخالفة المشروع لشروط النظارة واحتجاجه على تنفيذه بغير اذن من صاحب الولاية الشرعية ، ولم تكن شئون المساجد مما يعرض على الوكالة البريطانية لأنها من صميم المسائل الدينية التى تعهدت باجتناى المساس بها فيما أعلنته من سياستها العامة ، ولكن ولى الأمر الشرعى أرسل اللائحة الى دار الوكالة ، ثم أبلغها احتجاج القاضى الأكبر عليها ، وأراد مرة أخرى أن يرفض مشروعاً من أنفع المشروعات لبلده ، لأنه مشروع يأباه الدين ويخشى أن يعرضه لاستنكار دار الخلافة وتدخل الوكالة البريطانية !.



أما الرجل المغضوب عليه لأنه مصاب بداء الاصلاح ... فقد لاحقه ذلك الداء العضال الى عقر داره بعين شمس ، ففارق الجامعة الأزهرية وهو يفكر فى خطته الأولى التى اقترحها على أستاذه السيد جمال الدين فى مقبيل صباه ، وراح يعد العدة لافتتاح مدرسته الى جوار بيته لتخريج الدعاة ورسى الاصلاح ممن يتقبل دعوته ويؤمن بمقاصده ، وتمت العدة لذلك ، أو كادت ، لو لم تدركه المنية قبل موسم العمل ، فقضى نحبه صيف ذلك العام بعد اعتزاله ادارة الأزهر بثلاثة شهور .

مع عباس الثاني

في سيرة محمد عبده شخصان مهمان كان لكل منهما أثر كبير يفرد بالكتابة عنه في تاريخ حياته العملية : هما جمال الدين الأفغاني وقد تقدم الكلام على أثر التعاون بينهما في دعوة الإصلاح وحركة النهضة ، وعباس حلمى الثانى خديو مصر بعد الاحتلال البريطانى ، وسنقصر الكلام عليه في هذا الفصل ملتزمين فيه ما يستطيع من الإيجاز .

كان جمال الدين مثلاً للقوة المؤيدة الموجبة ، وكان عباس الثانى مثلاً للقوة المعطلة السالبة : أولاهما قوة روحية مستمدة من عظمة الأستاذ وعظمة تلميذه في وقت واحد ، وثانيتها قوة مادية مستمدة من سلطان المنصب وظروف السياسة ، يكاد الذكاء في صاحبها أن يكون لغوا لا يذكر فيما يعنينا من هذه السيرة ، لأنه لا يقدم ولا يؤخر في مركز الحكم الذى يستعين به الحاكم على المقاومة والتعطيل ، فكل حاكم في مركز عباس الثانى كان مستطيعاً أن يصنع ما صنعه في خصومته للأستاذ الامام .



جلس عباس حلمى على الأريكة الخديوية بعد أبيه « محمد

توفيق « خديو الثورة العراقية ، وبعد جده اسماعيل الذى عزلته
دول الرقابة الثنائية - انجلترا وفرنسا - بموافقة السلطان
العثمانى صاحب السيادة الشرعية على البلاد .

وكان دون الثامنة عشرة حين توفى أبوه ، فوجب أن تفرض
عليه الوصاية الى أن يبلغ سن الولاية ، وكان السلطان العثمانى
هو « صاحب الاختصاص » باختيار الوصى أو الأوصياء .
ولكن المحتلين تدخلوا فى الأمر واحتالوا على اتفاق هذا
الاشراف الفعلى على الدولة المصرية ، فحسبوا السنين بالحساب
الهجرى رعاية لدين الأمير ودين الخليفة ، وانحلت الأزمة على
هذا النحو حلا يرضاه الأمير ويبغضه ، لأنه يعفيه من الوصاية
ويثبت له غلبة النفوذ البريطانى على شئون السياسة العليا فى
بلادهم .

جلس على عرشه وهو مقسم النفس بين هذين الشعورين ،
ولكنهما فى الواقع ينتهيان الى شعور واحد بسطوة الاحتلال
واقتياته على حقوقه وحقوق الدولة التى يتلقى أمر التعيين
« بفرماناتها الشاهانية » .

وملكته حماسة السن بين الحذر والاندفاع فغلبت فى نفسه
الفتية نزعة التحدى على نزعة الحذر ، وواجه المحتلين بالمعارضة
التي لم يألّفوها من أيّيه بعد اعترافه لهم بحماية عرشه ، فأقبل
عليه أنصار الحركة الوطنية من المتطرفين والمعتدلين ، وحف به
أبناء الجيل الجديد من أئداده فى السن ومن الشبان الذين

ييكبرونه سنا ولكنهم لم يشهدوا صدمة الاحتلال ولم يحتملوا
خيبة الثورة العرابية .

وكان للأمير الشاب رأى صائب في الثورة العرابية وفي
مسلك أبيه معها ومع المحتلين .

كان بطبيعة الحال ينفر من الثوار ويسميهم بالعصاة كما
يسميهم جميع أبناء بيته ، ولكنه كان يتقبل العذر من بعضهم
لأنه كان لا يرى أباه من بعض الخطأ ومن بعض الضعف في
علاج الثورة وعلاج الأزمات الأجنبية ، وكثيرا ما ستمع في
بداءة حكمه وهو يسخر من أبيه تلك السخرية التي عابها عليه
لورد كرومر في كتابه عنه ، ويقول لمحدثيه : سامح الله الوالد
الطيب . لو كنت في مكانه لما فعلت هذا ... أو لو كنت في
مكانه لما سمحت نفسي بذلك ! .

ورأيه هذا في أبيه هو الذي أنساه ممالة الشيخ محمد عبده
للثورة في دورها الأخير ورغبته في الاطلاع على تاريخ لتلك
الثورة يكتبه رجل يعرف أخطاء الثوار ويعرف أخطاء ولى الأمر ،
عسى أن يستفيد لنفسه من تجربة الحوادث التي عرضت أباه
للثورة وعرضته وعرضت الثوار معه لكارثة الاحتلال .

وفي إحدى المقابلات التي لم تكن قليلة بينه وبين الشيخ
محمد عبده شكى الأمير للشيخ ما يلقاه من عنت المحتلين
وحجرهم عليه وعلى وزرائه ووقوفهم دون ما يرجوه لبلده من
الخير والقوة ، فاغتنم الشيخ هذه الفرصة السالحة وذكره بما
يستطيعه من أسباب الخير والقوة معا في المعاهد التي له الولاية

عليها ولا ولاية عليها للمحتلين ، وهى معاهد الأزهر والأوقاف .
والمحاكم الشرعية ، فراقه حديث الشيخ وكلفه أن يعود اليه
بشرح مستفيض لوجوه الاصلاح المطلوب ، وانتقل برنامج
الاصلاح فعلا من تلك الفتوى المهمة - فتوى الشيخ الانبأى
- الى العمل الحثيث على تنفيذ مطالب الاصلاح الأزهرى فى
الادارة والتعليم ، ومضى العاملون فى عملهم الناجح بضع
سنوات ، تغيرت فيها سياسة الخديو مع المحتلين ، فلقى منه
المصلحون شرا ما يلقاه دعاة التقدم من دعاة النكسة والجمود ..



وتبين بعد الواقعة الكبرى بين عباس الثانى والمحتلين أن.
النزاع كله فيما بينهم انما كان نزاعا على نفوذ الحكم ولم يكن.
نزاعا على حقوق الأمة ولا على مبادئ القضية الوطنية ، وأن.
عباساً كتوفيق واسماعيل من قبله ، ينازعون السيطرة الأجنبية.
باسم الأمة تارة واسم الحقوق الدستورية تارة أخرى ولا يعنيه.
فى الواقع الا أن يستبدلوا سيطرة فى أيديهم بسيطرة فى أيدي.
الدول الأجنبية ، ومن طلب منهم الحكم النيابى وشجع الأحرار
من رعيته على طلبه فانما يتخذ الحكم النيابى حجة على الدولة
البريطانية عند شعوبها لأنها تؤمن به فى بلادها ، ويلتمس من.
وراء ذلك أن يحكم من وراء النواب والوزراء ويستعيد لنفسه.
كل سلطانه المحدود ، أو يستعيد القليل من الكثير فى مسائل
التولية والعزل ومسائل الصرف والمنع على الخصوص .

وقد جرب طلاب الدستور أساليب اسماعيل وتوفيق في هذه المناورات ثم جربوا أساليب عباس بعدهم فتكشف لهم عن ولع بالاستبداد في عباس لم يتكشف لهم مثله من أبيه وجده . لأنه لم يكذب يظفر بقليل من السلطان على عهد سياسة الوفاق بعد عزل لورد كرومر حتى انقلب على شيعته وشيعة الحركة الدستورية ، فساقهم الى السجن واحدا بعد واحد ، ثم ألجأهم الى المنفى باختيارهم فرارا من السجن والمصادرة .

- ولاح له شبح العزل بعد الواقعة الكبرى بينه وبين المحتلين فقنع بالقليل الميسور ، واستعاض عن وفرة السلطان بوفرة المال يتهاقت عليه حيثما وجد السبيل اليه ، بل ظهر للأمة قصارى أملهم من المحتلين بتسمية الحزب الذي ينتمى اليه ويرصد صحيفته للدفاع عنه في جميع أطواره وتقلباته .. فقد سماه « حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية » ايذانا للمحتلين بالتسليم لهم بدعوى الاصلاح والقناعة منهم بالمبادئ الدستورية دون الدستور الكامل على أساس سلطة الأمة ، ولم تذكر في عنوان الحزب كلمة عن الاستقلال ولا عن الحرية الوطنية ، كأنهما على الأقل مطلب مؤجل الى ما بعد الفراغ من اصلاح الأداة الحكومية الذي ارتهن به المحتلون موعد الجلاء ... فلا جلاء اذن وفي الأداة الحكومية خلل يأخذونه ويدعون على هواهم أنه لا يزال بحاجة الى الاصلاح .

وقد أشرنا الى الواقعة الكبرى التى كانت نقطة التحول فى سياسة الخديو عباس الثانى مع المحتلين ، فنذكر فى هذا السياق أنها هى الحادثة التى اشتهرت بحادثة الحدود واصطدم فيها الخديو بسردار الجيش المصرى - الجنرال كتشنر المشهور - لأنه صرح للسردار بانتقاده لحركات الفرق العسكرية ووجه انتقاده - على الأكثر - الى الفرق التى يقودها الضباط الانجليز . فاستقال السردار وطلبت الوكالة البريطانية ترضيته واضطرت الخديو الى استرداد كلماته وتوجيه ثنائه الى الفرق التى أعلن انتقادها عند عرض الجيش على الحدود ، ففعل راغما وهو يعتقد أنه نجا من خطر العزل بقبول هذا الارغام .

حدث هذا فى أوائل سنة ١٨٩٤ ... وقبل نهاية السنة كان الشيخ محمد عبده على اتصال بالخديو يزوره فى قصر عابدين - مقر العمل الرسمى - تارة ويدعى لزيارته أحيانا فى قصرى القبة والمنتزه حيث يقضى الخديو سائر أوقاته فى أعماله غير الرسمية ، وكان يصحبه فى مبدأ هذا الاتصال محمد ماهر باشا الذى كان يدعى يومئذ ببطل حادثة الحدود ، لأنه كان وكيلا لنظارة الحربية وكان على نزاع دائم مع السردار حول اختصاص الوكيل والقائد العام فى شئون الجيش وإدارة الاستعلامات السرية ، وقد اصطحبه الخديو فى رحلته الى الحدود وشاع بعد ذلك أن الجنرال كتشنر تعمد خلق الأزمة والتهويل فيها لأنه غضب من اصطحاب الخديو لخصمه واعتبره انتصارا له عليه .. فبيت النية على خلق الأزمة التى تزج بالدولة البريطانية فى

«الخلاف بينه وبين الوكيل والتسليم له بالرأى النافذ في الجيش
وفي ديوان الوزارة .

قال « أحمد شفيق باشا » في مذكراته وهو من رجال
الحاشية الخديوية وكان في صحبة الخديو أثناء هذه الرحلة :
« ترجع حركة الاصلاح الحديثة في الأزهر الى أواخر سنة
١٨٩٤ . وذلك أن الشيخ محمد عبده لما رأى من عباس جرأته
وجهاده للأخذ بناصية الحكم والحد من تدخل الانجليز مال اليه
بوتقرب منه بواسطة محمد ماهر باشا ، فاستقبله عباس بترحاب
وعطف ومال اليه أيضا لما آتسه فيه من صدق الوطنية وأصالة
الرأى ، وتقابلا مرارا بصفة غير رسمية في عابدين والقبة
والمنتزه ، وتحدثا فيما يمكن عمله من خدمة الوطن وتحقيق
أمانيه ، فاقترح الشيخ عليه أن هناك ثلاث نواح لا تزال بعيدة
عن تدخل الانجليز ولا يعارضون الخديو في العمل لاصلاحها
لأنها دينية محضة ، وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ،
وأشار على سموه أن يبدأ باصلاح الأزهر واتفقا على أن يقدم
الشيخ الى سموه مذكرة بما يراه من وجوه الاصلاح » .

وكتب الشيخ محمد عبده المذكرة وانتهى البحث فيها الى
تأليف مجلس الادارة من خمسة أعضاء ، ثلاثة منهم هم أكبر
علماء المذاهب في الأزهر وهم : الشيخ سليم البشرى المالكى
والشيخ عبد الرحمن الشريينى الشافعى والشيخ يوسف
الحنبلى ، والعضوان الآخران هما الشيخ عبد الكريم سلمان
والشيخ محمد عبده من العلماء المعينين لوظائف الحكومة .

ولكن الشيخ عبد الرحمن الشرييني أنكر مبدأ الإصلاح،
من أساسه ، فاستقال قبل شروع المجلس في عمله ، ولم يقبل.
بعد ذلك عملا في ادارة الأزهر الا بعد اجماع النية على اقضاء
الشيخ محمد عبده من مجلس الادارة والعودة بالأزهر الى منهجه
القديم ، فاختره الخديو لمشيخة الأزهر — كما تقدم — على
هذه النية .



تلك كانت قصة الملتقى التاريخي بين أعظم رجلين في مصر.
لذلك الحين .

أعظم رجل في مصر بعرضه الموروث وولايته الشرعية.
وحقوقه الرسمية .

وأعظم رجل في مصر برجاجة لبه ومتانة خلقه وعلو همته
وصدق غيرته على حرية وطنه والنهوض بأمته .

أراد الأمير بتقريب الشيخ اليه أن يستعين به على تعويض
السلطة التي انتزعها الانجليز منه بسلطة في مجاله المأمون لا تمتد
اليها يد الانجليز ، وأن يقيم الحجة عليهم في دعواهم التي
يلهجون بها ويتذرعون بها لتسوين رقابتهم على دواوين
الحكومة واطالة أمد الاحتلال ، وهي دعوى الإصلاح ، فان
الادارة التي تنقل الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية من
الفوضى الى النظام لا تعجز عن اصلاح ديوان من دواوين

الحكومة قديم عهد بالنظام « العصري » مهما يعرض له من عوارض الاختلال .

وأراد الشيخ بالتقرب الى الأمير أن يسند ولى الأمر فى محنته مع السلطة الأجنبية ، وأن يستفيد من رغبته فى العمل سندا للمصلحين وعونا له على رسالته المرجوة من قديم ، وليس بين يديه — بعد عودته من منفاه — مجال أنفع من هذا المجال من طريق الايمان الصادق والتعليم المفيد .



ولكن الحديو لم ينس حب السلطة الذى ساقه فى الحقيقة الى طريق الاصلاح فى هذا المجال الواسع ، ولم يلبث أن علم أن رجلا كالشيخ محمد عبده جدير أن يعينه فى كل مهمة من مهام هذا العمل الكبير ، الا أن يكون عونا له على تسخير الأزهر ومحاكم الشرع ومرافق الأوقاف للسلطة التى تفعل ما تشاء ، لأنها خلصت فى هذا الجانب من قيود المحتلين .

واشتد طغيان هذه الآفة على نفس الأمير بعد اضطراره الى مصانعة المحتلين ، فانه أراد له مجالا لا يلجأ فيه الى مصانعة أحد من رعاياه المسخرين له من باب أولى ، ولجت به هذه الآفة لجأها المخيف حين زين له فقدان السلطة أن يتهافت على جمع المال من كل مورد مفتوح بين يديه ، ووجد هذا المورد مفتوحا على مصراعيه فى خزائن الأوقاف ووصايا التركات وفى احتكار السيطرة على المحاكم الشرعية التى يتخرج قضاتها من بين يديه .

ولم تمض فترة التمهيد للإصلاح والتنظيم في مجال الدواوين الدينية حتى كان للخديو مسلك آخر مع الشيخ محمد عبده وأعوانه ومريديه . فهو يستبقيه لالتفاف بقدرته وشجاعته ، بل للاحتماء بمكائنه الدينية أحيانا في وجه السلطة الأجنبية ، ولكنه يحاذر أن يسلمه زمام التصريف والتدبير في مركز من مراكز الأزهر المستقلة ... فتخطاه في التعيين لمشيخة الأزهر مرتين ، وكان ترشيحه لمنصب الافتاء في الواقع حيلة مستورة لإبعاده عن المشيخة ، وهو أجدر بها وأقدر على الإصلاح فيها من كل من تولاها على عهد الخديو عباس ، وهو أعرف برجحانه عليهم من سواه . . .

وسر " آخر بعيد جدا من هذا المجال يرجع اليه هذا المسلك المتبدل من جانب الأمير . . .

فانه كان يطمح الى الخلافة ويريد أن يستمد من سمعة الأزهر وعلمائه في العالم الاسلامي سندا دينيا يرجحه على أمراء المسلمين الذين ينفسونها على السلاطين العثمانيين ، وكان يرجو من مصانعة المحتلين أحيانا أن يعاونوه بالسند السياسي وأن يؤيدهم في المحيط الدولي بيت سقوا الايطالي صديق الأسرة العلوية القديم . ومصلحته في ترشيح الخليفة المصري أن تدين له اليمن وشواطئ البحر الأحمر لأنه صديق الخليفة المطاع ، ولا يأبى المحتلون هذه المصلحة للدولة الايطالية ، لأنها دخلت معهم في المساومة على أملاك الدولة العثمانية واتفقت معهم على نصيبها من المستعمرات : اليمن وأرتريا والصومال ، فضلا عن

مصلحة الدولة البريطانية بين مسلمى الهند وغيرهم فى قيام الخلافة فى بلد يهيمنون عليه ، ولم يغفل عبد الحميد - بلقعة آل عثمان - عن هذه المساعى الخفية ، بل فطن لها واحتجز عنده جمال الدين الأفغانى لكيلا يعود الى القاهرة ويؤيد هذه الحركة بنفوذ. ونفوذ تلاميذه من المصريين والشرقيين . وحدث لما قام الخديو عباس بزيارة دار الخلافة للمرة الأولى أنه التقى هناك بجمال الدين فاستدعى هذا اليه على الأثر وسأله : أتريد أن تجعلها عباسية ؟ يريد أنه يتآمر مع الخديو على اسناد الخلافة اليه . فكان جواب السيد : ان الخلافة ليست خاتما فى يدي أضعه فى اصبع من أشياء ، ولم يفقد عباس الأمل فى الخلافة بتأييد جمال الدين أو غير جمال الدين ، ولم يخف عليه أن « محمد عبده » هو زميل جمال الدين فى سمعته العالمية بين المسلمين ، ولكنه علم بعد ذلك موضع الخلاف بين جمال الدين ومحمد عبده فى خطة السياسة ، وأن هذه الجهود السياسية حول الخلافة وما شابها لا تجرى مع برنامج عمله وليست مما يصرفه عن خطة الإصلاح من طريق التربية والتعليم متى وجد السبيل اليها ، فيئس من موافقته على هذا المسعى ، وكاد أن يحسبه عقبة يتخطاها قبل توطين النفس على نجاحه بموافقة سواه .



ولا نسهب فى احصاء حوادث الخلاف التى تتابعت بين الخديو والمفتى واستحكم من أجلها الجفاء فى النهاية بين هذين

الرجلين اللذين خلقا للتعاون في هذا المجال الواسع لو كانا
للتعاون محل بين الاستبداد والعمل المستقيم ، فان من حوادث
تلك السنين سفاسف وصغائر لا جدوى من تعدادها ، ومنها
مدسائس ومكايد ليس أيسر من المواربة فيها ، ولكننا نذكر منها
ما يدل على طبيعتها التي يأبأها كل اصلاح ، ولا ينتظر من رجل
« ذى خلق وكرامة أن يغضى عنها أو يترخص بينه وبين نفسه ، أو
بينه وبين الناس ، في قبولها .

فالخديو كان ينفق من أموال الأوقاف العامة على أوقاف
أسرته وعلى مزارعه الخاصة ، فكف يده عن ذلك فصل الحسابين
ومراجعة المجلس الأعلى للمصارف والموارد في « ميزانية
الديوان » ... ولجأ الى الحيلة - مع تشديد الرقابة على
الميزانية - فاصطنع طريقة الاستبدال لحمل الديوان على اقامة
المباني وتعمير الأرض البور وعرضها بعد ذلك للمبادلة بينها
وبين مزارعه التي لا تساويها في القيمة ولا في الجودة ، وكان
أشهر هذه الصفقات صفقة أرض « مشتهر » وأرض ديوان
الأوقاف التي أعدت للبيع في الجزيرة بثمان أرض البناء ، وفرق
ما بينهما من الثمن لا يقل عن ثلاثين ألف جنيه ، وظاهر الأمر أنها
مبادلة بين مسيو زرفوداكي اليوناني الذي عرض على الديوان
مزرعة مشتهر باسمه وقسم المباني في الديوان ، ولسوء حظ
الخديو أن موظفا من كبار موظفيه في القصر كان مندوبا عن
ولى الأمر بالمجلس الأعلى فكان رأيه كراى المفتى في هذه
الصفقة وآراء الخبراء المختصين بتقدير المبادلات ، وثبت من

معايثهم أن هناك نقصا في تقدير أحد البدلين وزيادة في تقدير
البدل الآخر تبلغ جملتهما خمسين ألف جنيه ، فغضب الخديو
على موظفه الكبير وعزله من خدمته لأنه لا يسأل عن سبب عزل
الموظفين في ديوانه ، ولكنه لم يستطع عزل المفتى لهذا السبب
ولا كان في حدود سلطته القانونية أن يعزله لغير سبب ، فتمحل
الأسباب للسخط عليه في غير مسائل الصفقات التي يتحاشى أن
تثار للقييل والقال .

وكادت أوامره في الأزهر أن تكون الغاء تاما لقوانينه التي
وضعت لترقية أحواله وصيانة الكرامة الواجبة لعلمائه ومنع
العبث بدرجاته العلمية ومراتبه الدينية . فلم تكن كساوى
التشريفه لعلمائه بأسعد حظا من الرتب والنياشين التي كانت
تباع في الأسواق بأسعارها المحدودة لكل درجة من درجاتها .
سوى أن الرتب والنياشين تباع بالمال وكساوى التشريفه تباع
بالخدمات والسعایات في سوق الدعاية أو سوق المتاجرة باسم
الدين ، وانه لمن أغرب الخواطر التي خطر للخديو أن يسوم
المجلس عليها أن يرسل الى أحد الأعضاء من يقترح عليه
الاستقالة ويأمر رئيس المجلس أن يطلب كسوة التشريفه من
الدرجة الأولى لامام قصره تمهيدا لتعيينه خلفا للعضو المستقيل ،
وبهذا يتطوع المجلس لتحويل هيئته الموقيرة الى أداة تجرى
أهواء الخديو ولبائاته مجرى القوانين وتحوى تبعاتها أمام
الناس على الرغم من أنوف المخالفين له من الأعضاء ، ولا يبقى
بعد ذلك أعضاء ينتظر منهم الخلاف غير محمد عبده وصاحبه

عبد الكريم سلمان . فلما تأخر صدور الطلب من شيخ المجلس بالانعام على امام القصر بالكسوة المطلوبة قال له مؤنبا في محفل التشريفات : ألم آمرك بتوجيه كسوة التشريفة الى امام معيتى بدلا من الشيخ الذى ينوى أن يستقيل ؟ فتلعثم شيخ الجامع وبادر الشيخ محمد عبده الى الجواب قائللا : ان المجلس انما يعمل بالقانون الذى أصدره سموه ، فاذا بدا لسموه أن ينقضه ليجرى الانعام بالكساوى العلمية على حسب رغبات سموه الشخصية فهو صاحب الشأن فى اصدار القانون بالنظام الجديد .

وأكبر الظن عندنا أن تفويت المنافع لم يلهب من ضرام الغيظ فى نفس الأمير ما ألهبه هذا الجواب الصريح من مفتى الديار . ومن مفتى الديار هذا ؟ إنه عند العالم الاسلامى أكبر مقام دينى علمى فى زمانه ، ولكنه عند الأمير لا يعدو أن يكون فلاحا بين ألوف الألوف من أولئك البعيث الأرقاء الذين خلقوا للسمع والطاعة عند كل أمر وكل سؤال .

واذا صح أن يكون ضرام الغيظ عذرا للمتسلط المستبد المغلوب على استبداده فهذا هو العذر الذى قد يفسر ذلك الاسفاف الذى هبط بالأمير الى الدرك الأسفل فى حقه على ذلك الفلاح الجرىء واستباحة ما لا يستبيحه الكريم ، ولا اللئيم العاقل ، فى الكيد له والسعى الى اجلائه عن مقامه : مقامه فى منصبه ، ومقامه فى أعين الناس بين مشارق الأرض ومغاربها ، ولم يكن ليخفى عليه أنه كان أعظم مقام فى بلاد الاسلام .

ولولا الحقد الذى يسلب المرء رشاده لما سمح أمير في مركزه أن يخطب علانية ليجعل العمل على انهاض المسلمين بالتعليم الصالح زينا في العقيدة ومروقا من الدين ، وليسند مشيخة الجامعة الاسلامية الكبرى الى رجل يقول ان تعليم هذا العلم يحو الدين ويزرى بعلماء المسلمين .

ولولا هذا الحقد لما استباح لنفسه أن يحبط كل عمل لذلك المصلح الكبير حتى العمل الذى جهد فيه جهده طول حياته لبراء المسلمين من داء الخمول واقتاذهم من الأوهام التى تعوقهم عن اللحاق بجيرانهم في ركب الحضارة لسوء فهم الدين واختلاق الموانع التى يزيّفها الجامدون باسم الشرع المظلوم .

فقد كاد المسلمون الاسيويون أن ينعزلوا عن سكان افريقية الجنوبية ويفقدوا وظائفهم وأشغالهم فيها لشيوع تلك الأوهام بينهم وكثرة المرجفين بالتحريم والتحليل بين أدياء الدين فيهم ، وقد تعاقبت على تلك البلاد هجرة المسلمين من الهنود والعرب واختلاطهم بأبنائها الأصلاء ، فدخل في الاسلام طوعا ألوف من الافريقيين السود لما أنسوه من سماحة هذا الدين وسلامته من شوائب المحظورات التى تكثر في عباداتهم كما تكثر في عبادات بعض الأوربيين والأسويين ، ثم حالت هذه الحال زمنا بعد ازدهام البلاد بالأوربيين وخضوع أكثرها لحكوماتهم أو جماعات التبشير منهم ، فتخرج المسلمون أنفسهم من مجارة أولئك الغرباء الطارئین عليهم ، وقعدت بهم وساوسهم الدينية عن كفاح الحياة معهم ، تخرجوا من مجارة القوم في

عاداتهم وأزيائهم ، وخسر الاسلام زمنا ما كان يكسبه من سهولته وقلة قيوده في أحوال المعيشة قبل وفود الأوربيين ، فأعرض عنه أبناء البلاد الأصلاء وهانت مخالفته على طلاب الرزق الذين تضطروهم مطالب العيش الى مشاركة الأوربيين وغير المسلمين الأسيويين في مرافق أعمالهم ، ومن ذا الذي يقوى على زحام العيش في بيئة يخشى فيها أن يلبس القبعة وأن يتناول الطعام من العلب المحفوظة وأن يؤدي الصلاة في مسجد له امام على غير مذهبه بين المذاهب الأربعة ؟

هذه وأمثالها كانت عوائق المعيشة ، بل عوائق التدين بالاسلام ، في معترك الحياة بين المسلمين وجيرانهم من سكان افريقية الجنوبية والشرقية ... وفي هذه وأمثالها كانت أسئلة الاستفتاء تتوارد على مفتي الديار المصرية فيجيب عنها وهو يعلم خطر الاجابة التي يجيب بها من يجهل ظروفها وعواقبها ، وكانت احدى هذه الفتاوى تلك الفتوى التي شغلت صحافة مصر ، وصحافة العالم الاسلامي ، عدة أشهر باسم فتوى الترنسفال ، وتنتجتها في بضعة أسطر أن الشيخ المفتي أباح للمسلم أن يلبس القبعة وأن يأكل من طعام أهل الكتاب كما ورد في القرآن الكريم ، وأن يؤدي الصلاة وراء كل امام يدين بالاسلام .

هذه هي الفتوى وهذه هي ظروفها وعواقبها التي نظر اليها مفتي مصر في اجابته عنها .

ولم يبح المفتي عادة واحدة كان يحرمها الحديو وحملة

الأقلام الذين سخرهم في الحملة الشعواء على فتوى الترنسفال ،
فانهم كانوا جميعا يلبسون القبعات ويأكلون في المطاعم الأوربية
وفي بيوت الأجانب ويعشون الولاثم « الرسمية » وغير الرسمية
داخل القطر المصرى وخارجه . ومن شهد منهم ضلوات الجمع
فانما كان يشهدا وبمع مئآت من المسلمين من أتباع المذاهب
الأربعة ... ولكن الفتوى عمل من أعمال المقتبى يجب احباطه
والتشهير به وتنفير الناس منه مهما يكن في ذلك من الضرر
بالاسلام والمسلمين . وقد يكون في ذلك اعراض الوطنيين
السود عن الاسلام بعد اقبالهم عليه ، وقد يكون فيه تعويق
لجهاد المسلمين المهاجرين عن كفاح الحياة في افريقية الجنوبية مع
سائر المهاجرين الذين تعفيهم عقائدهم من تلك القيود ، وقد
يكون فيه استخفاف المسلم بتكاليف دينه اذ ثقلت عليه في
لبسه ومأكله وعبادته مع أبناء ملته ووطنه ، وقد يكون فيه
المساس بسمعة الدين بين أهل الحضارة وتمثيله لهم في صورة
العقبة المتحجرة التى تأبى على المسلم أن يجتمع على معيشة
واحدة مع أبناء الحضارة الأوربية ... وقد يكون فيه كل ذلك ،
بل كان فيه كل ذلك لو أفلح كيد المضللين كما أرادوه . ولكن
ماذا يعنيهم ذلك كله اذا اشتفت صدورهم من الرجل المغضوب
عليه وأفسدوا عليه عمله في خدمة الاسلام والمسلمين أو في خدمة
ما يشاء من مقصد عام ، ما داموا لا يجدون له مقاصد خاصة
يفسدونها عليه ؟

الى هذا الحضيض أسفّت جماعة الحملة على فتوى

الترنسفال ، ولا نطن أن نكل الكثر أو القلقل من كلامهم الذى
ملاؤا به الصلصف بضعة أشهر يزىء القارىء علما ببلنل ذلك
الاسفاف ، فان الاتجار باسم الدين لمحاربة الدين هو عنوان
عملهم الوضلع ، وانه لعنوان يلى عن أسوأ ما كلبوه تخته من
كذب فاضل وهراء مرذول .

وألس من هذا الكذب وهذا الهراء أن سلبوا عرض
الرجل بالتهم التى يعلمون أنها باطل مائلق لأنهم هم الذين
اختلفوه وروجوه . فقد كان قراء الصلصف المصورة لذلك
العهد لجهلون الكثر عن صناعة التصوير الشمسى التى يعرفها
اليوم عامة القراء ولىحسنها بعض هواة التصوير كما لىحسنها
اللبراء المائلصون بتدبير المناظر للصلصافة المصورة .. ومن أسرار
تلك الصناعة التى كانت مجهولة يومئذ عند عامة القراء أن لىلق
المصور رسما واحدا من ثلاثة رسوم أو أربعة متفرقات ، فهذا
التلفلق هو الذى توسلوا به الى خءاع العامة بصورة للمفتى
فى حلبة الرقص لىلاصر فتاة افرنجية ولبها لىعبت بأطراف
لبته ، ولو استطاعوا المبالغة فى رص المائلصورات لىمىعا فى منظر
واحد لتماموا هذا المنظر بكأس من اللمر وصفحة من لم
الخنزير ، ولكنهم عجزوا عن لىمعها فاكلتقوا من المائلصورات
بمائلصور المفتى مع امرأة لىغازلها ولىراقصها ولىصلحبها للبها فى
حلبة الرقص على لىر المألوف فى مراقص القوم . ولىل اللىهم
أنها رلبة لا تءفع وءلقل من أءلة الالبات لا لىءلص ، ولكن
الصورة ألىلت على التلقلق القضائى فلم تثبت على امائلعان

الخبراء ولا على المعالجة بأدوات التحليل والتكبير ، وأدين صاحب الصحيفة التى قبلت أن تنشرها لهم بين صحف الخلاعة التى سخروها لحملتهم ، واسمها « حمارة منيتى » يغنى عن المزيد فى الدلالة عليها ... والى قصة هذه الصورة يشير اللقائى رحمه الله فى بعض آياته اذ يقول :

مكيدة لفقوها بصورة مستعارة
ودبروها وكانوا بقبة الاستشارة
ولطخوا بعدها هذا بالطين وجه الحمارة

ويعنى بالقبة قصر الأمير المعروف ، لأنهم دبروا فيه هذه التلغية وكاد سرها أن ينكشف بين أيدي القضاة والمحققين ، لولا ضرورة التستر على مقام الأمير المهدد بهذه الفضيحة .

ودون هذا الحضيض من الابتذال فى حق أمير يهدده الاحتلال فى كرامة عرشه أن يذهب فى مساومة المحتلين الى حد الاعتراف باحتلال بلاده واستعراض الجيش المحتل فى ساحة قصره والوقوف تحت العلم البريطانى يوم الاحتفال بعيد ملك الانجليز ، تزلفا منه الى العميد البريطانى ليغضى عن تصرفه بالوظائف الحكومية التى تحده القوانين عن محاسبة موظفيها بغير ادانة يثبتها التحقيق ، ومنها وظائف المندوبين الحكوميين بمجلس ادارة الأزهر ، ووظيفة الافتاء التى يصدر بها قرار التعيين والعزل من وزارة الحقاية .

وكانت مجلة المنار التى تنشر فتاوى المفتى هى الصحيفة الوحيدة التى انتقدت هذا المسلك المعيب ، فكان الجواب عليها

من سيطرة الحملة على فتوى الترنسفال سيلا من الشنائم
والمغالطات وتمجيذا لموقف الأمير تحت الراية البريطانية يوشك
أن يحسبه فتحاً له من فتوح الوطنية والاستقلال ، وعلى هذا
النحو كتب كاتبهم في صحيفة المؤيد يقول « أولاً » عن مجلة
المنار : « ان صاحبها يملؤها بالاختلاقات الشرعية » ثم يقول :

« لم يدر صاحب جريدة المنار الذى ان خرج عن مدار
يحثه ضل وان دخل في غيره ذل ان الجناب العالى وقف تحت
ذلك العلم بحضرة جلالة الملك ادوارد السابع ملك الانكليز
وامبراطور الهند ولم يكن جناب اللورد كرومر في ذلك الموقف
الا صورة من صور الملك التى يمثله بها في هذا اليوم مائة قائد
فوق كرة الأرض وينكر صاحب المنار استعراض الجناب
العالى لساكر جيش الاحتلال مشيراً الى اكتفاء المغفور له
الحديو السابق بالاشراف عليه من نوافذ القصر ، كأنه لم يدر
أن مولانا الحديو الحالى حفظه الله عسكرى النشأة يرتدى في
الأعياد والمواسم الكسوة العسكرية ، وهو عالم بدقائق الحركات
الحربية بحيث لو أخذ بيده قيادة جيش جرار لكان من أمهر قادة
عصره . وماذا يريد بقوله وقف الجناب العالى تحت العلم
الانكليزى في أول يوم من شهر الصيام ؟ وأى دخل للأيام والأيام
أخوة والليالى أخوات ولم يعلم بأن مائة مليون من المسلمين
يحيون هذا العلم في ذلك اليوم يوم الاستعراض ^(١) » .

(١) حدد ٢١ يناير ١٩٠٥ من صحيفة المؤيد بتوقيع ابراهيم المولى .

ولم تشذ عن خدمة الدسائس الخديوية في هذه الحرب الشائنة بينه وبين المفتى صحيفة واحدة من الصحف التي كانت تنعت نفسها بنعت الوطنية بين متطرفة ومعتدلة أو محافظة على القديم وغالية في المطالبة بالتجديد .. وبلغ الكتاب أجله واستقال الشيخ محمد عبده من مجلس الادارة وجيء بأعداء العلوم الحديثة شيوخا للجامعة الاسلامية ومدبرين لنظام الادارة والتعليم فيها ، فانتظم المتطرفون والمعتدلون صفا واحدا في الثناء على أعداء الاصلاح والشماتة بالمفتى المستقيل ، وراح أشد هذه الصحف تطرفا يقول انه تأخر في الاستقالة لأنه كان من الواجب عليه أن يتخلى عن عمله منذ علم أن « ولي الأمر » متغير عليه .

وليس هؤلاء الصحفيون من الغباء بحيث يجهلون حكم الفضلاء عليهم وحكم التاريخ من بعدهم اذا علم الناس أنهم في القرن العشرين يستنكرون التعليم الحديث باسم الدين . فنقلوا المسألة بحذافيرها من حرب بين الاصلاح واللصوصية الى حرب بين المفتى والسلطة الشرعية ، وحسبوا عجز الخديو عن فصل الموظف الكبير بغير محاكمة تأديبية دليلا على تأييد الاحتلال الأجنبي لذلك الموظف الكبير ، ومثله في حماية القانون ونظام الدواوين لهم ألوف الموظفين .

أما المسألة بحذافيرها في وضعها الصحيح فهي أن المفتى لم ينتفع بحقه في وظيفته لجر منفعة شخصية أو ترويج سياسة بريطانية أو التفريط في حق من الحقوق الوطنية ، فاذا كان

سماسرة القصر يريدون أن يقولوا ان اصلاحه للتعليم وتطهيره
للدواوين ونهوضه بأبناء وطنه وأبناء دينه عمل يوافق الاحتلال
ولا يوافق الوطنية فذلك هو الخزي الأكبر لمن يفتره ، لأنه
يدمغ الوطنية بمسم الهوان ويدعى للاحتلال فضلا يسقط حجة
الوطنى عليه ولا يطمع فى ادعائه بألسنة مأجوريه .

وانما الخيانة للوطن ذلك الجرم المهين الذى أقدم عليه الخديو
ودافعوا عنه دفاع المستتيت يوم وقف تحت العلم البريطانى
ليحيى جيش الاحتلال ، وأقبح منه فى الاجرام أن يقترب هذه
الجرمة فى حق وطنه وحق عرشه ليتوسل بها الى حمل الانجليز
على الاغضاء عنه حين يتعرض لوظائف الحكومة التى يحميها
القانون ، وأقبح من كل هذا أن يكون هم الأمير من التعرض
لتلك الوظائف خيانة الأمانة وسلب المال الحرام وتلويث موظفيه
الكبار بلوثة الجبن والاختلاس . أما الموظف الذى يعمل فى تلك
الوظيفة ما يشرفه ويشرف أبناء وطنه ودينه فلا جناح عليه أن
يحسن ويسىء الأمير وتابعوه ، وانما يسيئون الى أقدس
المقدسات من حرمان الحق والفضيلة .



ولسنا فى مقام الموازنة بين وطنية محمد عبده ووطنية عباس
الثانى وسماسرة قصره . فاننا بهذه الموازنة نهبط بقدر الرجل
العظيم الذى لا نعرف فى زمانه قدرا أحق من قدره بالتشريف
والاكبار ، ولكننا نزيد هذا الشرف بيانا لمن يجهلونه بمثل من

أمثلة كثيرة لمواقفه الى جانب الخديو حين يعتدى عليه المحتلون
وحين ينظر الخديو حوله فلا يرى له سنداً أقدر على حمايته من
مكانة الشيخ في العالم الاسلامى ومن شجاعته التى لا يعניהل
اغضاب الانجليز منه ، وهو لا يأمن غضب الأمير عليه .

ونحن فى هذا الكتاب الموجز لا نملك الاسهاب حيث يغنينا
الايجاز المفيد ، وحسبنا — على قاعدتنا هذه — حادث واحد
هو الحادث الذى استهدف فيه الخديو لأشنع اهانة تلحق بصاحب
عرش من العروش فى بلاده ، وهو حادث ليون فهمى الذى أدى
الى صدور الأمر من الوكالة البريطانية بتفتيش قصر رأس التين.
بحثاً عن ليون فهمى هذا لاتهام الانجليز اياه بقتله فى قصره أو
اخفائه هناك لتقييده ونقله على الرغم منه الى الآستانة ، اجابة
لطلب « الماين » أو قصر السلطان عبد الحميد .

يومئذ لجأ الأمير الى حمى الشيخ وصائب رأيه ، فلباه
ورجاه أولاً أن يستوثق من خلو القصر ويخت المحروسة من
ذلك الطريد العثماني ان كان حقاً مقبوضاً عليه ، ثم أشار عليه
بأن يكتب بلاغا الى معتمدى جميع الدول المعترفين باستقلال
مصر بأن السلطة المحتلة تعتدى على حرم قصره ، وأن يبلغ
المحتلين فى الوقت نفسه أنه يفعل ذلك اذا هم اجتروا على
تنفيذ أمر التفتيش . فتراجع الانجليز حذراً من اثاره هذه
القضية الدولية بطلب من صاحب السلطة الشرعية ، وبقينا بأن
الماين العثماني يؤيد هذا الطلب الذى وجهه الأمير الى الدول
بسببه ، وبقينا من الجهة الأخرى بتأييد الرأى المحترم من أبناء

البلاد لأمرهم وعلى رأسهم مفتى الديار الذى يهابون اجتماع
فتواه الدينية الى جانب الوثائق القانونية ، واعتقاداً منهم أن
الأمير لا يهددهم هذا التهديد وفى قصره ذلك الطريد الذى
يبحثون عنه .



وفى ختام هذا الفصل ننشر بعض الفقرات من خطاب الخديو
الى موظفه الكبير أحمد شفيق باشا حين علم أنه مشى فى جنازة
المفتى مع كبار المشيعين ... فبعد أن سمح أدب العرش لذلك
الأمير المسكين أن يقول عن فخر وطنه بعد وفاته — لو كان
يعقل — « انها جنازة حارة والميت كلب » مضى يقول :

« يظهر — والله أعلم — أنكم أردتم بالسير وراء نعشه
المجاملة بعد الموت ، وهو على ما تعهدونه عدو الله وعدو النبى
وعدو الدين وعدو الأمير وعدو العلماء وعدو المسلمين وعدو
أهله ، بل وعدو نفسه ، فلم هذه المجاملة ؟ .. »^(١) .



ان هذا الانتقال من أخلاق الفلاح محمد عبده الى أخلاق
الأمير عباس الثانى مفاجأة شديدة الوقع على النفوس الآدمية
التي ينتمى اليها الفلاحون كما ينتمى اليها الأمراء ، ولكنه فى

(١) مذكراتى فى نصف قرن لاحمد شفيق باشا .

ختام هذا الفصل أصدق من تسويد الصفحات باشتات الوقائع والأخبار وصنوف الدسائس والوشايات للدلالة على كنه الخلاف بين الرجلين وعلى طبيعة تلك العداوة المزرية وطبائع خدامها الذين باعوها ضمائرهم في سوق المنافع أو فيما هو شر من سوق المنافع : سوق الحسد البغيض والغرور الباطل .

وقد ذهب محمد عبده وعباس الثانى الى ذمة التاريخ ولحقت بهما الأسرة الخديوية بقضها وقضيضها ومعها منافعها التى تباع الضمائر من أجلها ، ولكن باعة الضمائر هؤلاء هم أسلاف فى النسب أو أسلاف فى العمل خلفائهم الذين عاشوا ويعيشون بعدهم الى هذه الأيام ، وحاجتهم الى مدارة أنفسهم كحاجة أسلافهم فى زمانهم ، كلما أعيد القول فى قضايا الإصلاح وقضايا الجهاد عادوا الى الستار القديم يتوارون خلفه وأعادوا معاذيرهم تهما للمخلصين وتبديلا لوقائع التاريخ واقتياتا على الوطن والدين ، وسيماهم على وجوه صفحاتهم لا تخفى على الناظرين .

الحسين المعلم

ان الاحسان الى ذوي الحاجات فضيلة من أشرف فضائل
العظمة الانسانية وأقربها الى الصفات الالهية ، لأنها قوة في
العظيم تعمل عملها في نخانة الضعيف ولا تعمل عملها في ادلايه
وارغامه ، على ديدن العظمة التي قد توصف بأنها قوة فرد عظيم
ولكنها لا تنسب الى الانسانية ولا تسمو الى مقاربة الصفات
الالهية .

وقد كان الاحسان الى المعوزين والضعفاء أول صفة من
صفات الأستاذ الامام يعرفها من يعاشره في معيشته ولا تقتصر
معرفة به على المعرفة بأعماله العامة ، ولكننا - على حقنا
للأستاذ الامام من أجل هذه الفضيلة بعينها - نكاد نستصغرها
في كتابة سيرته ، لأن اطعام هذا الجائع واغاثة هذا الملهوف
وتلبية الرجاء من ذلك الطالب واسداء المال المسور الى ذلك
الفقير - كل أولئك خير وبر وكرم ، ولكنه - في النهاية - بر
من واحد الى آحاد ، لا يكاد يذكر الى جانب ذلك الخير العميم
الذي ترى من أعمال الرجل في جملتها أنه يغدقه على الدنيا بكل
ما أوتى من قدرة وهمة ومضاء ، وأنه يدأب نهاره وليله ولا يكاد
يفرغ لنفسه ساعة من النهار والليل وهو يفكر في ذلك الخير

ويعمل لذلك الخير ويسعد ويشقى في سبيل ذلك الخير ، ولا يقنعه منه أن يختص به محتاجا الى القوت أو مفتقرا الى المعونة أو شاكيا من الظلم ، الا أن يكون خيرا للأمم ، وخيرا للعالمين ، وخيرا لتوفير السعادة الانسانية التي لا يخطر بباله وهو يدأب لها أنه يستثنى منها أحدا من بنى آدم وحواء .

وخصلة أخرى يحسب الناظر الى احسان هذا الرجل أنها خليفة أن تغض من فضله في هذه الفضيلة العالية ، وتلك هي صدورها منه كما تصدر الدوافع الضرورية التي تملك على الانسان مشيئته ولا تكاد تبقى له مشيئة يملكها بها أو يقاومها فيها ، فان دوافع الاحسان في نفس هذا العظيم الكريم أشبه شيء بدافع الحنان في نفس الأب الرحيم . وأى فضل للأب الرحيم في عطفه على طفله الجائع أو طفله الباكي أو طفله السقيم ؟

ان فضل هذه الفضيلة يستصغر في هذه السيرة ليلبغ غاية الكبر الذي تبلغه سجية السانية ، فقل ان شئت أنه لا فضل لمحمد عبده في احسانه الا كفضل الأب في الاحسان الى البنين ، ولكنك اذن تشهد بالفضل الذي لا فضل بعده للرجل الذي تملكه رحمته بجميع الناس كما تملك الأب رحمته ببنيه .

كان محمد عبده يحسن الى صاحب الحاجة وهو في منفاه فقير لا مورد له غير مرتبه من عمله ، وكان يحسن الى أصحاب الحاجة وهم من ذرية أعدائه المفترين عليه ، وكان يحسن الى المنقطعين عن الكسب وهو مريض محتاج الى ماله القليل لتدبير

علاجه ومعيشته في مقامه وسفره ، وكان يحسن اليهم وهو في مرض الموت ، ويموت وفي ودائع سره صدقات للمستعنين به لم يكن يطلع عليها أحدا من أقرب المقربين اليه .

روى السيد رشيد رضا مما علمه من أخباره يوم كان منفيا ببيروت : أن صاحباً له توفي والده وليس عنده ما ينفقه في تشييعه ، فأعطاه كل ما في حوزته من مال وهو مرتبه الذي قبضه يومئذ من المدرسة السلطانية ، ولولا أن رجلاً في مصر أحسن اليه مثل ذلك الاحسان قبل نفيه وفي له بدينه وحوله اليه على مصرف بيروت ، لاضطر الى القرض لينفق بقية الشهر على نفسه وأهله .

ولم تكن صحيفة الجوائب المصرية من الصحف التي تتطوع لنشر مآثر المفتى وان لم تكن كذلك من الصحف التي سخرت للحملة عليه ، ولكن صاحبها خليل مطران كان يلقي علماء الأزهر كما يظهر من حديثه مع شيخه ومن الردود في صحيفته ، وكان يعرف بعض شواغلهم وشواغل الأستاذ الامام ، وهو الذي روى بعض مآثره في مقال تأيينه فقال عن بره بأعدائه الثائرين عليه : « ان أنجال المشايخ في الأزهر كانوا يتناولون مرتبات آبائهم بالوراثة فرأى الأستاذ في ذلك غبنا للعلماء ، لأن هذه المرتبات انما هي وقف عليهم ، فأعاده الأستاذ اليهم وعوض أنجال المشايخ عنها بما كان يجمعه بسعيه في رأس كل شهر من أمواله وأموال محبيه ، ولقد شوهده وهو ساع

هذا السعى عقب اعتزاله الأزهر وقيام الشيوخ في وجهه
محارين .

وقد كانت له معونة شهرية لطائفة من الأدباء يأوون اليه ،
ومنهم حافظ وامام والكاظمي والشنقيطي العالم اللغوي
المشهور ، وهو الذي قال يرثي نفسه ويذكر معونة الامام له في
غربته المنقطعة دون القادرين على المعونة في عصره :

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجند ..

سوى كتب تختان بعدي ، أو علمي

وغير الفتى المفتى محمد عبده

صديقي الصدوق الصادق الود والكلم

وكانت توصيته للمطابع ودور النشر من أقوى المشجعات
على طبع الكتب القديمة والحديثة التي يعجز الأدباء عن
الاستقلال بطبعها ونشرها ويستفيدون من تأليفها أو الوقوف
على تصحيحها . لأنه - أجزل الله مثوبته - كان يتولى توزيعها
على معاهد العلم ويرسلها باسمه الى مريديه من سروات الأقاليم
وكبار موظفيها . وقد تسلم من حافظ أكثر نسخ البؤساء بعد
صدور الجزء الأول ثم أسلم حافظا من ثمنها ما يكفيه سنوات
- كما قال لنا حافظ - لولا أن رزق السنوات لا يجاوز في
يدي حافظ مدى الشهور ، وهو الذي قال من قصيدته التائية
في رثائه :

لقد كنت أخشى عادي الموت قبله ..

فأصبحت أخشى أن تطول حياتي

وصحيفة الصاعقة — كما ينبىء عنها اسمها — ليست من الصحف التى تسخو بالثناء على أحد من الأحياء أو الموتى ، اذ كانت مرصدة للهجاء الاجتماعى والنقد اللاذع صادقا أو غير صاوق ، وكان صاحبها يلقب بالخطيئة النائر لأنه كان كالخطيئة الشاعر يهجو نفسه وأقرب الناس اليه ، ولكنه بكى فيه تلك المروءة السخية التى كان هو من العارفين بجدواها ، فرثاء بمهال طويل افتتحه بهذا البيت :

اليوم نامت أعين بك لم تنم
وتشهدت أخرى فعز منامها

ثم قال :

« أما مروءته فليس أقوى دلالة عليها من خروجه قبل أن تخرج الشمس من غمدها وجيبه ممتلىء بقرع امتلأت بحاجات الناس فلا يرجع الى داره الا بعد أن يرجع الدهر عن معاكسة من وضعوا آمالهم فيه ... وكم نظر الله اليه فى جوف الليل وهو يمد يده بالحسنات الى الفقراء والمساكين ويعول أنفسا ماتت بموته اليوم »

ولقد عرفنا نحن أناسا نظروا اليه فى جوف الليل يطرق عليهم الأبواب ويسلمهم ما قدر عليه من عاجل الصدقة ، وهو يقول لهم انه أمانة من جهات الخير يؤديها اليهم ولا يعرفهم بنفسه ، وكنا نسكن على خط المطرية التى كان فيها مسكنه فنسمع أخباره هذه مع أصحاب البيوت الكريمة التى فقدت

علّيلها ، فلم يعرفوا أنه هو ذلك الرسول الذى كان يطرق عليهم أبوابهم تحت جناح الظلام الا بعد أن افتقدوه على أثر وفاته .

وقد عهد أهله الى تلميذه الحميم السيد رشيد رضا أن يرتب أوراقه عند سفره الى الاسكندرية فوجد فى محافظ الأوراق صررا من النقود مكتوبا على كل منها اسم من يراد اعطاؤه اياها . وسأله - وهو يعد العدة للسفر - عن الشاعر الكاظمى فذكر له أنه مدين . فأسف لأنه لم يخبره بذلك قبل تصرف أخيه فى نفقة السفر ، لأن الكاظمى أحوج اليها .

ولو عرفت هذه الصدقات المستورة التى كان يبذلها أو يسعى فيها ويوصلها بيده وأيدي خاصته الى مستحقيها لظهر أنها شغل حياة كاملة تستغرق العمر ولا تدع فيه فراغا لعمل سواها ، وعجب الناس كيف كان يدبر لها وقتها مع تلك الأعمال الجسام التى كان يضطلع بها ولا تقبل الانابة عنه فى أدائها . ومثل هذا الشغلان بالاحسان فضل نادر فى حياة العظماء الذين كانوا يشغلون بمثل شواغله ويلقون من المصاعب والعقبات بعض ما كان يلقاه من أعدائه وأعدائه فى أداء رسالته ، ولكنه على هذه الندرة لم يكن بالخاصة المميزة التى تنطبع بها هذه النفس بين أقرانها ونظرائها ، وانما يمتاز الرجل فى احسانه بتلك المزية التى انطبعت بها جميع صفاته وجهوده : وهى مزية المعلم المطبوع على التعليم . وما كان التعليم فى مثل هذه الفطرة الا شيئا يعطيه من ذخيرة الفكر والروح .

فالشيخ محمد عبده كان رائد « الخدمة الاجتماعية » فى

وطنه قبل أن تعرف في هذا الوطن وفي غيره « مصالح الخدمة الاجتماعية » التي سميت بعد ذلك بأسماء الوزارات والدواوين ، ولم يكن يقنع بما يسديه من الخير بيده حتى يكون هذا الخير في مجاله الواسع عملا عاما للمجتمع يتعود القائمون عليه أن يوطدوا له قواعده ويتعاونوا على تنظيمه ويتكفلوا له بضمان البقاء بعدهم لمن يخلفهم عليه .

فالأحسان المستور - يدا بيد - عمل يستطيعه المحسن بينه وبين نفسه ويحمد منه أن يكتمه ولا يعلنه لغيره ، ولكن الأحسان في النكبات العامة لا يتأتى بغير التعميم والتنظيم وضمان الأمانة أو ضمان الدوام في غير الاغاثة الموقوتة التي تنقضى بانقضاء دواعيها . وهذه هي مواطن الأحسان التي كان محمد عبده يبادرها في ساعتها كلما ألم بالبلاد داع من دواعيها ولا يظهر اسمه للناس الا كان مجرد ذكره ضمانا للثقة والطمأنينة ، وكان توجيه الدعوة باسمه ضمانا للموافقة والاجابة ، ثم يكون اشرافه على التدبير والادارة ضمانا لانتظام العمل ودوامه .

فمنذ عاد محمد عبده من منفاه لم يتخلف قط عن الغوث العاجل للمستغيث في نكبة من النكبات التي تصيب هذه البلاد ويقعد عنها ولالة الأمر والقادرون على الاغاثة بالمال أو السلطان ، وكانت سنته في كل عمل من أعمال الغوث أن يندب له الجماعة من أهل الكفاية والأمانة بين خاصة صحبه ، وأن ينهض هو بعبء تنظيمه ونشر الدعوة باسمه ، ولم يحدث قط أنه نهض

بهذا العبء فى عمل من تلك الأعمال الا كان نهوضه به أمانا من
الفوضى والاختلال .

تركت حملة السودان فى هذا البلد جيشا من الأيتام
والأرامل والعاطلين وجرحى الحرب والمنكوبين لا عائل لهم ولا
مورد لمعوتتهم ، وأمسكت الحكومة يدها عن كل معونة لهذا
الجيش الزاخر لأنها اعتذرت بنفاد المال فى نفقات الحملة . وعجز
الخزانة عن ترتيب المعاشات أو التعويضات بين مصارفها
المحدودة ، فبادر الشيخ محمد عبده - وكان يومئذ قاضيا
بمحكمة الاستئناف - الى تأليف هيئة خاصة لحصر ضحايا
الحرب وتنظيم المعونة لهم مما يتبرع به المحسنون وتسهم به
خزانة الحكومة وخزانة الأوقاف وغيرها من جهات البر
والمساعدة . وجعل قوام اللجنة من رجال القضاء وأهل الثقة من
كبار الأغنياء ، وحرص على احاطة هذه الهيئة بالضمانات
« الرسمية » لضبط مواردها ومصارفها على نظام الحساب المتبع
فى دواوين الحكومة ، وقامت هذه الهيئة بأمانتها على وجهها
الأمثل ، ثم تبعثها الحكومة والجماعات الخيرية فى طريقها ، بعد
تمهيدها بهذه الفاتحة التى لم يكن لأولئك المنكوبين - لولاها -
من مسألة يلتفت اليها .

واحترقت بلدة ميت غمر فى أوائل صيف سنة ١٩٠٢ فبلغ
عدد المنكوبين بالحريق أكثر من خمسة آلاف ، لا فرق بين كبيرهم
وصغيرهم ولا بين غنيهم وفقيرهم فى الحاجة الى المأوى
والطعام ، وقال الأستاذ الامام فى وصف الحادث من بيانه الذى

نشره على الناس في الصحف : « ليس الحادث بذى الخطب
اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئتين ، منهم الأطفال
الذين فقدوا عائلتهم ، والتجار والصناع الذين هلك آلاتهم
ورءوس أموالهم ، ويتعذر عليهم أن يتدثروا الحياة مرة أخرى.
الا بمعونة من اخوانهم ، والا أصبحوا متشردين متلصصين أو
سائلين ... » .

وقد بذل الأستاذ الامام من معونة الجمعية الخيرية الاسلامية.
التى كان يرأسها يومئذ كل ما تحتمله مواردها ، وألف لتعمير
البلدة واغاثة أهلها جماعة كبيرة تمدها بالمال وتحت الناس على
امدادها به في عواصم البلاد وقراها ، وطاف بنفسه على بيوت
الأمراء والوجهاء وأصحاب الثروة يسألهم النجدة في حينها قبل
فوات أوانها ، واستخدم كل وسيلة من وسائل الخس والدعوة.
يقدر عليها ، ومنها حث الشعراء على النظم في موضوع هذه
النكبة وفي طليعتهم شاعره حافظ ابراهيم الذى نظم فيها قصيدة
قال في أولها :

سائلوا الليل عنهم والنهارا
كيف باتت سباؤهم والعذارى
أين طوفان صاحب الفلك يروى
هذه النار ، فهى تشكو الأوارا
وقال منها يستنجد بالمنشاوى (باشا) فى سجنه :
أيهذا السجين لا يمنع السج
ن كريما من أن يقل العشارا

مر بآلف لهم وان شئت زدها
وأجرهم كما أجرت النصارى
وهو يشير هنا الى أحمد المنشاوى (باشا) عميد القرشية
الذى سجن يومئذ فى قضية لعبت فيها السياسة لعبها ، وكان
من مروءته أيام الثورة العرابية أنه آمن الأوربيين الخائفين فى
داره ، وسبق فى ترجمة الأستاذ الامام كلام عن صلة أبيه بهذه
الأسرة العريقة فى القرشية . وسرى فيما يلى أنه كان أحد
المحسنين القلائل الذين كان الأستاذ الامام يعتمد عليهم فى
انجاز مشروعاته الاجتماعية . وقد جمع من أسرته ومن سائر
الأسر الكريمة ألوف الجنيهات ، وذهب بنفسه الى ميت غمر
ليشرف مع الهيئة المختارة على اتفاقها فى تعمير القرية وتعويض
أهلها .

ولقد كان أثر المحسن المعلم فى المؤسسات الباقية أبرز
وأثبت من أثره فى هذه المساعدات التى تدعو اليها الحوادث
الموقوتة كحوادث الحرب وحادث الحريق وأشباه هذه الحوادث
المرهونة بأوقاتها . فان المؤسسات الخيرية التى نشأت برعايته
وهدايته كانت أثبت الجمعيات المصرية وأنفعها وأقدرها على
أداء مقاصدها من محاربة الجهل والفاقة ولا تزال أكبر هذه
الجمعيات فى مصر جمعيتان تأسستا بمعاوته وهدايته وعاشتا
منذ تم تأسيسهما نحو ستين سنة تعملان وتتقدمان على هده :
أحدهما الجمعية الخيرية الاسلامية والأخرى جمعية العروة
الوثقى وقد سميت باسم جمعيته التى اشترك فى تأليفها

وادارتها على البعد فى منفاه مع السيد جمال الدين . وقد أسهم فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية ثم تولى رئاستها فزادت مواردها وأعمالها ضعفين فى سنوات رئاسته الخمس (من ١٣١٧ الى ١٣٢٢ هجرية) اذ كانت مدارسها أربعاً فأصبحت سبعة ، وكان عدد تلاميذها (٣١١) تلميذاً فأصبح (٧٦٦) وكانت تملك مائتين وثمانين فدانا فأصبح لها من الأرض خمسمائة وثلاثة وثلاثون فدانا غير الموارد الأخرى التى ارتفعت فى جملتها من ٤٤٣٠ جنيها الى ١٠٣٩٥ جنيها . وازدادت - تبعا لذلك - قدرتها على التعليم بالمجان وترتيب المعونة للمعوزين .

ولم يتسع عمر الأستاذ لاتمام المشروعات التى كان يفكر فيها ويهيم الأذهان لاعداد أسبابها وضمان اقامتها ودوامها ، وكان يرجو أن يتسنى له اتمامها فى مدى قريب بعد الفراغ لها من بعض شواغله الأزهرية ، ولكنه فارق الحياة فى السنة التى اعتزل فيها مجلس الادارة الأزهرى بعد شهر من اعتزاله ، ويمكن أن يقال - على هذا - انه ما من عمل من أعمال الخدمة الاجتماعية تم بعد وفاته الا كان من مشروعاته التى هيا لها الأذهان ومهد لها الطريق وبدأ فعلاً بالاستعداد لتنفيذها ، ومنها الجامعة المصرية التى كان يعنى بها أن « تقوم على تعليم العلوم وفقاً للمناهج الحديثة وتسهم فى تجديد الحضارة العربية القديمة » وقال عنها فيما نشره الأستاذ روجرفيل من وصيته بعد وفاته : « اذا نظرنا الى التعليم الذى تنشره الحكومة من

حيث قيمته فلا بد أن نلاحظ أنه لا يكاد يقدر الا على تعليم رجل
محترف بحرفة يكتسب بها عيشه ، ومن المستحيل أن يستطيع
هذا التعليم تكوين عالم أو كاتب أو فيلسوف ، فضلا عن
تكوين نابغة . وكل ما لدينا من المدارس التي تمثل التعليم
العالي في مصر انما هي مدارس الحقوق والطب والهندسة ،
وأما بقية الفروع التي يتكون منها العلم الانساني فقد ينال
منها المصري صورا سطحية في المدارس الاعدادية ويكاد يكون
من المستحيل أن يتقن منها شيئا وهو في الغالب مكره على أن
يجعلها جهلا دائما ، وذلك شأن علم الاجتماع وفروعه التاريخية
والخلقية والاقتصادية ، وذلك شأن الفلسفة القديمة والحديثة
والآداب العربية والأوربية والفنون الجميلة أيضا — كل ذلك
مجهول لا يدرس في مدرسة مصرية فلا ترى في الطبقة
المتعلمة الرجل الباحث ولا المفكر ولا الفيلسوف ولا العالم ولا
ترى الرجل ذا العقل الواسع والنفس العالية والشعور الكريم ،
ذلك الذي يرى حياته كلها في مثل أعلى يطمع فيه ويسمو
اليه ^(١) .

وقد مرض الأستاذ الامام مرض الوفاة فلم يشغله المرض
عن اعداد العدة لهذا المشروع الكبير ، وزار صديقه أحمد
المنشاوي باشا واستزاره غير مرة للبحث في وسائل بناء الجامعة
وضمنان الموارد التي ينفق منها عليها ، وخاطب وزارة المالية في

(١) كتاب محمد عبده للدكتور عثمان أمين الأستاذ بجامعة القاهرة .

بيع عشرة آلاف فدان من ملك الحكومة يشتريها المحسن السرى.
ويسجل وقفها على بناء الجامعة ومصاريفها مع ما يربط عليها
من الوقوف والأرصدة المالية ، ولم يتوان ذلك المحسن الوفى
فى انجاز هذا العمل بعد وفاة الأستاذ الامام برا بذكراه وتحقيقا
لأمله: « وفى يوم السبت عاشر شوال سنة ١٣٢٢ (١٩٠٥)
كتب المنشاوى باشا الى مجلس النظر كتابا يطلب فيه أن تبيعه
الحكومة عشرة آلاف فدان معينة ليجعلها وقفا على مدرسة
كلية يريد انشاءها فى ضواحي القاهرة ويوقع عقد الوقفية فى
الوقت الذى توقع فيه المالية عقد البيع حتى اذا ما انتهت
الوسائل قضى الرجل نجه فى الأسبوع الذى عين فيه موعد
العقد .. (١) » .



ويشاء الله أن يبرىء هذه النفس الزكية من كل ملامة يتجنى
بها المتجنى عليه فيما اختاره لنفسه من ايثار خطة التعليم
والاحسان فى خدمة قومه على خطط خصومه المشغولين بسياسة
الصحف والأحزاب ، فما كانت لتعوزه — رحمه الله — زيادة
لمستزيد فى بغض المكائد السياسية والايمان بفسادها وافسادها
لكل ما تمتد اليه من « اختصاصها » كما يقولون وغير
اختصاصها ، ولكنه كان يخطو فى عمله خطوة بعد خطوة وكأنه

(١) ص ٩٤٧ من الجزء الاول من تاريخ الأستاذ الامام لصاحب المنار .

بحاجة الى التذكير الجديد بلؤم تلك السياسة خوفا عليه من نسيانه .. وفي كل خطوة من تلك الخطوات كانت تبرز له الأدلة من هنا وهناك على استقامة خطاه واعوجاج الخطى من جانب خصومه : هنا تقع لا ريب فيه من خطة التعليم والاحسان ، وهناك ضرر لا ريب فيه من سماسة السياسة يلاحقه في أشرف أعماله وأكرم آماله ، فما من مشروع من المشروعات التي ذكرناها فيما تقدم سلم من الوشاية الخفية أو المكابرة الصحفية، ولا نذكر المكائد التي رصدت له في مساعيه لطلب الكتب النادرة التي كان يعهد بطبعها الى جماعة احياء الكتب العربية ، ولا المكائد التي رصدت له في جمع التبرعات لمنكوبى حرب السودان ، ولكننا ندل على خسة هذه المكائد بالاشارة الى أغربها وأبعدها عن التصديق : وهى وشاية الوشاة عند الوكالة البريطانية بالجمعية الخيرية الاسلامية لاتهامها بأنها تجمع الأموال لاعانة مهدي السودان وتزويده بالذخيرة والسلاح ، واجترأهم فى ذلك على تلفيق الأختام المزورة والبصمات المزيفة التى أقنعت دار الوكالة وأثارت شبهاتها فأمرت بتفتيش مكاتب الجمعية ومراقبة مراكزها ، ولولا تصدى الأستاذ الامام لاحتمال التبعة فى كل ما يثبت على الجمعية من هذه الوشايات واجتهاده لكشف دخائل التزوير فى تلك الوثائق المزيفة لقضى على الجمعية فى مهدها وقضى معها على حسناتها وصدقاتها .



المصلح الفيلسوف

من دأب الايمان الدينى فى الطبائع القوية أن يقارب بين الروح المثالى والفكر العلمى ، على غير المؤلف فى أكثر المفكرين العاملين من غير المتدينين ، أو غير المؤمنين ايمان اليقين .

فان القيم الأخلاقية العليا والأريحية المثالية خيال يحلم المصلحون المثاليون بتحقيقه فى المستقبل ان صح أنه قابل للتحقيق فى وقت من الأوقات . ولكنه واقع مقرر فى كل وقت عند المصلح المؤمن . لأنه مقترن بوجود الاله الكامل السرمدى فى كل لحظة من لمحات الزمن ، حاضر بحضوره فى كل مكان ، غير ميئوس من اداركه بارادة الله وارادة خلقه مع صدق النية واستقامة الطريق على هداه .

وبهذا الايمان يتلاقى فى طبيعة المؤمن القوية هذان الخلقان اللذان يفترقان بين مثالى يخطىء طريق العمل وواقعى يرتاب فى امكان المثل العليا وسداد الأريحية الأخلاقية ، فهما خلقان متفقان تمام الاتفاق فى ضمير المصلح المؤمن بوجود الكمال المطلق فى كل وقت وكل جهة ، وهو وجود الله .

ونحسب أن هذا الاتفاق بين الخلقين هو أصح تفسير لتلك السجية البينة فى طوية مصلحنا العظيم : أمل لا حد له فى الخير

وفهم للواقع العملى لا يضل طريقه بين الشعاب المتفرقة فى مسالك الاصلاح .

ولقد تصوف مصلحن العظم زمتا فى صباه ولا فخاله ابتعد من طريق المتصوفة الى ختام حياته .

وقد درس حكمة الفلاسفة النظريين كما درس فلسفة المعتزلة وعلماء الكلام ومذاهب الفقهاء من أسرى النصوص ومن أصحاب التأويل .

ولم يكن قط من « أهل الظاهر » الذين يأخذون بالحرف ويدينون بالتقليد .

ولكنه كذلك لم يكن قط من « أهل الباطن » الذين يفهمون « الباطنية » على أنها رفض للظاهر وانقطاع عن الواقع ونبذ للحياة وانصراف عن شواغل المعيشة التى يشتغل بها الأحياء فى دنياهم ، أو يحسبون الباطنية ضربا من « الدروشة » والمسكنة المختارة على مذهب المجاذيب من أبناء الطريق .

انما كان رفضه للظاهر رفضا للقشور وألوان الطلاء . وكان يحثه عن الباطن بحثا عن حقيقة المعنى الصحيح من وراء اللفظ السقيم .

انما كان رفضه للظاهر المموه بحثا عن الواقع الذى خلص من التمويه ، فهو واقعى عملى فى صميم الواقع الذى يصلح للعمل النافع ، وهو يقترب من وسائل العمل كلما ابتعد من ظاهر الطلاء والتمويه فيما يتداوله الناس من الأباطيل ، وغيره

على غير هذه السجية يتعبدون من حياة العمل الواقعية كلما
أأمعنوا في البحث عن باطنهم المحجوب أو عن خيالهم البعيد .
فهو مصلح فيلسوف بكل ما شئنا من معانى الاصلاح
والفلسفة .

هو مصلح يتصل اصلاحه بالتفكير كما يتصل بالعمل ،
وهو فيلسوف حين تكون الفلسفة حكمة يروض بها الحكيم
نفسه على المسلك الذى ينبغى له كما يراه والغاية التى يسعى
اليها كما هداه الفكر اليها . وهو فيلسوف حين تكون الفلسفة
يبحثا عن سر الوجود ورأيا فى كليات الحقائق يحيط بأجزائها
ويستعان به على تفسير تلك الأجزاء .

وقد كان يفهم الفلسفة على هذا المعنى فى مستهل حياته
العلمية حين كان المفكرون يفسرونها على وجوه مختلفة لا تطابق
معناها . وكان يوما بمجلس على مبارك باشا وزير المعارف وفى
المجلس من فضلاء المفكرين الدكتور يعقوب صروف محرر
المقتطف ، وكان بعض الصحف قد سمى كاتباً من كتاب العصر
بـالفيلسوف على غير حق فى رأى الدكتور صروف ، فقال
الدكتور : ان الناس قد ابتذلوا هذه الكلمة حتى صاروا
يطلقونها على غير أهلها ، وتساءل الحاضرون من يكون
الفيلسوف اذن على المعنى الصحيح ؟ فقال الدكتور فى رواية
الأستاذ رشيد رضا : هو الذى يتقن جميع العلوم ... قال الشيخ
محمد عبده : اذن لا يوجد على الأرض فيلسوف . وعاد
الدكتور يقول ما معناه : انه لا بد أن يتقن علما من العلوم ويلم

بسائرهما ، فقال الشيخ محمد عبده : ان الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية ، وقبلها الثانوية ، على المام بالعلوم ويتقنون بعضها . فما أكثر الفلاسفة بين الأطباء والمهندسين والطلاب بهذا المعنى ! . ثم قال : ان الفيلسوف كما يفهمه هو الذى له رأى ومذهب فى العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه .

وبهذا المعنى الصحيح من معانى الفلسفة يتضح للأستاذ الامام مذهب فلسفى مستقل فى موضوع الفلسفة العامة وهو البحث عن الوجود أو البحث عما وراء الطبيعة على اصطلاح أكثر المحدثين ، وتتضح له مع هذه الفلسفة العامة فلسفة خاصة فى سائر الاجتماعيات والعقليات : ومنها فلسفة الأدب والفن وفلسفة اللغة والبيان على الاجمال .

أما فلسفته فيما وراء الطبيعة فهى فلسفة متصوفة اطلع على آراء الفلاسفة التى دار عليها البحث بين المتكلمين والمعتزلة وفلاسفة المسلمين ، ثم اطلع على أقوال فلاسفة الغرب فى العصور المتأخرة اطلاقاً يمكنه من الجمع بينها وبين ما يشبهها من أقوال المتقدمين ، وقلماً استحدث فيما بعد الطبيعة شئ من جانب المعاصرين لم يسبقهم اليه الأوائل فى أمهات المسائل . وان أضاف اليه المعاصرون ما أضافوا من مصطلحات العلم الحديث .

واستقلال الشيخ محمد عبده بالفكر والنظر ، ثم استقلاله بالعمل فى الاصلاح ، يفردانه بمذهبه بين مدارس الفلسفة

الاسلامية فلا يتيسر ضمه الى طائفة منها يسمى باسمها وينفصل بذلك عن سائرهما .

فهو مع الفلاسفة والمعتزلة في تحكيم العقل والقياس على المنطق والعلوم الكونية ، ولكنه يخالف رأى الفلاسفة في فهم معنى الوجود ومعنى العلوم بالنسبة الى الحقيقة الالهية ، ويخالف رأى المعتزلة في مجادلاتهم العقيمة حول مسألة الصفات وما تفرع عليها من الكلام عن خلق القرآن .

وهو مع المتصوفة في رياضتهم النفسية والفكرية ولكنه يرى أن الهام المتصوف « ذوق » وجداني لا يجوز له أن يدين به غيره « ولا ينكر أن لهم أذواقا خاصة وعلما وجدانيا ولكنه خاص بمن يحصل له لا يصح أن ينقله لغيره بالعبرة ... فان هذا الذوق يحصل للانسان في حالة غير طبيعية ، وكونه خروجا عن الحالة الطبيعية لا يجوز أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية » .

وشبيه بهذا رأى الطب - على قول ابن سينا - في علاج من كانوا يعرضون عليه من المصابين بمس الجن أو الأرواح الخفية . فانه كان يعالج الأعراض الجسدية بما يناسبها من الأدوية الجسدية ، ولا شأن له في علاج الآثار الطبيعية بما كان لها من المؤثرات غير الطبيعية ، أيا كان منشؤها .

وقد يحيط بالفلسفة الالهية في مذهب الأستاذ الامام من يقرأ تعليقاته على العقائد العضدية ومناقشته في حاشيته للامام عضد الدين الأيجي والامام جلال الدين الدواني في شتى

المسائل التى تقوم عليها اليوم فلسفة ما وراء الطبيعة عند الفلاسفة المعاصرين . مضافا اليها مسألة الصفات التى لم يطرقها هؤلاء المعاصرون .

وأيسر من هذه الحاشية - لمن لا يقرأ كتب الفلسفة السلفية - رسالته القيمة فى التوحيد ، وتفسيراته للآيات القرآنية من دروسه فى الجامع الأزهر . وفيها بيان جلى لكل مسألة من تلك المسائل التى يقل فيها الجلاء ويكثر فيها الغموض فى كتب الأقدمين .

فاذا أردنا أن نجعل لفلسفة الأستاذ الامام حدا فاصلا بينه وبين مخالفيه من جماعة المعتزلة والمتكلمين والفلاسفة الأقدمين ... فالحد الفاصل هنا هو القدرة على حسم الجدل العقيم بالرجوع الى حكم العقل السليم ، أو هو القدرة العملية على حل المشكلات العقلية ، ولا سيما المشكلات التى لا داعى للاشكال فيها غير الوقوف عند اللجاجة اللفظية والعجز عن تقرير معناها ، أو غير التهالك على الزبد وترك ما ينفع الناس .

وأقرب الآراء الى الأستاذ الامام آراء حجة الاسلام أبى حامد الغزالى رضوان الله عليه ، فهو قريب منه فى كل ما ابتعد به الفهم بينه وبين الفلاسفة أو المعتزلة أو المتكلمين ، وليس بينه وبين حجة الاسلام من خلاف يذكر الا كان - على الأكثر - من قبيل الاختلاف فى الدرجة دون الجوهر . فان الأستاذ الامام لا يشتد على الفلاسفة اشتداد حجة الاسلام ،

ولا يقول بالتكفير حيث يتأتى المخرج المقبول ، ونو ببعض الصعوبة في التأويل .

ان « الاله » عند أرسطو هو المحرك الأول ... ولا تأتي الحركة منه لأنه أبدي لا أول له ولا آخر ، ولكنها تأتي من الهيولى التى هى المادة فى دور القابلية ، وانما تخرج من القابلية الى الكون بحركتها نحو الكائن الأول شوقا الى الكمال ، وهى فى كل حركة تتخذ لها صورة معينة تجعلها شيئا وتجعلها أقرب الى الكمال بمقدار خلوها من الهيولى وازدياد نصيبها من الصورة المحض التى لا مادة فيها .

أما الاله فى العقيدة الاسلامية كما يبسطها الأستاذ الامام فى كتبه المتقدمة فهو « الوجود الكامل المطلق » وكل ما عداه من المخلوقات فهو وجود ناقص محدود .

وكمال الله لا ينفى ارادة الخلق على قول أرسطو فى الارادة ، ولا يقتضى قدم المخلوقات الناقصة المحدودة متفرقة أو مجتمعة فيما نسميه العالم أو الكون ، ولا يمنع العقل أن يكون هذا العالم حادثا وأن يكون الله قد أحدثه من العدم بقدرته ، لأن القدرة هى امكان القادر ما لا يمكن غيره ، ومعنى قدرة الخالق المطلق أنه يمكنه ما ليس بالممكن بغير قدرته المطلقة ، فلا وجه هنا للاستحالة مع الوجود المطلق الذى ليست له حدود .

وصفات الله التى يقتضيها الكمال واجبة وجوب وجوده على أكمل صفة ، فاذا جاء الشرع بصفات غير مستلزمة عقلا

فلا يجوز للفيلسوف أن يرفض صفة من الصفات لا يمنع العقل نسبتها الى الكمال المطلق . ولا معنى للجدل العقيم في استكناه هذه الصفات لأن العقل الانساني لا ينفذ الى كنه شيء من الأشياء ، فضلا عن كنه الوجود الأوحد الذي ليس له مثيل يقاس عليه .

وللأستاذ الامام في ذلك رأى كراى الفيلسوف الألماني عمانويل كانت في استحالة العلم بالشئ في ذاته (Nomena) ووقوف العلم الانساني عند الظواهر (Phenomenan) مع التعبير عن هذا الفارق باصطلاح الأقدمين : وهو الفرق بين الكنه والعوارض ، اذ يقول من رسالة التوحيد عن غاية كمال العقل الانساني انما هي « الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الادراك الانساني حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ، ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لأنواعها والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها ، وأما الوصول الى كنه حقيقة ما فمما لا تبلغه قوته ، لأن اكتناه المركبات انما هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهي الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى اكتناؤه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره » .

وليس قصور الانسان عن استكناه الأشياء في ذواتها بحائل بينه وبين الاستعانة بعقله على المعرفة الدينية . فانه بهذا العقل يستعين على كل معرفة تعنيه وتنفعه في مصالحه الدنيوية ، وعلم العقل الانساني بقصوره يلهمه تفويض الايمان بمسائل الغيب

ومسائل الشرع التي لا تتطلبها العقل على صورة من الصور غير صورتها في الدين ، كشعائر الفروض واعداد الركعات في صلوات العباد ومقادير الزكاة وما اليها ، فان العقل يتقبلها لأنها ضرورية على صورة من الصور ، وليس له أن يرفضها على صورة دون صورة .

وبهذه القوة العاقلة في الانسان يدرك ما يجب في حق الله وما ليس بالمتنع في حقه ، كما يدرك ما ينبغى للخلق كله في جملة ، وقصارى القول فيه أن الواجب في حق الله هو الواجب في حق الوجود الكامل المطلق ، وأن نهاية القول في العالم كله أنه وجود مخلوق أو وجود محدود .

وتتجلى طبيعة المصلح العامل في هذه الفلسفة الالهية التي اطمأن اليها من بين آراء الفلاسفة وعقائد المعتزلة وعلماء الكلام . فلم يكن يعنيه منها أنها فلسفة تحل جميع المشكلات وتفسر جميع الغوامض وتفصل في جميع القضايا المتعلقة بين المفكرين الالهيين ، وانما كان يعنيه منها أنها تبطل الحيرة من الناحية العملية فلا تشغل العقل بما لا داعية للحيرة فيه . لأنه على أى الآراء من ناحية الواقع سواء . وما لم يكن البت فيه جوهريا للعلم بحق الله وحق العالم المخلوق فالقيل والقال فيه لاجة لا تجمل بالعقل وليس لها ضرورة في عقائد الضمير .

فالوجود المطلق لا يحده الزمان لأنه يخلق الزمان ، ولا موجب اذن للحيرة في قدم العالم أو حدوثه . لأن الله قادر على

أن يخلقه مع الزمان ، ولا داعية لحيرة العقل في أمر حدوثه وقدمه على هذا الاعتبار .

والذين يقولون ان البعث بالأرواح حتم يوجبون استحالة البعث بالأجسام في غير استحالة معقولة . لأن قدرة الله لا يمتنع عليها تبديل الجسد في ابدان الحياة ، ولا داعية للحيرة في مقادير المادة التي تتألف منها الأجساد الحيوانية جميعا ، لأن الاله الذي خلق المادة ابتداء يخلقها كرة أخرى بما يشاء لها من المقادير .

ومسألة القدر — على أى معنى من معانيه — لا تلغى ارادة الانسان كما ينبغي أن تكون ارادة المخلوق المحدود ولا تبطل الجزاء كما ينبغي لتلك الارادة ، والعلم السابق بالتكليف والعقاب لا يقتضى بطلان الارادة النفسية ، لأن الانسان قد يريد عامدا ما يعلم أنه معاقب عليه . واذا كان علم الله بعمل الانسان حقيقة فحقيقة مثلها أنه جعل له ارادة على قدر وسعة ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها على أية حال .

واذا بقى من هذه الخلافات شيء لا تبطل فيه الحيرة فهو الشيء الذى يقضى العقل بالتفويض فيه الى الله . لأن فهمه والتسليم فيه للغيب سواء .

ويخيل الى قارئ الفلسفة حين يراجع أقواله في العقائد العضدية ورسالة التوحيد أنه فرغ من هذه الأقوال جميعا وهو يقول لنفسه : ان المفيد هو أن نعمل ما لا بد من عمله ، فدعونا من اضاءة الوقت والعقل في تحصيل الحاصل ، ودعونا من

الخلاف فيما يتساوى فيه طرفا الخلاف ، فان ترك الحيرة أولى من الحيرة التى لا تنتهى الى طائل .

وان مسلكه هذا مع الفلاسفة والمفكرين لقريب جدا من مسلكه مع الساسة والأمراء : الاصلاح بدونهم خير من انتظار الاصلاح معهم على غير جدوى .



والواضح من تعليقات الأستاذ الامام على العقائد العضدية أنه تتبع مذاهب الفرق فى أمهات مراجعها ، وأحاط باللباب الجوهري من أقوال الفلاسفة الاسلاميين ، ولم يفته منها غير المصادر التى ظلت مطوية فى مكتبات الغرب وتخصص فيها البحث بآراء الفيلسوف الأندلسى ابن رشد التى كان فيها على خلاف مع سائر الفلاسفة المشرقين . وقد كان هذا سبب النزاع على الفلسفة الرشدية بين الأستاذ الامام والأستاذ فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة . فان كلا الباحثين كانت تعوزه مراجع الآخر « ولعل هذه المساجلة - كما قلنا فى رسالتنا عن ابن رشد - تهدينا الى أسباب اتساع الخلف وانفراج مساقته بين المتناقشين فى هذه المسائل وأشباهاها ، فان اتساع الخلف بينهم انما يأتى على الأغلب الأعم من اختلاف المراجع التى يعتمدون عليها ، وهذا الذى حدث فى مناقشة الأستاذ الامام والأستاذ فرح أنطون ، فلم يكن أحدهما يعتمد على مراجع الآخر فى مسألة من مسائل الفلسفة الرشدية أو الفلسفة

الاسلامية على التعميم .. قال الأستاذ الامام : وأما العقل فليس كما تقول الجامعة . فان العقل الأول جوهر مجرد عن المادة ، وهو قول صادر عن الواجب ، وقد صدر عنه الفلك التاسع المسمى عندهم بالفلك الأطلسي ، ونفس ذلك الفلك تدبر حركاته الجزئية . وعقل آخر هو العقل الثاني ، وعن هذا العقل الثاني صدر الفلك الثامن المسمى عندهم بالعقل الفعال أو العقل الفياض ، وعن هذا العقل صدرت المادة العنصرية ، واليه يرجع ما يحدث في عالمها .

وهذا كله صحيح بالنسبة الى فلاسفة الاسلام في المشرق على الجملة ، ولكن ابن رشد كان يعتمد على شرح أرسطو مباشرة ويفسره برأيه لا بآراء الفلاسفة المشرقيين ، ويقول من كتاب تهافت التهافت في مسألة تعدد العقول : ولسنا نجد لأرسطو ولا لمن شهر من قدماء المشائين هذا القول الذي نسب اليهم ، الا لفرغوريوس الصوري صاحب مدخل علم المنطق ، والرجل لم يكن من حذاقهم .

أما الأستاذ فرح أنطون ، فكان جل اعتماده على تخريجات رينان ولم يتوسع في الاطلاع على كتاب التهافت وغيره توسع استقصاء ، وقد صرح بذلك حيث قال : لا مناص للكاتب العربي اليوم من أخذ تلك الفلسفة عن الافرنج أنفسهم ، فأخذنا كتابا للمستتر مولر عنوانه : فلسفة ابن رشد ومبادئه الدينية ، وكتابا آخر عنوانه : ابن رشد وفلسفته ، وهو للفيلسوف رينان المشهور .

فقد كانت المصادر اذن مختلفة ، وكان أكثرها مرويا عن صاحبه مأخوذا من خلاصة كلامه ، ولو توحدت المصادر مع حسن النية لما تباعدت بين المتناظرين في هذه المسألة ، ولا في غيرها ، شقة الخلاف .



فمصادر الأستاذ الامام في مسائل الفلسفة الاسلامية كانت شاملة لمراجعها الوافية من كتب الفلاسفة والمعتزلة والمتصوفة والمتكلمين ، ولكننا لا نعلم عن مصادره التي اعتمد عليها لدراسة الفلسفة الغربية شيئا على التفصيل . وكل ما نعلمه أنه كان يطلع عليها في بعض كتبها بعد تعلمه اللغة الفرنسية ، وأن أقواله عن العقائد الالهية تدل على علم بآراء الفلاسفة المتأخرين من الأوربيين ، وأغلب الظن عندنا أنه توافق في التفكير الذي تشابهت فيه الموضوعات الفلسفية قديما وحديثا ، وهي - فيما عرضت له - من مسائل الخلاف لم تطرق موضوعا لم تسبق اليه في موضوعات الفلاسفة الاسلاميين .

ولعل من هذا التوافق قوله الذي ارتاح اليه سبنسر حين سأله عن العقيدة الاسلامية في الاله . فانه ذكر له عقيدة أهل السنة وعقيدة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود ثم ذكر له أن بعض المتصوفة الاسلاميين يعتقدون أن الله وجود محض . وليس بشخص ، فبدأ على الفيلسوف الانجليزى أنه ارتاح الى هذه العقيدة ، ويبدو اليوم أنها العقيدة التي يرتاح اليها كبار

المفكرين الغربيين ، ومنهم انيشتين صاحب الفلسفة النسبية .
وكذلك يجوز لنا أن نفهم أن الأستاذ الامام ثقل عقيدة
المتصوفة القائلين بهذا وهو يفرق بين دلالة الشخص (Person)
ودلالة الذات في عقيدة التوحيد الاسلامية ، لأن الشخص
باللغات الأوروبية يوحى بالشبه والحد والمثال ، من أصل الكلمة
اللاتينية التي أخذت من قناع الوجه المستعار في التمثيل .
وليس في كلمة « الذات » ما يوحى بهذا على الحقيقة أو على
المجاز ، وإنما توحى بأن الذات تحتوى الصفات وتملك ما ينسب
اليها من لوازم الكمال .



ولا نجد في كتابات الشيخ محمد عبده أنه أراد أن ينشئ
له مذهباً خاصاً في المسائل الالهية كالمذاهب التي تسمى بالنظم
في اصطلاح الفلسفة الحديثة ، ولكننا نجد آراءه كاملة في كل
مسألة من هذه المسائل مبسطة في تعليقاته على أقوال الفلاسفة
أو المعتزلة أو المتكلمين أو المتصوفة ، يوافق بها كل طائفة من
هذه الطوائف أو يخالفها ، مستقلاً عنها جميعاً بمنهج الذي
امتاز بطابعه الخاص في الفهم والتحقيق ، وهو طابع الفكرة
العقلية العملية ، أو طابع الفكرة الصالحة للتعليم والافادة
بالتربية والهداية .

فهو مع الفلاسفة الالهيين في مسألة الوجود الالهي
أو الوجود المطلق ، ولكنه لا يقف بادراكه للقدرة الالهية عند

استحالة الخلق من العدم ، لأن الوجود المطلق في عقيدته ،
وتفكيره ، لا يستحيل عليه أن يفيض نعمة الوجود على خلقه .
فليس الخلق من العدم بالمستحيل . بل المستحيل هو العدم نفسه
مع وجود الخالق المرید الفعال لما يريد . ولا تكفير عنده لمن قال
يقدم العالم وهو يؤمن بأن الله هو الفاعل لما أراده من خلقه .
اذ كانت ارادة الله قديمة لا ندرى كنه عملها السرمدي خارج
الزمان ، وكان الواجب في مسألة وجود العالم أن تؤمن بأن له
موجدا كما شاء ، فلا يكفر من قال ان الله أوجد العالم في القدم
، وان يكن مخطئا في التفكير . قال في تعليقاته على العقائد
العضدية : « واعلم أنى وان كنت قد برهنت على حدوث
العالم ، وحقت الحق فيه ، على حسب ما أدى اليه فكرى ،
ووقفنى عليه نظرى ، فلا أقول بأن القائلين بالقدم قد كفروا
بمذهبهم هذا وأنكروا به ضروريا من الدين القويم ، وانما أقول
انهم قد أخطأوا في نظرهم ولم يسددوا مقدمات أفكارهم » .

ثم قال : « ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد
ولم يعول على التقليد في الاعتقاد ، ولم تجب عصمته فهو
معرض للخطأ ، ولكن خطأه عند الله واقع موقع القبول ، حيث
كانت غايته من سيره ، ومقصده من تمحيص نظره أن يصل الى
الحق ويدرك مستقر اليقين » .

وهو مع المعتزلة في تحكيم العقل والاستهداء به الى هدى
الدين ، ولكنه لا يرى رأيهم في الاستغناء بالعقل وحده ،
لأنه يفرق بين مطابقة الدين للعقل وبين الاكتفاء بالعقل في

المسائل النظرية والشرعية ، اذ لابد من تسليم العقل بنصيب الشرع من الهداية ، ما دام العقل يعلم أنه لا ينفذ الى كنه الأشياء ، وان العقول الانسانية موكولة الى حكمة الغيب حيث وقف بها مدى التفكير .

وهو مع المتكلمين في استخدام القضايا المنطقية ، ولكنه يأخذ على غلاتهم أن استخدام المنطق يذهب بهم الى السفسطة أحيانا ، ويدفع بهم الى خلق المشكلات بينهم وبين الفلاسفة أو المعتزلة ، في غير داع الى الاشكال .

وهو مع المتصوفة ، أو على الأصح مع الحكماء المتصوفين ولا سيما الأخلاقيين ، لأن التصوف عنده رياضة خلقية على هدى الرياضة العقلية ، ولكنه يرى لهذه الرياضة جانبا غير الجانب الحسى من الحياة الدنيوية يسميه « ذوقا » ويحمد من صاحبه أن يروض عليه ضميره ووجدانه ولا يدين به أحدا من المقيدن بالحياة الطبيعية أو الحياة الحسية ، لأن الأمر في هذه الحياة لما يستقيم عليه صلاح الجماعة ، ولا محل فيه للذوق الخاص الذى لا تراض عليه طبيعة العموم .

وجماع القول في مذهب الأستاذ الامام أنه كان مذهب « المصلح الاسلامى المفكر » الذى أعطى التفكير النظرى كل حقه ولكنه أخذ منه حق العمل على الاصلاح الرشيد المستنير ، واستخلص منه العقيدة الاسلامية خالصة من عقبات الجمود والخرافة التى تصدها عن التقدم وتقعدها عن مسايرة الزمن والتأهب للحياة بأهبة العقل البصير والضمير الحر والكفاية

الخلقية والمادية لمناهضة القوة المستطيلة عليها بسلاح العلم والمال - تلك القوة التي أنزلت المسلمين في العصر الحديث منزلة المغلوبين المستبعبدين ، ومن حقهم لو عرفوا دينهم حق معرفته أن يرتفعوا بأنفسهم عن مهانة الخنوع والاستعباد .

وقد كان له في مذهبه هذا تلاميذ يؤمنون بالفكر والعقيدة في أرجاء العالم الاسلامي من أقصاه في المشرق الى أقصاه في المغرب ، وكان أكثر هؤلاء التلاميذ من قادة الفكر المتدينين يقومون بواجبهم المضاعف في كل بلد اسلامي كما قام به الأستاذ الامام في وطنه ، فيكافحون الجمود من جهة ويكافحون التفرنج الذميم من الجهة الأخرى ، ويتعرضون في وقت واحد لعداوة المتألبين عليهم من أنصار الاستعمار والاستبداد وأنصار الجهل المظلم والتعليم الفاسد ، وفئات النفعيين الذين يندسون بين جميع الصفوف ، حيث وجدت المنفعة على كل حساب ، ولو كان حساب الوطن والدين .

على أن تلاميذ « الفيلسوف » محمد عبده كانوا فئة معدودة تحسب بالآحاد في كل أمة من أمم العالم الاسلامي ، وكان عليهم أن يعيدوا دعوته بالسنتهم وأقلامهم مرة أخرى حتى تبلغ الى الأسماع والعقول ، وانما انتشرت دعوته الى الاصلاح أوسع انتشارها بين قراء تفسيره للقرآن وفتاواه لطلاب الفتيا الكثيرين ومقالاته وفصوله التي كانت تنشر بتوقيعه أو بغير توقيعه ولا تخفى نسبتها اليه لنشرها في مجلة « المنار » . وقد أنشأ مسلمو أندونيسية مجلة على مثالها سموها « المنير » تبلغ

هذه الدعوة لمن لا يقرأون العربية من أبناء الأمة الملاوية ،
وتتبع مسلمو الهند دروسه كما توجهوا اليه بالاستفتاء في كل
مشكلة من مشكلاتهم الاجتماعية التي تصطدم عندهم بالعقيدة
الدينية ... ولما تسامح المسلمون في الهند باققطاع الأستاذ الإمام
عن ادارة الأزهر وشاع بينهم أنه سيهجر التدريس وقع منهم
النبا موقع الهول الذي لا يحتمل وكتب النواب محسن عميد
كلية عليكرة ينعي رسالة الاصلاح في العالم الاسلامي وينحي
على الخديو وشيعته من الجامدين أشد الانحاء ويقول انهم
« لو كانوا يتوقعون من المستر دتلوب بعد قنوطهم ويااسهم
من الجامع الأزهر أن يؤسس لهم كليات وجوامع في أرض مصر
يكون فيها نشر التعاليم العالية ... لكان في ذلك بعض التعزية
عما قد فاتهم من ذلك في الجامع الأزهر ، ولكن الذي ظهر لنا
أنهم لا يتوقعون ذلك من هذه الجهة أيضا ... وعسى أن ينكشف
لديهم أن أعضاء الدولة الذين بأيديهم زمام دولة مصر وملاك
أمرها وسلطانها لا يرضون بأن يتاح لهم من التعاليم ما تستنير
به قلوبهم وتستضيء به أدمغتهم ويطلعون به على حقوقهم المالية
والسياسية » .

وقالت صحيفة الرياض بعد نشر الخبر ومعه خطاب الخديو :
« عجبنا وعجب كل مسلم في الهند من حكم سموه الذي قضى
به في جمع حافل من العلماء وشدد النكير على حزب المصلحين
وجماعة المخلصين فالآن يصدق على من يخرج من

الأزهر : ليس له في الدنيا نصيب وما له في العلوم الاسلامية من خلاق » .

وكان للنبا في البلاد العربية صدى كصداه هذا في البلاد الاسلامية غير العربية ، وصححت ثورة الخواطر تقدير المصلحين أنفسهم لمدى انتشار الدعوة بين جبهة المسلمين ومدى النكسة التي أصيبت بها حركة التجديد من جراء تلك الحملة المطبقة عليها من بين صفوف الجامدين وسماسرة الكذب والتشهير ، فوضح لهم بعد الغاشية الأولى أن دعوة الحرية الفكرية أقوى من أن تصدها عن طريقها مكيدة مفتعلة تقوم على التدمير المشترك بين الجمود والباطل ، لأن الجمود ادبار الى الماضى لا محل له في المستقبل ، والباطل غشاء دخيل لا بد أن ينكشف عن معدنه الأصيل .

وفي مصر كانت مبادئ المصلح الحكيم تسرى سرياتها العميق الى العقول الفتية وعقول الكبار من ذوى النيات السليمة ، وكانت تستقر على أسسها في الوقت الذي خيل فيه الى المستمعين لضجيج السعاية أن الأمة قد أعرضت عنه بأسماعها وقلوبها ، وأن حملات التشهير قد نالت من سمعته منالا يصرف الناس عن الاكتراث له والمبالاة بعلمه وعمله ، وأملى للمتوهمين في وهمهم هذا أن الدعوات الفكرية لا تبرزها الحشود الجامعة كما تبرزها دعوات الحوادث السياسية ، فإذا سرت الى العقول متفرقة لم تظهر في الأمة مجتمعة الا بما يكون لها من النتائج العامة في الزمن الطويل ، ولكن المصيبة بفقد

المفتى بعد اعتزاله ادارة الأزهر هيأت لهذه الدعوة الفكرية حشودها الجامعة التي لم تنهياً قبل ذلك لدعوة من الدعوات السياسية في الأمور التي تشغل أذهان الجماهير ، ولم يكن للمفتى الفقيد حزب ذو أداة منتظمة تسخر أعوانه لجمع الجموع وتسيير المواكب ، بل كان صاحب السلطة الرسمية يعاديه ويغضب على مشييعه ، وكانت صفة الفقيد الدينية لاتدع مكانا للسلطة الفعلية في تشييعه والاحتفال بجنازته ، وكان الوقت صيفا قائظا والغائبون عن المدن من معتادى الاصطياف خارج القطر وفي قرى الريف أكثر من الحاضرين ، فغلبت الصبغة القومية على كل صبغة رسمية أو تقليدية في تشييع رفات المفتى الى مقره الأخير من الاسكندرية الى القاهرة ، بل غلبت هذه الصبغة على الصبغة التقليدية التي تعودناها بمصر في تشييع الجنازات ، اذ كان المفتى في حياته ينكر هذه المظاهر التقليدية ويعلن النهى عنها ، فكانت موجة الحزن التي غشيت ألوف المشييعين على طول الطريق دفعة من أعماق القلوب والضمائر عرفت بها الأمة مبلغ شعورها بعظمة الفقيد الراحل وعظم الخسارة بفقده ، وجاوز الزحام كل ما قدرته الشرطة واتخذت له حيطتها في المدينتين منذ الصباح الباكر قبل خروج النعش من داره ، فتعطلت حركة الأسواق وأغلقت الدكاكين أبوابها للمشاركة في موكب الجنازة ، واكتظت الأرض صفا بالواقفين والسائرين ، ولم يبق أحد في العاصمتين من ذوى الفكر والمنزلة

لم يشترك في ذلك الموكب الحافل الذى عمت التعزية فيه وجلت
أن تخص عشيرة الفقيد أو ذويه ، ولم يدهش أحد من هذه
البادرة القومية بطبيعة الحال ، كما دهش لها النزلاء الأوربيون
الذين كانوا يتسمعون أخبار المعارك حول الاصلاح الدينى من
بعيد ويحكمون عليها بمقدار ما ينتهى اليها من لفظ الصحافة
وآقاويل المرجفين . فقالت صحيفة الفاردي ألكسندري : « ان
توارد الجماهير لتشيع الجنازة يخمد أنفاس القائلين بأن المفتى
لم يكن محبوبا فى الأمة المصرية ^(١) » . وقالت صحيفة ليچيت :
« انه مشهد مهيب من أجلّ المشاهد وأشدها تأثيرا فى النفوس .
كان يشتد زحامه بجماهير الناس المصطفين على جوانب الطرق
التى مر بها حتى لقد توقفت حركة التجارة فيها ، وكان الناس
فى سكون واجلال خلال مرور الجنازة ، يخيل الى الرأى أن
جميع سكان القاهرة الوطنيين قد حضروا ليؤدوا آخر فريضة
من الاجلال والاعظام لذلك الشيخ الجليل ، وبينهم عدد عظيم
من الأوربيين » .



وقد تمخضت هذه البادرة القومية عن معناها العملى
الدائم ، ولا يمكن أن يكون لها غير معنى واحد هو الذى
شوهده فى واقع الحياة القومية بعد ذلك وبرزت حقيقته فى كل

(١) عدد ١٢ يولييه ١٩٠٥

مهمة تتطلب الرجال العاملين من المفكرين المؤمنين بفريضة الإصلاح ورسالة التقدم . فقد شوهذ تلاميذ المصلح الكبير على رأس كل حركة جادة من حركات النهضة الوطنية أو الفكرية ، وتلفتت الأمة بعد وفاته تبحث عن القادة العاملين فلم تجد بين المتقدمين للقيادة من هو أقدر على قيادتها وتسديد خطاها وتقرير مطالبها من زمرة الفقيد وخيرة أشياعه وتلاميذه ومريديه ، لا فرق في ذلك بين شئون الدنيا وشئون الدين ، وحسب القارىء ما يمكن حصره في الشئون الدينية التي تتصل بالجامع الأزهر ومعاهد التعليم على منهجه ، فلم يكن أظهر بين مشايخه وأقطابه من الشيخ محمد شاكر والشيخ مصطفى المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ ابراهيم حمروش والشيخ محمود شلتوت ، وكلهم من مريديه المؤمنين برسالته ، وغيرهم كثيرون مثلهم وإن لم يحضروا كلهم على يديه . أما في شئون النهضة الوطنية على اختلافها فلا حاجة الى التخصيص باسم واحد من أسمائها أو فرع واحد من فروعها ، فكلها بلا استثناء تقترن باسم - أو أكثر من اسم - بين شيعة الأستاذ الامام ، وقد كانت ثورة مصر الكبرى على الحملة البريطانية بعد الحرب العالمية الأولى - بزعامة سعد زغلول - مثالا للأمانة الخلقية والنفسية التي أودعها الأستاذ الامام في نفوس شيعته وخاصة صحبه ، وأهلتهم في نطاقها الواسع لتلك المهمة الجامعة ، كما أهلتهم لما دونها من المهام المتفرقة في كل نطاق محدود .



وأكبر ما استفاده العقل السليم المستنير من فكرة الأستاذ
الامام في الاصلاح والحرية الانسانية أنه أعاد اليه الثقة بعقيدته
في هذا العصر الحديث ، ورفع من طريقه الى العمل عقبات
الجمود والخرافة والتقليد ، لأنه زوده على قواعد دينه بفلسفة
الحياة التى يقابل بها فلسفات الغرب المتسلطة عليه من جهة
السطوة أو من جهة الايمان بالعقائد والآراء . ولهذا كانت
ردوده على فلسفة الغرب ومفكره أهم وأجدى على المسلم
العصرى من ردود المدافعين عن الاسلام على جماعات المبشرين
المحترفين ، اذ كانت شبهات المبشرين المحترفين لاتعدو أن تدور
حول الشقاشق اللفظية التى تمس الأديان الأخرى أشد من
مساسها بالاسلام فى العصر الحاضر أو العصور الماضية ، ولكن
شبهات المفكرين على غرار الفيلسوف أرنت رينان والوزير
جبرائيل هانوتو كانت على غير ذلك الغرار من شبهات المبشرين
المحترفين : كانت بحاجة الى الفكر العصرى المؤمن بالدين
لمواجهة الأفكار العصرية التى لعلها لا تؤمن بالاسلام ولا بغير
الاسلام ، ولكنها تخامر فكرة المسلم كما تخامر ضميره بالأسئلة
المعلقة فى انتظار الجواب من ذى ثقة باعتقاده وذى ثقة بتفكيره
وذى طوية لا ترتقى اليها الظنون ، وكان الأستاذ الامام مليئا
بكل ما يتطلبه العقل المسلم المستنير فى عصره من آيات الثقة
وحجج الاقناع .

كانت ردوده على رينان وهانوتو ردود من يعلم ما قد علموه
عن تواريخ الحضارات وخصائص الشعوب وطبائع الأجناس

والسلالات ويزيد عليهم بالايان الثابت والأريحية الانسانية
والهمة التي ترفعه الى مقام الرسالة الروحية ، اذ لا رسالة لأمثال
رينان وهانوتو في عالم العقيدة ولا في عالم الاصلاح . وقد
كان - قدس الله روحه - أعلى طبقة من مناظريه في مضار
المنافرة بين المعسكرين المتقابلين ، فكان رينان وهانوتو يقابلان
بين الاسلام والمسيحية ليقابلا بين المسلمين والمسيحيين الأوربيين
خاصة ، ويقابلا بعد ذلك بين دعوى الغالب ودعوى المغلوب ،
ولم ينزل الأستاذ الامام الى مضمارهم الا ليدفع عن عقيدة
الاسلام دون أن يقدح في عقيدة المسيحية ، بل كان دفاعه عن
الاسلام في وجه الأوربيين المصطبغين بالصبغة المسيحية وهم أبعد
ما يكونون عن المسيحية السمحة كما يعرفها الأستاذ الامام ..
ولم يخرج من ردوده بتنزيه الاسلام وتشويه المسيحية .
بل خرج منها جميعا بتنزيه الديانتين واثبات الحقيقة التي يدين
بها من يدين بكتاب الاسلام : وهي أن المسيحية ديانة محبوبة
لا عداوة بين من يدين بها على أصولها ومن يدين بالاسلام على
أصوله ، ولا يحرم على المسلم يوما أن يصاحب أهل الكتاب
على سنة أهل الكتاب .

وقد ألهم فضلاء المسيحيين ذلك من وحي فكره ووحى
اعتقاده ووحى كلامه في تفسير القرآن وشرحه للدين في كل
موطن أقام به أو رحل اليه ، فكان أدباء المسيحيين يتسابقون
الى دروسه بمساجد بيروت أيام منفاه ، وكان القس الانجليزى
اسحاق تايلور يرى أن شرح المسيحية كما يبسطه الأستاذ

الامام يوشك أن يعينه على اقناع الأوربيين بالتوحيد بين
الديانتين على الجادة الوسطى التى يلتقى لديها المؤمن بالأنجيل
والمؤمن بالقرآن . وعبر العلامة يعقوب صروف تعبيره الصادق
عن شعور فضلاء المسيحيين يوم قال ساعة دفن الأستاذ الامام
لمن حوله من تلاميذه : « انى أسمعكم تقولون فقيد الاسلام
والمسلمين ولا تزيدون ، انه فقيد الفكر والعلم حيث كان ...
انه فقيدنا أجسين » .



الفلسفة الاجتماعية :

ومن البديهي أن الفيلسوف المصلح لا يقصر تفكيره على
العقليات والالهيات ، أو على فلسفة ما وراء الطبيعة كما تسمى
عند المعاصرين ، اذ لابد له من فلسفة اجتماعية يتبعها فى اصلاح
المجتمع على مبادئه التى يتوخاها ويتخذها هاديا له الى فضائل
المجتمعات المثالية ومواطن عيوبها التى يجتهد اجتهاده فى تبديلها
أو ازالتها . وهذا هو الواقع فى منهج محمد عبده المصلح
الفيلسوف . فان فلسفته الاجتماعية مفصلة واضحة من كل
ما كتبه فى مطولاته ومختصراته بلا استثناء كتابته عن العقليات
والالهيات ، ولكننا نستطيع أن نسمى فلسفته الاجتماعية فى
لبابها فلسفة أخلاقية لا تفرق بحال بين مشاكل الاجتماع
ومشاكل الأخلاق ، وليس للاجتماع عنده مشكلة قائمة اذا
توفرت العزائم على علاج آفات الخلق فى الفرد والجماعة ،
وليست عنايته بالناحية الخلقية سهوا عن أثر الشئون المادية أو

شئون النظام في آداب المعاملات وآداب النفوس على الاجمال ،
لأنه كان يؤمن بأثر الفاقة والثروة معا على ضمائر الناس من
الرجال والنساء ، وكان يقول دائما ان العفة ثوب تمزقه الفاقة
وأن الثروة بغير عمل مفسدة ، وعناصر الكيان الاجتماعي عنده
— كما عددها في رده على هانوتو سبعة : هي العلم والأدب
والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . فليس قيام
الكيان الاجتماعي على الأخلاق في رأيه سهوا عن عمل التجارة
والصناعة ولا عن عمل النظام العادل في سياسة الناس ، ولكنه
كان يعتبر أن الجهل فقر أشد على الناس من فقر المال ، وهو
انقائل في احدى خطب الجمعية الخيرية : « ان بلادنا ليست
بلاد الجوع القتال ولا بلاد البرد القارس الميت ، ولا بلاد
الشقاء التي لا ينال الانسان فيها قوت يومه الا بالعذاب الأليم ،
بل نحن في بلاد رزقها الله سعة من العيش ومنحها خصوبة وغنى
يسهلان على كل عائش فيها قطع أيام الحياة بالراحة والسعة ،
ولكنها ويا للأسف منيت مع ذلك بأشد ضروب الفقر : فقر
العقول والتربية » .

وقد قال قبل ذلك في خطاب المدرسة السلطانية ببيروت :
« .. اننا لو نظرنا الى ثروة بلادنا لا نجد لها قاصرة عن حاجاتها
ولكن القاصر عن الحاجات هو ادراكنا لاحتياجنا ، فقد نرى
الغنى يبذل أموالا جمّة في زخارف زينة لا مقام لها في نظر
العاقل ولا يرى في بذله هذا مغرما ، ثم اذا دعى الى مساعدة
وطنه وملته ودولته يستكثر القليل ويعطى وهو كاره » .

فاذا تحرى النظام العادل توفير أسباب المعيشة الحسنة فالرخاء — وهو غاية ما يبلغه هذا النظام — لا يكفى لاقامة كيان المجتمع ولا لحفظ بقائه من عوامل فنائه ولا من أخطار أعدائه ، ولن يقام للمجتمع كيان بغير المعرفة العملية والتربية الأخلاقية ، ولن يقر له هذا الكيان اذا حرم منهما أحد جنسيه واحدى طبقاته .

ومن أخطر أسباب الضعف التى أصابت المسلمين كما قال فى رده على هانوتو : « ان النساء قد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن فى دينهن أو دنياهن بستار لا يدرى متى يرفع » . وقد قال فى احدى خطب الجمعية الخيرية الاسلامية : « نحن نتمنى تربية بناتنا ، فان الله تعالى يقول : ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ... الى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تشرك الرجل والمرأة فى التكاليف الدينية والدينية ... وترك البنات يفترسهن الجهل وتستهوين الغباوة من الجرم العظيم » .

وكان أشد ما ينعاه على من يحسبون أنفسهم من العارفين قولهم : لا شأن لنا بالعامّة « فلا يمكن الانسان أن يعمل بمصلحة العامة ما لم يحس برابطة بينه وبينهم » ^(١) .

والعلم فى رأى الأستاذ الامام سبب من أسباب الثروة والقوة وسبب من أسباب المعرفة الذهنية التى تبصر العقل بأدوات النجاح فى أعمال المعيشة ، ولكن التربية الأخلاقية شىء

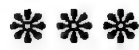
(١) راجع منشآت الأستاذ الامام صفحة ٦٤٩

آخر غير المعرفة الذهنية . ولا سيما المعرفة التي تتأدى آخر الأمر الى الايمان بالمادة دون غيرها ، وهو مايسسونه بالفلسفة المادية . وقد لمس الأستاذ الامام آثار هذه الفلسفة المادية في حضارة الغرب فأشفق من عواقبها على بنى الانسان وزادته اعتقادا بضرورة الدين لصالح النفوس البشرية وهداية الأمم في حياتها الاجتماعية . وأكدت له هذه الضرورة مناقشته للفيلسوف الانجليزى هربرت سبنسر (سنة ١٩٠٣) اذ قال له الفيلسوف الانجليزى : ان الانجليز يرجعون القهقرى فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة . فسأله الأستاذ الامام : وفيهم هذه القهقرى ؟ قال سبنسر انهم « يرجعون القهقرى في الأخلاق والفضيلة ، وسببه تقدم الأفكار المادية التي أفسدت أخلاق اللاتين من قبلنا ، ثم سرت اليها عدواها . فهي تفسد أخلاق قومنا وهكذا سائر شعوب أوربة » ثم قال : انه لا أمل له في صد هذا التيار « لأنه لا بد أن يأخذ مده الى غاية حده في أوربة . ان الحق عند أهل أوربة الآن للقوة » .

وفارق الأستاذ الامام دار الفيلسوف وهو يدير في خاطره كلمة الحق للقوة ويصف أثرها في نفسه ويحس أنها ما كانت لتحدث لديه هذا الأثر لو جاءت من ثرثرة يهرف بما لا يعرف . ثم يدون هذه الخاطرة في مذكراته :

« هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد في راحة الانسان أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الانسان ويعرضوها عليه حتى يعرفها ويعود اليها . هؤلاء الذين صقلوا

المعادن حتى كانت من الحديد اللامع المضيء أفلا يتيسر لهم أن
يجلوا ذلك الصداً الذى غشى الفطرة الانسانية ويصقلوا تلك
النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحاني ؟ . حار الفيلسوف في
أوربة وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء ؟ الرجوع الى
الدين . الدين هو الذى كشف الطبيعة الانسانية وعرفها الى
أربابها في كل زمان . لكنهم يعودون فيجهلونها .



الفلسفة الأدبية :

وربما كانت آراء محمد عبده — المفتى الأكبر — في الفنون
الجميلة أقرب الى تعريفنا بسعة الأفق التى امتاز بها هذا العقل
الراجح من سائر آرائه في المسائل العقلية والاجتماعية ، فانه
كان يكتب قبل ستين سنة ليحجب الفنون الجميلة الى الناس في
الوقت الذى كان رأى الشائع فيه عن النحت والتصوير أنهما
حرام مستنكر ... وكان المتعلمون العصريون أنفسهم يحتقرون
هذه الفنون ولا ينظرون اليها نظرة جدية أو يحسبونها حتى من
الكمالات المحتملة فضلاً عن اللوازم المطلوبة ، وقد خلا الشرق
العربى من مدرسة واحدة لهذه الفنون ، وقلت العناية بها في
الصحف السيارة ولم يظهر — بعد — لها أثر على اللوحة
البيضاء يعود الناس أن يحتفلوا برؤيتها ، فكان أكثر ما ينتظر
من رجل الدين المتحرر أن يدفع عنها وزر التحريم ويجعلها من
المباحات السائغة لمن يزاولها ، ولكن محمد عبده — المفتى —

كان يكتب يومئذ لينوه بها ويفسر معنى الاقبال عليها بين
الغريبين - لمن يجهله منا - بأنها عندهم كالشعر عندنا وأنها لغة
نفسية تفرق في تعبيراتها بين أدق المعاني الشعرية التي لا تظهر
التفرقة بينها من أسمائها وأوصافها . وفي ذلك يقول من فصل
كتبه في سنة ١٩٠٣ :

« اذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في
دواوينه ، والمبالغة في تحريره ، خصوصا شعر الجاهلية ، وما
عنى الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه ، أمكنك أن تعرف السبب
في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل ،
فإن الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع ، والشعر
ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى ... ان هذه الرسوم
والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشئون المختلفة ،
ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ، ما تستحق به أن
تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية ، يصورون الانسان
أو الحيوان ، في حال الفرح والرضى ، والطمأنينة والتسليم ،
وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك
تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة ، فتجد
الفرق ظاهرا ، باهرا ، يصورونه مثلا في حالة الجزع والفرع ،
والخوف والخشية . والجزع والفرع مختلفان في المعنى ولم
أجمعهما هنا طمعا في جمع عيين في سطر واحد ، بل لأنهما
مختلفان حقيقة . ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق
بينهما وبين الخوف والخشية ، ولا يسهل عليك أن تعرف متى

يكون الفزع ومتى يكون الجزع ، وما الهيئة التى يكون عليها الشخص فى هذه الحال أو تلك . وأما اذا نظرت الى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك ، اذا دعتك نفسك الى تحقيق الاستعارة المصرحة فى قولك : رأيت أسداً - تريد رجلاً شجاعاً . فانظر الى صورة أبى الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلاً أو الرجل أسداً . فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها » .

ويعرض بعد ذلك لحكم الشريعة فى تلك الفنون فيقول : ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهى : ما حكم هذه الصور فى الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجثمانية - هل هذا حرام أو جائز ؟ أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ . فأقول لك ان الراسم قد رسم والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال ، أو الصورة ، قد محى من الأذهان . فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة واما أن ترفع سؤالاً الى المفتى وهو يجيبك مشافهة ، فاذا أوردت عليه حديث : ان أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون ، أو ما فى معناه مما ورد فى الصحيح فالذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك أن الحديث جاء فى أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسبيين : الأول اللهو والثانى التبرك بتمثال من ترسم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضه

الدين والثاني مما جاء الاسلام لمحوه . والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به . فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات ، وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء . مع أن الفائدة في نقش المصاحف موضع نزاع ، وأما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر ... ولا يمكنك أن تجيب المفتي بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فاني أظن أنه يقول لك : ان لسانك أيضا مظنة الكذب ، فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب ؟ ... وبالجمله يغلب على ظني أن الشريعة الاسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين ، لا من وجهة العقيدة ولا من وجهة العمل . على أن المسلمين لا يتساءلون الا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها ، والا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم من الأولياء وهم ممن لا تعرف لهم سيرة ولم يطلع لهم أحد على سريرة ؟ ... وهم يخشونها كخشية الله أو أشد ويطلبون منها ما يخشون أن لا يجيبهم الله فيه ويظنون أنهم أسرع الى اجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى ... لا شك أنهم لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ، ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الانسان والحيوان ، لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية ... » .

والمفتى هنا يشير الى « المفتى » بصيغة الضمير للغائب ولا يجزم بفتواه جزم التوكيد ، لأنه كان يكتب تلك الرسائل من أوربة ويوقعها بتوقيعه المستعار كما تعود في كتابة رسائل الرحلات .

هذا رأيه في الفنون الجميلة التي لم يشتغل بها ولم يشتغل بها فنان خبير بها في عصره ، فلا عجب أن يكون رأيه في فنه الجميل الذي كان هو امام المشتغلين به — وهو فن البلاغة — رأى الرائد الذي يتذوق أسرارها في أشكاله ومعانيه تذوقا سبق به النقاد من خلفائه ، ولا يزال منهم من يقتفى آثاره ولا يدرك مداه (١) .

كان محمد عبده الناقد البليغ يوقن أن اللغة مادة البلاغة وجمال التعبير ، وكان من شواغله الكثيرة شاغل واحد لم تشغله عنه مهمة من مهام أعماله المتعددة التي تنوء بالعمل منها كواهل المنقطعين له والمتوفرين عليه . وذلك الشاغل الواحد هو احياء اللغة مادة وعلماء ودراسة وكتابة . فكان يعين جماعة احياء الكتب العربية بعلمه ووقته وماله ونفوذه ، وكان ينشر نماذج البلاغة السلفية ويشرحها بقلمه أو ينوه بها في دروسه وتفسيراته من قبيل نهج البلاغة ومقامات البديع ودلائل الاعجاز وأسرار البلاغة . ومن أهم المراجع اللغوية التي بذل الجهد في

(١) تراجع كلماته الماثورة في جزء المنشآت من تاريخ الاستاذ الامام الشيخ

محمد عبده .

استحضارها وتشجيع الواقفين على طبعها كتاب المخصص لابن سيده ، وهو نوع من المعجمات المبوبة على حسب المعاني والأغراض أنفع من أكثر المعجمات التي لا عناية لها بغير جمع المفردات .

ومذهب محمد عبده الناقد في تحصيل مادة اللغة انها تحصيل ملكة وليست بتحصيل قواعد ومصطلحات ، لأن دقائق الفصاحة والبلاغة وبراعة التعبير تحيي الفهم وترك الاشتغال بها « موت للحياة العقلية » ... وكان يقول ان الكلام البليغ سهل على الفطرة ولكنه « صعب على كل عقل تعلم البناني على السعد » ولا قدرة للأديب على القصد في التعبير بغير توفير مادته من اللغة ، ولا خير في المبالغة « فانما يأتي بالمبالغة من كان مجازفا في رأيه ، والعقل السليم لا يتعدى الصدق » ... ورأيه في الشعر البليغ مع جودة اللغة « انه لا يكون شعرا الا اذا كانت ألفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر » والا فهو نظم لا بلاغة فيه . وقد كانت توجيهاته لتلاميذه من الشعراء فاتحة اشتغال شعراء عصره بالتعبير عن الحياة الانسانية - عامة وخاصة - ولولاه لما ظهر كثير من القصائد في الموضوعات العامة ومنها قصائد كثيرة لحافظ ابراهيم وعبد المحسن الكاظمي ومحمد امام العبد ، وربما أملى على الشاعر ما يقوله حضا لبعض المحسنين بأسمائهم على معونة المنكوبين ، كما فعل في قصيدة حريق ميت غمر التي نظمها حافظ ابراهيم .



ويصدق على الشيخ محمد عبده الأديب أنه استعاد أطوار الأدب في كنيته من نهاية عصر التقليد الى الطور الأوسط من عصر التجديد الحديث . ففي كتاباته الأولى كان يلتزم السجع على عادة المتأخرين مع اجتناب اللغو الذى كانوا يخلطونه ببقالاتهم ولا يتحرون فيه معنى مفهوما يقصدون اليه ، ثم تخلص من قيود السجع وترسل في أسلوبه مع تحرى الفصاحة فى الكلمة وتصحيح الخطأ المشهور من أخطاء النحو والصرف التى كانت تتخلل الكتابة فى عصره ولا تزال تتخللها فى كتابة المتحرزين من هذه الأخطاء ، لغلبتها الطويلة منذ أزمنة بعيدة على المفردات والتراكيب ، وقد سلم أسلوب الأستاذ الامام منها الا القليل الذى لا يصعب رده الى القاعدة ببعض التجوز والتأويل ، ولو من قبيل تجويز الخطأ المشهور . وقد نظم الشعر فى الحوادث التاريخية وفى بعض المناسبات الخاصة ، وعده من النظم الذى يراد للتدوين أو التذكير ، ولا يرتضيه شعرا على مذهبه فى فن الشعر بين ألوان الفن الجميل .

ولم يتسع له الوقت لتأليف الكتب فى علومه التى كان يشارك فيها مشاركة وافية كعلوم الدين والفلسفة والبلاغة ، ولكنه فسر القرآن الكريم الى سورة النساء ، وفسر السور التى كان يحفظها التلاميذ من الجزئين الأولين ، وشرح الفلسفة الاسلامية فى تعليقه على العقائد العنصرية ، والمنطق فى شرحه للبصائر النسفية ، وكتب رسالة التوحيد تبسيطا لهذه الفلسفة ، واجتمع من مقالاته فى الرد على هانوتو كتيب صغير ، واجتمع

من مقالاته عن الاسلام والنصرانية كتاب أكبر منه وأوسع في بابيه ، وله في الأدب شرح نهج البلاغة مقامات البديع ، وله في التصوف رسالة الواردات التي كتبها في صباه ، ورسالة أخرى في علم الاجتماع ألفها يوم عمل في التدريس بدار العلوم ، ولكنها ضاعت ولم يبق من فصولها - أو على الأصح من معانيها - غير ما أودعه بعض البحوث في الوقائع المصرية والأهرام وصحيفة العروة الوثقى ومجلة المنار وتقديمه لترجمة رسالة الرد على الدهريين .

ولا يحسب هذا المحصول قليلا من مجهود التأليف في حياة رجل جم المشاغل والأعباء توفي وهو يناهز الثامنة والخمسين . ولكن عظمة هذا العقل الكبير وسعة الآفاق التي كان يجول فيها بتفكيره وجهوده تصغر هذا المحصول بالقياس الى المحصول الذي كان مستطاعا له مع اليسر وقلة الكلفة لو أنه انقطع للتأليف . فليست هذه المؤلفات ، على وفاء الفلسفى منها في بابيه ، الا كالشعاع القوى الذى ينبثق عن الشمس فيدل على ما احتجب منها ، ولكنه يعطى الناظرين كل ما تعطيه الشمس من ضوء النهار ، تتلقاه النوافذ وتحول دونه الجدران .



ولا نحسب أننا نحيط بذلك الأفق الواسع من شتى نواحيه اذا ختمنا الكلام على المصلح الفيلسوف دون أن نذكر حظه من فنون الرياضة البدنية الى جانب حظه الكبير من رياضات

لنعقل والروح . فقد كان هذا المجاهد الباسل في ميادين الإصلاح
فارسا سباقا في ميادين الفروسية والرياضة البدنية ، وكان فتيان
اقليمه يرحلون اليه لمباراته واكتساب الشهرة بسبقه أو اقتران
أسمائهم باسمه ، وظل الى آخر أيامه يركب الجواد أحيانا من
بيته بعين شمس الى القاهرة أو من القاهرة الى بيته ... وكان
يمتطيه كثيرا في ذهابه الى الجامع الأزهر ، ويقول لمن يراجع
من أنصار التقاليد ان الفروسية كانت من سمت النبوة ، وان
العالم الذي يتوكأ على السند الى اليمين والشمال انما يدرج
— كما قال في تقريره اللاذع — على سمت « ستى هالم » وليس
هو بسمت علم ولا عمل . وقد شهدناه في أسوان يحضر على
صهوة جواد الى ميدان الرياضة ليشهد مباراة كرة القدم بين
مدرستها واحدى المدارس القريبة منها ، فأعجبنا منه رجل
الدين المهيب ، يزيده وقارا ولا يخل بوقاره أن يقدس رياضة
الأبدان بقداسة الدين ، وفهمنا بهذه الزيارة الصامته درسا عن
الاسلام في عصر الحركة التي لا تهدأ والحياة التي لا تقبل
الجمود والوناء ، انه دين النفس القوية في الجسد القوى ،
لا امام له أحق بالاتباع من هذا الامام .

شخصية ولا شخصية

لوحظ في كتابة التراجم والسير أن البحث عن أحوال الشخصيات المشهورة يغرى القارئ - والكاتب معا - بالبحث عن أحوالها « الشخصية » ويشوق المستطلع الى جوانب الخاصة التي تقابل جوانبها العالية ، أو جوانبها التي اشتهر فيها أعمالها العامة .

ونلاحظ قديما وحديثا - قبل كتابة هذه الصفحات التي نختمها بهذا الفصل - أن سيرة محمد عبده كانت احدى السبب التي يقع فيها الاستثناء القليل من هذه القاعدة ، فانا نردا اكتفاء بأخباره العامة - عن أخباره الخاصة - كلما توسعنا في معرفتنا به ومعرفتنا ببواعث أعماله ، كأننا نحس بعد التوسيع في المعرفة بشخصيته أنها « شخصية » ولا شخصية ، أو أد أعماله الخاصة هي أعماله العامة بغير حاجز من السر أو العلانية يفصل بينهما ، فكل ما فيها من بواعث « الأثنية » والأثرة فهو فيها جنبا لجنب الى بواعث الانسانية والايتار .

يشوقنا كلما فهمنا عملا من أعماله أن نراه وتتأمل صورته المشهودة ، كأننا نسائل أنفسنا أى طلعة تكون لهذا الانسان الذى غاب بجمع نفسه وعقله فى الشعور الانسانى حتى كاد

أن يحصى بشخصه عن عالم الملامح والفسمات ، لولا أنه شخص عظيم لا يجوز عليه الخفاء .

تطلع الى رؤيته لنرى كيف تتمثل فيه هذه « الانسانية » الضافية مطبوعة أمام النظر بطابع السان واحد ، ولكننا لا نبحث كثيرا بعد ذلك عما يعنيه . لأننا علمنا أن شئونه الخاصة لا تنزل عن شئونه العامة ، وأن قرابته في داره وجواره هي إحدى قراباته العامة — قرابته الانسانية ، وليست قرابة أخرى لها حال غير هذه الحال ، ووجود غير هذا الوجود ، وحجاب يتغير جانبه من هنا عن جانبه من هناك .

رأيت الشيخ محمد عبده مرات معدودة ، ورأيت مرات لا تحصى في صورته الشمسية التي لا تلبس احداها بلامح صورة أخرى ، فكانت النظرة الأولى كالنظرة الأخيرة الى تلك الملامح فيما تنم عليه وتشير اليه .

قوة وطية متفقتان لا يبين لك أنهما تنازعتا يوما أو تنازعا . فهو قوى لا ينازع طبيته نية من ياتها ، وهو طيب لا ينازع قوته دافعا من دوافعها ، وهو أقرب الناس سمة بما يرتسم في أخلاذنا من سمات النبوة ، وهي في طلعتها الانسانية بشر مثلنا ، وإن لم تكن نحن بشرا مثلها فيما تتلقاه من وحى الله .

قال عنه تلميذه وصديقه وأقرب الناس اليه في عامة أمره وخاصته صاحب المنار السيد محمد رشيد رضا تفمدهما الله برضوانه : « انه سليم الفطرة ، قدسى الروح ، كبير النفس

وصادف تربية صوفية نقية زهدته في الشهوات والجاه الدني
وأعدته لورثة هداية النبوة فكان زيتته في زجاجة نفسه
يكاد يضيء ولو لم تمسه نار .

وافتح ترجمته بعد وفاته بنحو عشرين سنة بقوله
« ان هذا الرجل أكمل من عرفت من البشر دينا وأدبا و
وعقلا وخلقا وعلمًا وعملا وصدقًا وإخلاصًا ، وان من من
ما ليس له فيه ند ولا ضريب . وانه لهو السرى الأحسو
العبرى . »

وقال قبل ذلك : « اننى وايم الحق لم أطلع له على
الا الحقيق بلقب المثل الأعلى من ورثة الأنبياء . »

وقال قبل ذلك : « وائى وايم الحق لم أطلع له على
ينافى العفة والنزاهة ولا الورع والشرف ولا هفوة تدل
كامن حقد أو حسد ، فهو أكمل من عرفت من البشر ، ومن
على دخائل كثير من المشهورين بالعلم والتقوى أو الح
والفلسفة أو تاريخهم الصحيح رأى كثيرا من العجر والبج
فما قولكم في زعماء السياسة وعشاق الرئاسة . »

وهذا السمت الذى وصفه صاحب المنار بعد الخبرة الطو
هو السمت الذى كان يبدده الناظر اليه من الغرباء عند النفا
الأولى ، كما وصفه هارولد سبنسر كاتب حزب الأحر
الانجليزى فى صحيفتهم الديلى كرونكل بعد وفاته بأسابيع

اذ يقول عن لقائه له بدار صديقه عدو الاستعمار ويلنفرد
سكاوين بلنت :

« هنا أمسك مستر بلنت عن الكلام والتفت فجأة لسماعه
وقع حوافر فرس ، فقال : ها هو الرجل ... فالتفت مثله فاذا
أنا بصورة انسان يقول الناظر اليها انها برزت من كتب الأنبياء
الأقدمين . شيخ حسن البزة جهير يمتطى فرسا عريا كميتا جميلا
يقبل نحونا على مهل » .

كانت له طلعة وسيمة مهيبة ، تتوقد فيها عينان نفاذتان .
على قامة معتدلة لا الى البدانة ولا الى النحول ، أبيض اللون
الى سمرة ، شائع الشيب في رأسه ولحيته قبل أوان المشيب ،
وبنيتة على ما وصف به منذ شبابه بنية رجل سليم الجسد مكين
البنيان ، تعرض في عنفوانه لتسمم سرى الى الدم من دمل لم
يعقم ، فنجبا منه بمعجزة الجسد المكين والدم القوى والعزيمة
الصادقة ، وظلت عقابيله تعاوده فيما كان يعتريه من آلام المفاصل
حينما بعد حين ، ولم تكن وفاته دون الستين بمرض من أمراض
الهرم العاجل ، ولكنه توفي من أثر سرطان في الكبد لم يتحقق
منه الأطباء قبل استفحال الداء » .



هذه هي شخصية محمد عبده لمن تشوقه الشهرة المسموعة
الي الرؤية المشهوددة ، فإذا تطلع الى الخبر الخاص من سيرته

فالذى يعلمه بعد البحث الطويل قليل ، ولكن القليل فيه والكثير
يستويان في التعريف بما يعنينا من تلك العظيمة وما يعنينا :
شخصية ولا شخصية ، وإنسان له « أنانية » تخصه من بين
جميع الناس ، ولكنها كأنانية النوع الانسانى كله تحيزت بمكانها
في فرد انسان .

توفى عن زوجته اللبناية السيدة رضا حمادة من آل بيت
حمادة ، ولم يعقب من الأبناء الذكور غير ولد واحد توفى في
طفولته ، وأعقب أربع بنات كانت احداهن دون سن الزواج
عند وفاته ، وتزوج أخواتها بثلاثة أخوة هم : الأستاذ محمد
يوسف المحامى وشقيقاه الأستاذان عبد اللطيف وعثمان .

وكان له عند وفاته ثلاثة أخوة من أبيه ، أصغرهم « حمودة
بك » الذى رباه من طفولته وتولى عنه شئونه الخاصة التى لم
يفرغ لها طول حياته ، وهو الذى اشترى باسمه أرض الدائرة
السنية التى كانت تباع بالتقسيط ، واشترى باسمه خمسة
وثلثين فداناً من صحراء عين شمس كان الفدان منها يباع
بعشرة جنيهات ، ثم بيع بعد ذلك بخمسة وأربعين بعد البدء
بتعمير الصحراء ، أما مسكن الشيخ محمد عبده بصحراء عين
شمس فهو فدان من الأرض الخلاء تركه له المستشرق ويلفرد
سكاوين بلنت يوم أمر بالسفر من الديار المصرية ، وبنى عليه
مسكناً متواضعاً هو الذى اشترته وزارة الشئون الاجتماعية
لتخليد ذكره ، ومن ثمنه سدد الورثة ما بقى من أقساط الثمن

على الأرض التي اشتراها أخوه في حياته ، وقد كانت الأسرة
تملك نحو أربعين فدانا من أرض البحيرة المشجرة ، فلم يجتمع
في يديه من ميراثه ومن مرتباته وأثمان مؤلفاته غير ذلك المقدار
اليسير من المال الذي يكفى لشراء الفدادين من أرض في
الصحراء أو أرض تباع بالتقسيط..



وهذا المصلح المحسن الذي لم يفارقه شعور الحاجة قط
ليغنى ذوى الحاجات ، لم يخامرهُ الشعور بالحاجة يوما ليطلب
الغنى بما تملكه الأيدي ويحفظ في صكوك الموارث .

سنوات في تاريخ الاستاذ الامام

سنة	
١٨٤٩	ولد بقرية خلة نصر .
١٨٥٩	بدأ تعلم القراءة بمنزل والده .
١٨٦٢	تلقى أول دروس التجويد بالمسجد الاحمدى .
١٨٦٤	تلقى أول دروسه العلمية بالمسجد .
١٨٦٥	عاد الى قريته وتزوج .
١٨٦٥	اماده والده الى المسجد .
١٨٦٥	حضر أول الدروس بالجامع الأزهر .
١٨٦٩	لقى السيد جمال الدين .
١٨٧٢	أخذ في الكتابة المنشورة .
١٨٧٥	ألف حاشيته على شرح العوانى .
١٨٧٧	نال شهادة العالمية .
١٨٧٨	عين مدرسا بدار العلوم .
١٨٨٠	عين محررا للوقائع المصرية .
١٨٨٢	نفى من مصر لاشتراكه في الثورة العربية .
١٨٨٤	سافر من بيروت الى باريس لإنشاء مجلة العروة الوثقى مع السيد جمال الدين .
١٨٨٥	عاد الى بيروت واشتغل بالتدريس وترجم رسالة الرد على المهريين وشرح مقامات البديع ونهج البلاغة .
١٨٨٩	عاد الى مصر وعين قاضيا بالحاكم الأهلية .
١٨٩١	عين قاضيا بمحكمة الاستئناف .
١٨٩٥	عين عضوا بمجلس إدارة الأزهر .
١٨٩٧	ألف رسالة التوحيد وشرح البصائر النصرية .
١٨٩٩	عين مفتيا للديار المصرية ثم عضوا بمجلس الشورى .
١٩٠٠	انتخب رئيسا للجمعية الخيرية الإسلامية .
١٩٠٢	ألف كتاب الإسلام والنصرانية .
١٩٠٢	نشر الرد على هاتوتو .
١٩٠٥	اعتزل مجلس إدارة الأزهر .
١٩٠٥	تولى بالإسكندرية .

فهرس

الصفحة

٧	تمهيد
٩	العصر
٢٠	القرية
٣٨	الأزهر
٦٩	محلة نصر
٨٠	محمد بن عبده بن حسن خير الله
٩٤	محور حياة
١٢٢	مع جمال الدين
١٤٦	مع الثورة العراقية
١٥٨	القضية القومية
١٧٠	في الأزهر
١٩٦	مع عباس الثاني
٢٢١	المحسن المعلم
٢٣٥	المصلح الفيلسوف
٢٧٢	شخصية ولا شخصية

أعلام العرب

مكتبة الثقافة الحية التي تسام في اشتراكية الثقافة
بقروش زهيدة! - تصدر شهرية عن إدارة الثقافة بوزارة الثقافة
والإرشاد القومى - للمساهمة في التعريف بنوابغ المفكرين
من أعلام العرب ...

وتطلب من :

- ١ - مكتبة مصر ٣ شارع كامل صدقى « الفيحالة »
- ٢ - مكاتب شركة توزيع الاخبار بالقاهره المصري
- ٣ - وكلاء الشركة القومية فى جميع البلاد العربيه
- ٤ - مكتبة المثنى ببغداد


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

دار مصر للطباعة
٣٧٤ شارع كامل صدقى الفيحالة

أعلام العرب
الكتاب القادم

المعلمين عباد

للأستاذ علاء دهم

Bibliotheca Alexandrina



0215649

الناشر : مكتبة مصر باب
التمت : هـ فندوش

To: www.al-mostafa.com